إعجاز الكلمة القرآنية

دراسة أسلوبية بلاغية

د. عبد الحميد هنداوي

الأستاذ بكلية دار العلوم – جامعة القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

لا تزال قضية الإعجاز القرآني تشغل بال الباحثين والدارسين إلى يومنا هذا، ولا عجب في ذلك فالقرآن هو الكتاب الخالد الذي لا تنقضي عجائبه؛ وهو كلام العزيز الحكيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

وقضية إعجاز الكلمة القرآنية هي من القضايا التي لم تنل القدر الكافي من عناية الباحثين بها، فلا تعدو دراسات الباحثين في هذا المجال أن تكون مجرد إشارات سريعة عاجلة، أو مجرد خواطر ولمحات عند بعض الكلمات القرآنية، فضلاً عن أن الذين تعرضوا لدراسة هذا الموضوع لم يتعرضوا لدراسته من جميع جوانبه، وإنما اقتصرت دراساتهم على بعض المستويات اللغوية دون بعض ، حيث يغلّب البعض الاهتمام بالدلالة المعجمية للكلمة القرآنية دون نظر إلى التوظيف الفنيِّ لهذه الكلمة ومدى مناسبتها لسياقها ومقامها الذي وردت فيه ، كما يغلب على بعضها الآخر النظر إلى العلاقات النحوية المتحكمة في نظم الكلمات القرآنية بعضها ببعض.

وثمة ندرة شديدة في الدراسات التي تهتم بالنظر إلى التوظيف الفنيِّ لصيغة الكلمة ، أو باستثمار الإيحاءات الفنية للتشكيل الصوتي لها ، وهذان المجالان على أهميتهما لا نجد كبير اهتمام بهما ؛ ورغم كثرة الدراسات في المجال الصوتي ؛ فإن كثيرًا من الدراسات التي تمحضت لدراسة الأصوات في القرآن قد اقتصرت في دراستها على الدراسة البحتة للأصوات _ (سواء كان في إطار علم الأصوات، أو في إطار علم القراءات القرآنية وتجويد القرآن) _ ولم تقم باستثمار تلك الدراسات أو تطويرها لبحث الأثر الجمالي أو الدلالة الفنية لتلك الأصوات أي إنه لم يحدث ربط بين تلك الدراسات وعلم البلاغة أو الأسلوب في الغالب.

ورغم عناية عبد القاهر الجرجاني البالغة بنظرية النظم التي يفترض أنها تنتظم النظام اللغوي كلّه بحروفه وأصواته وصيغه وأبنيته كلها سواء على مستوى اللفظة المفردة – بما لها من دلالات شتى : معجمية وصوتية وصرفية ، أو على مستوى التراكيب النحوية ؛ فإن الحق يقال : إن عناية عبد القاهر قد تركزت على التراكيب أكثر منها على اللفظة المفردة – من خلال سياقها والتركيب الذي تشارك فيه بالطبع – أي أنه انشغل بموقع تلك الكلمة من النظم أكثر من سمات تلك الكلمة في ذاتها وما تسهم به من ثم في تشكيل الدلالة التركيبية ، أي إن عنايته قد تركزت على ما يمكن أن نسميه بالدلالة أو الوظيفة النحوية لهذه الكلمة ، وذلك على حساب عنايته بالدلالة الصوتية أو الصرفية لتلك المفردة التي شغله منها أكثر ما شغله دلالتها المعجمية ، وإن كنا لا نعدم إشارات قليلة في كتابه لتلك الدلالة الصرفية للكلمة التي تركزت في غالبها على التفريق بين دلالتي الاسم والفعل ؛ حيث غابت في كتابيه دلالات كثير من فروع هاتين الصيغتين الأصليتين والتي تنأى عن الحصر كما يقرره أهل اللغة كالسيوطي في المزهر وغيره.

بينما تكاد تندر الإشارة إلى الدلالة الصوتية للحروف والكلمات – وهي بطبيعة الحال دلالة فنية إشارية رمزية ليست كالدلالة المعجمية للكلمات –فهذه الدلالات تندر في كتابه أو تكاد تنعدم ، إلا بشيء من التكلف في حمل كلامه على الالتفات إليها ، إذا ما تجاوزنا -بالطبع – ما هو شائع معروف من قبله ومن بعده من الكلام على مثل السجع والتجنيس ونحوهما ، لأننا نعني بتلك الدلالة الصوتية ما هو أبعد من ذلك ، كما سوف ترى في كتابنا هذا.

لذلك فقد رأيت - وفي ضوء تلك الطفرة البحثية الحديثة في الدراسات الجمالية للغة القائمة على الإفادة من الدراسات الأسلوبية -ضرورة استثمار الدرس اللغوي الأسلوبي المعاصر لاستخراج كافة الإمكانات والطاقات اللغوية الثرَّة للنص القرآني.

وإذا كان "الكلام بالطبع يتركب من ثلاثة: حروف هي من الأصوات، وكلمات هي من الحروف، وجمل هي من الكلام. وقد رأينا سر الإعجاز في نظم القرآن يتناول هذه كلها بحيث خرجت من جميعها تلك الطريقة المعجزة التي قامت به؛ فليس لنا بد في صفته من الكلام في ثلاثتها جميعًا"[1].

وإذا كان المتكلم في إعجاز القرآن ليس له بد من الكلام في هذه المستويات ؛ إذا فنحن أمام ثلاث مستويات على مستوى الكلمة المفردة ، وأمام مستوى رابع على مستوى الجمل والتراكيب – هو المستوى النحوي .

فمن ثم يعنى البحث الأسلوبي بهذه المستويات الخمس :

(١) المستوى الصوتي.

(٢) المستوى المعجمي.

(٣) المستوى الصرفي .

(٤) المستوى النحوي.

(٥) المستوى التصويري.

ومن ثم ظهرت الحاجة ملحة لدراسات أسلوبية للإعجاز القرآني تشمل هذه المستويات جميعها ، خاصة مع قلّة الدراسات التي تعنى بهذين الجانبين من جوانب البحث الأسلوبي للقرآن الكريم – أقصد ما يتعلق بالجانبين الصوتي والصرفي من جوانب دراسة الكلمة القرآنية.

وقد رأيت ضرورة التقديم بين يدي البحث بدراسة نظرية موجزة تؤصل حقيقة الإعجاز القرآني وتبين حدَّه ووجوهه وآراء العلماء في ذلك .

---

(١) الرافعي _ إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ط المكتبة العصرية _ بيروت _ ص١٧١.

حقيقة الإعجاز القرآني:

تتعدد وجوه الإعجاز القرآني وتتنوع تنوعا كبيرا ، وللعلماء في عدِّ تلك الوجوه وبيانها أقوال وآراء ، ما بين موسِّع ومضيِّق ، الأمر الذي يدعونا إلى ضرورة الوقوف على أقوال هؤلاء العلماء في حدّ الإعجاز وحقيقته .

الإعجاز : مصدر قولك أعجزه الشيء إعجازًا فهو معجز له، يقال: أعجزه الشيء، أي: عجز عنه[٢]. وأعجز الشيء فلانا، أي: فاته ولم يدركه، والمعجزة: أمر خارق للعادة يظهره الله على يد نبي تأييدًا لنبوته[٣].

ومن ثم فالمقصود بإعجاز القرآن هو كونه مما يعجز الناس عن الإتيان بمثله، ولذا وقع التحدي من الله تعالى للإنس والجن أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا.

وعلى هذا جاء تعريف العلماء للإعجاز والمعجزة:

جاء في الإتقان "اعلم أن المعجزة أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي سالم عن المعارضة، وهي إما حسية و إما عقلية"[٤].

ومعنى ذلك أننا إذا نظرنا إلى إعجاز القرآن من جهة لغته فإنه يشترط في لغة القرآن أن تكون خارقة لعادة البشر في كلامهم وتخاطبهم بحيث يتعذر عليهم التكلم بمثل ما في القرآن، ولذا قال الباقلاني: "معنى العجز عندهم: تعذر فعل مثله"[٥].

وقد فسر الجرجاني الإعجاز بأن يعلم الناس: "أن الذي سمعوه فائت للقوى البشرية، ومتجاوز للذي يتسع له ذرع المخلوقين"[٦].

ويفسر الرماني معنى كون القرآن خارقا للعادة أو ناقضا لها فيقول: "وأما نقض العادة فإن العادة كانت جارية بضروب من أنواع الكلام المعروفة، منها الشعر، ومنها السجع، ومنها الخطب، ومنها الرسائل، ومنها المنثور الذي يدور بين الناس في الحديث، فأتى القرآن بطريقة مفردة خارجة عن العادة لها منزلة في الحسن تفوق كل طريقة"[٧].

ويقول الجرجاني في ذلك: "والشرط في المزية الناقضة للعادة أن يبلغ الأمر فيها إلى حيث يبهر ويقهر حتى تنقطع الأطماع عن المعارض..... وحتى يكون

---

(٢) ابن سيده - المحكم - تحقيق د/ عبد الحميد هنداوي / دار الكتب العلمية بيروت ٢٩٨/١.

(٣) الوجيز ص ٤٠٧.

(٤) السيوطي - الإتقان في علوم القرآن ١١٦/٢.

(٥) الباقلاني - إعجاز القرآن ص ٢٩٦.

(٦) الرسالة الشافية ص ١١٧.

(٧) النكت في إعجاز القرآن ص ١١٠.

يأسهم منه وإحساسهم بالعجز عنه في بعضه مثل ذلك في كله"[٨]. كما يشترط في نقض العادة كذلك "أن يعم الأزمان كلها[٩]".

فبشهادة هؤلاء البلاغيين، ومن قبلهم ما تواتر عن العرب الذين نزل فيهم القرآن وهم ذوو لسَن وفصاحة بلاغة _ نعلم تحقق كونه خارقًا للعادة في نظمه ومعانيه وفصاحته وبلاغته، وهذا هو الشرط الأساسي في كونه معجزًا.

وأما اشتراط كونه مقرونًا بالتحدّي فعلى افتراض صحة لزوم هذا الشرط لمعنى المعجزة، فإنا نقول إن القرآن جاء مقرونًا بالتحدّي الواضح للإنس والجن أن يأتوا بمثله أو بعشر سور مثله مفتريات أو بسورة من مثله قصيرة أو طويلة، وهذا التحدّي واقع للخلائق إلى يوم القيامة.

قال تعالى: **﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا(٨٨)﴾**[الإسراء: ٨٨].

وقال تعالى: **﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ(٣٨)﴾**[يونس:٣٨].

وقال تعالى: **﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ(٢٣)﴾**[البقرة: ٢٣].

وقال تعالى: **﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ(١٣)﴾**[هود:١٣].

وأما ما اشترط من كون المعجزة سالمة عن المعارضة، فهذا ثابت واضح ولم يأت من عارض القرآن إلا بالمضحكات من نحو: "والطاحنات طحنًا.. والعاجنات عجنًا" ونحوه من السخافات.

ومعلوم واضح أن معجزة القرآن معجزة عقلية ترجع إلى تأمل معانيه وأسراره وهذا أبلغ وأدل في باب الإعجاز من المعجزات الحسية المادية التي أوتيها النبيون قبل محمد _صلى الله عليه وسلم.

ولذلك يرى ابن خلدون "أن أعظم المعجزات وأشرفها وأوضحها دلالة القرآن الكريم المنزل على نبينا محمد ﷺ فإن الخوارق في الغالب تقع مغايرة للوحي الذي يتلقاه النبي ويأتي بالمعجزة شاهدة بصدقه والقرآن هو بنفسه الوحي المدعى والخارق المعجز، فشاهده في عينه ولا يفتقر إلى دليل مغاير له كسائر المعجزات مع الوحي، فهو أوضح دلالة لاتحاد الدليل والمدلول فيه، وهذا معنى قوله ﷺ: ما من نبي من الأنبياء إلا وأوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحي إلي فأنا أرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة"[١٠]، يشير إلى أن المعجزة

---

(٨) الرسالة الشافية ص ١٢٩.

(٩) السابق ص ١٣٥.

(١٠) المقدمة: ٩٥.

متى كانت بهذه المثابة في الوضوح وقوة الدلالة وهو كونها نفس الوحي كان الصدق لها أكثر وضوحًا.

وإذا كانت المعجزة أمرًا خارقا للعادة فهي آية أو علامة على كونها من عند الله العلي القدير ومن ثم سمى القرآن الكريم آياته آيات باعتبارها معجزات دالة على كونها من لدن حكيم خبير، ومن ثم فإن معجزة القرآن يتحد في آياتها الدليل والمدلول كما يقول ابن خلدون، ويصدق ذلك قوله تعالى: **﴿وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ(٥٠) أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(٥١)﴾**[العنكبوت: ٥٠-٥١].

فالقرآن يبين أن الكفار قد طلبوا أن ينـزل على النبي _صلى الله عليه وسلم_ آيات أي معجزات حسية مادية كما أنـزل على النبيين من قبله، والقرآن يرشدهم إلى أعظم معجزة أنـزلها الله تعالى على الإطلاق حيث جعل فيها الكفاية عما عداها من المعجزات، فيقول سبحانه: **﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(٥١)﴾**[العنكبوت:٥١].

فمعجزة القرآن كافية ومغنية عما سواها، وما سواها ليس مغنيًا عنها.

إعجاز القرآن ينافي القول بالصرفة:

وإذا كان هناك من ذهب إلى أن إعجاز القرآن إنما هو بالصرفة أي بأن الله تعالى صرف قلوب العباد عن التوجه لمعارضته[١١]؛ فإن في كلام عبد القاهر السابق وغيره من البلاغيين ردًا على هؤلاء ببيان الوجه الخالد لإعجاز القرآن، وهو كونه قد بلغ من جماله ورونقه وحسن بيانه حدًا يبهر الناظر فيه، ويقهر المعاند له، ويقطع أطماعه عن الطموح لمعارضته أو مطاولة بيانه ونظمه.

كما نجد في كلام عبد القاهر أيضا ما يمكن أن نسميه بتصحيح القول بالصرفة نقصد بذلك الدلالة على نوع آخر من الصرفة هو أولى من المدّعى وأحق به، وهو رد الصرفة إلى قوة ظاهرة بينة يقر بها الخصم، بدلاً من رد ذلك إلى قوة خفية غير مرئية لا يسلم بها الخصم ولا دليل يقوم عليها. بمعنى أن يقال إن القرآن قد بهر الناس بجماله ورونقه وحسن بيانه، فقهر نفوسهم، وقطع أطماعهم، وأوقع في نفوسهم اليأس من مجاراته، والتفكير في معارضته حتى لا يخطر لهم ذلك ببال، ولا تحدثهم به أنفسهم، فسرّ هذه الصّرفة إنما يرجع لما يرى الناس من بلاغة القرآن

---

(١١) انظر تفصيل هذا القول وتتبع القائلين به تتبعا تاريخيا منذ نشأته في كتاب الأستاذ محمود شاكر (مداخل إعجاز القرآن) وانظر على سبيل المثال ص٥٧-٦٩ وغيرها من المواضع حيث بين جذور هذا القول عند النظّام والجاحظ وغيرهما من المعتزلة، وقد عد الرماني في القرن الرابع الهجري الصرفة وجهًا من وجوه إعجاز القرآن حيث قال: "وجوه إعجاز القرآن تظهر من سبع جهات: ترك المعارضة مع توفر الدواعي وشدة الحاجة، والتحدي للكافة، والصرفة والبلاغة والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة، ونقض العادة وقياسه بكل معجزة".[الرماني: النكت في إعجاز القرآن ص ٧٥

وفصاحته وجمال نظمه، فهي صرفة بيانية ترجع إلى أسباب ظاهرة يعرفها الخصم ويقر بها.

أما الصرفة المدعاة فمردها إلى أمر مجهول وقوة خفية، بحيث لا يدري الشخص ما الذي يحول بينه وبين معارضة القرآن، أو يستشعر بأن قوة ما تحول بينه وبين معارضته، وهو يعلم في قرارة نفسه أنه لو خلى بينه وبين تلك المعارضة لقدر عليها ولتمكن منها، ولا شك أن القول بهذه الصرفة باطل لا محالة من وجوه عديدة ليس هنا محلّ بسطها، ولكننا نذكر أهم تلك الوجوه:

فمنها أنه يلزم من القول بذلك القول أن الإتيان بمثل كلام الله هو في مقدور البشر واستطاعتهم لو خلى بينهم وبين معارضته لولا صرف الله تعالى لهم، وفي هذا من البطلان ما فيه، من إبطال وجه من أهم وجوه إعجاز القرآن بلا داع، ومن القول بإمكان مشابهة كلام المخلوق لكلام الخالق الذي هو صفة له، كما يلزم من ذلك أيضا القول بعجزه سبحانه أن يأتي بكلام معجز، لأنه على لازم كلامهم قد عجز عن أن يكون كلامه معجزا بنفسه، فأعجز الناس قهرا عن محاولة مشابهته ومعارضته.

هذا وقد رد القول بالصرفة عامة البلاغيين قديما وحديثا خلا المعتزلة ومن نحا نحوهم[١٢]. ورغم اعتزال الجاحظ فإنه لحسِّه البلاغي لم يستطع مشايعة النَّظّام

---

(١٢) انظر في بيان ذلك تفصيلا على سبيل المثال: إعجاز القرآن للرافعي ط المكتبة العصرية ص ١٦٠، حيث يقول: "لا جرم كان من الرأي الفائل والمذهب الباطل قول أولئك الذين زعموا أن الإعجاز كان بالصرفة، على ما عرفت من معناها". ومداخل إعجاز القرآن للشيخ محمود شاكر حيث عرض القضية في كتابه (مداخل إعجاز القرآن) عرضًا تاريخيًا لا يخلو من نقد ورأي وتحليل (٦٩-٧٧، ١٦٢،١٦٣) ومواضع أخر كثيرة وانظر أيضا د/ أحمد سيد محمد عمار في كتابه (نظرية الإعجاز القرآني وأثرها في النقد العربي القديم) ط دار الفكر دمشق ص ٥٢، هذا "وكتب الجاحظ فيها ذكر كثير للنظام، ومقتبسات كثيرة من فرائد بيانه، إلا أن الجاحظ لما سمع منه القول بالصرفة أنكره إنكارًا واضحًا لا لبس فيه، وكلام الجاحظ قاطع بأن نظم القرآن لا طاقة لبشر به ....[الإعجاز البلاغي _ د/ محمد أبو موسى صـ٣٥٩] قال الجاحظ: "ولو أن رجلا قرأ على رجل من خطبائهم وبلغائهم سورة واحدة لتبين له في نظامها، ومخرجها عن لفظها، وطابعها أنه عاجز عن مثلها، ولو تحدى بها أبلغ العرب لأظهر عجزه عنها". وهذا الفهم المستقيم لا يلتقي مع الصرفة من قريب ولا من بعيد وهو نص في بيان علة العجز وأنها كائنة في نظام الكلام ومخرجه من لفظه وطابعه، وأن العرب قد تبين لهم ذلك واستيقنوه وأنهم عجزوا عجز من يعرف علة عجزه، وليس عجز المتحير المصروف، وقد كتب الجاحظ كتابًا في هذا الباب سماه "الاحتجاج لنظم القرآن" والتسمية قاطعة في رفض الصرفة، وقد قال في نعته: "فلم أدع فيه مسألة لرافضي، ولا لحديثي، ولا لحشوي، ولا لكاف مباد، ولا لمنافق مقموع، ولا لأصحاب النظام، ولمن نجم بعد النظام ممن يزعم أن القرآن حق، وليس تأليفه بحجة، وأنه تنزيل، وليس ببرهان ولا دلالة". وهذا قاطع في رفض الصرفة" [السابق: ٣٦٠]، وقد اختلف العلماء في أمر الجاحظ لأجل أنه قد جاء في كلامه ما قد يعارض هذا القول انظر إعجاز القرآن للرافعي ص ١٦٥، وقد حاول د/ أبو موسى التوفيق بين القولين والانتصار لرفضه الصرفة، وانظر كلام الشيخ محمود شاكر في ذكره رفض الجاحظ هذه المقولة كذلك في كتابه مداخل إعجاز القرآن ص ٩٩، وانظر أيضا د/ محمد محمد أبو موسى في كتابه (الإعجاز البلاغي) ط مكتبة وهبة ص ٣٦٠ في بيانه مخالفة الجاحظ لمقولة الصرفة.

من قبله في القول بالصرفة هذا، ومن الجدير بالذكر أن ننوه بعرض أ/ محمود شاكر لهذه القضية في كتابه (مداخل إعجاز القرآن) عرضا تاريخيا لا يخلو من نقد ورأي وتحليل ثم قال في نهاية عرضه: "وهذا الذي اقتصصته لك، تاريخ مختصر أشد الاختصار، ولكنه مجزئ في الدلالة على تحديد معنى (إعجاز القرآن) بالمعنى الذي يفهم من هذا اللفظ على إطلاقه، ومجزئ في الدلالة على هذا (الإعجاز) من أي وجوه الإعجاز كان إعجازًا، وإنه ليكشف عن أمور لا غنى لدارس عن معرفتها:

الأول: قليل القرآن وكثيره في شأن (الإعجاز) سواء [١٣].

الثاني: أن (الإعجاز) كائن في رصف القرآن وبيانه ونظمه، ومباينة خصائصه للمعهود من خصائص كل نظم وبيان في لغة العرب، ثم في سائر لغات البشر، ثم في بيان الثقلين جميعًا _ إنسهم وجنهم متظاهرين.

الثالث: أن الذين تحداهم بهذا القرآن، قد أوتوا القدرة على الفصل بين الذي هو من كلام البشر، والذي هو ليس من كلامهم.

الرابع: أن الذين تحداهم به كانوا يدركون أن ما طولبوا به من الإتيان بمثله، أو بعشر سور مثله مفتريات، هو هذا الضرب من البيان، الذي يجدون في أنفسهم أنه خارج من جنس بيان البشر.

الخامس: أن هذا التحدي لم يقصد به الإتيان بمثله مطابقًا لمعانيه، بل أن يأتوا بما يستطيعون افتراءه واختلاقه من كل معنى أو غرض، بما يعتلج في نفوس البشر.

السادس: أن هذا التحدي للثقلين جميعًا إنسهم وجنهم متظاهرين، تحد مستمر إلى يوم الدين.

السابع: أن ما في القرآن من مكنون الغيب،ومن دقائق التشريع، ومن عجائب آيات الله في خلقه، كل ذلك بمعزل عن هذا التحدي المفضي إلى الإعجاز، وإن كان ما فيه من ذلك يعد دليلاً على أنه من عند الله تعالى، ولكنه لا يدل على أن نظمه وبيانه مباين لنظم كلام البشر وبيانهم، وأنه بهذه المباينة كلام رب العالمين، لا كلام بشر مثلهم.

هذا ؛ ومع تقديرنا العظيم لما ذهب إليه أ/محمود شاكر من رجوع إعجاز القرآن إلى نظمه وفصاحته وبلاغته ؛ فإننا نقرر كذلك أن هذا الذي ذهب إليه لا ينافي رجوع الإعجاز إلى معاني القرآن وما اشتمل عليه من الإخبار بالغيب في الماضي والحاضر والمستقبل ، وكذلك ما اشتمل عليه من تشريعات عظيمة ، لا يمكن للبشر أن يصلوا إليها بعقولهم القاصرة ، وما اشتمل عليه من دستور شامل لأحسن الأخلاق والآداب التي لا تكاد تجتمع إلا في الأنبياء وأتباعهم ممن تمثلوا هذا الوحي وجسدوه قرآنا يمشي على الأرض.

---

(١٣) بين الشيخ دليل ذلك بأن القرآن إنما نـزل منجما ومفرقا، فلو لم يكن معجزًا قليله وكثيره لما كان الإعجاز والبرهان على النبوة قائمًا في زمن لم ينـزل فيه سوى صدر سورة العلق أو قصار السور.

كذلك فإن ما اشتمل عليه القرآن من إشارات لمختلف العلوم والفنون لهو وجه عظيم من وجو الإعجاز كذلك ، لا من جهة التحدِّي بالإتيان بمثل هذه العلوم والفنون ، ولكن من جهة التحدِّي بوقوع مثل هاتيك العلوم والفنون من مثل هذا الكتاب المنزل على ذلك الرجل الأميِّ في تلك الأمة الأمية في ذلك الزان الذي عمَّت في الجهالة ، ووسمت الناس في ذلك الزمان ضربة لازب، ولعلَّ هذا يتفق مع أحد التفسيرات لقوله تعالى "فأتوا بسورة من مثله" أي من مثل ذلك الرجل الأميِّ (محمد) - ﷺ .

الإعجاز الأسلوبي للقرآن الكريم:

قد يظن لأول وهلة أننا نقصد بالإعجاز الأسلوبي للقرآن الكريم ذلك النوع من الإعجاز الذي أبدأ فيه أسلافنا القول وأعادوا من جهة النظر في أساليب القرآن خبريها وإنشائيها وما تشتمل عليه من وجوه الفصاحة والمعاني والبيان والبديع مما أفاضت فيه دراسات تنأى عن الحصر في القديم والحديث ؛ فالحق أن هذا كله داخل بلا شك فما تعنيه هذه العبارة ، وهذا كله لا يخرج عن وجوه الإعجاز التي اتفق سلف العلماء وخلفهم على وقوع الإعجاز فيها ؛ ولكننا نقصد بهذه العبارة أبعد من ذلك ؛ إذ نقصد بها اعتماد منهج البحث الأسلوبي في دراسة النصوص الأدبية على اتساع مجالاته اللغوية واللسانية وتعدد إجراءاته التطبيقية اعتمادا يفيد من حسنات هذا المنهج واتساع مستويات الدرس الدلالي فيه ، مع الحذر – في الوقت نفسه – من سلبيات هذه المناهج وما تشتمل عليه من بعض القواعد والإجراءات التي قد لا تتفق وطبيعة القرآن خاصَّة ،أو اللغة العربية عامة .

ولا شك أن اعتماد هذا المنهج بتلك القيود والضوابط يستدعي أن نقف أولا على تحديد معنى الأسلوب وبيان مستوياته الدلالية وإجراءاته التطبيقية قبل خوض غمار هذا البحث .

تعريف الأسلوب :

الأسلوب له محاور ثلاثة هى المرسل والمستقبل والرسالة(١٤).

فثمة طائفة نظروا إلى الأسلوب من جهة المرسل باعتبار ما بينهما من تلاحم تام، حيث تم "إدماج المولف صاحب الاختيار في تعريف الأسلوب على أنه اختيار"(١٥).

حتى إن أصحاب هذا الاتجاه قد طابقوا بين الأسلوب وصاحبه فقالوا: "الأسلوب هو الرجل"(١٦).

---

(١٤) انظر د/ عبد السلام المسدى - الأسلوبية والأسلوب - الدار العربية للكتاب - تونس ١٩٧٧ ص ٥٧

(١٥) انظر/ برند شبلنر/ علم اللغة والدراسات الأدبية/ ترجمة د/ محمود جاد الرب ص ٨١.

فالأسلوب على ذلك ما هو إلا سمات تعبيرية مميزة لصاحبه، فالمبدع يختار ويؤثر من الوسائل التعبيرية التي يختارها من بين أنماط اللغة العديدة ما يصير سمة مميزة له، وعلما دالا عليه، وبصمة خاصة أو صوتا ينفرد به لا يختلط بغيره من الأصوات؛ ومن ثم عرّفوا الأسلوب بأنه:

"اختيار واع يسلطه المؤلف على ما توفره اللغة من سعة وطاقات"[١٧].

أو هو "طريقة اختيار الألفاظ وتأليفها للتعبير بها عن المعاني بقصد الإيضاح والتأثير..."[١٨].

ويوضح أ/ الشايب حقيقة الاختيار ببيان" أن **الأسلوب الأدبى ينحل إلى عناصر ثلاث:**

١- الأفكار

٢- والصور

٣- والعبارات

وهذا الذي ذهب إليه الأسلوبيون المحدثون لا يكاد يختلف كثيرًا عما قرره علماء البلاغة قديمًا ، فهذا التميز أو التفرد الأسلوبي - الذي يتميز به المستوى الفني من الكلام - هو ما عبر عنه البلاغيون القدامى بحسن التخير للفظ؛ حتى إن بعضهم قد قصر البلاغة على حسن التخير.

وهذا ما انتهى إليه كلام عبد القاهر في تحقيق القول على البلاغة والفصاحة والبيان والبراعة وكل ما شاكل ذلك، حيث ينتهي كلامه في هذا المقام إلى أنه (لا جهة لاستعمال هذه الخصال غير أن تأتى المعنى من الجهة التى هى أصح لتأديته، وتختار له اللفظ الذي هو أخص به...)[١٩].

العدول الأسلوبي :

إذا كان هؤلاء الأسلوبيون قد عرفوا الأسلوب على أنه اختيار فإن أكثر الأسلوبيين قد نظروا إلى الأسلوب على أنه نوع من العدول أو ما سموه بالانحراف أو الانـزياح أو المجاوزة ونحو ذلك مما يقصد به التعبير عن خروج الكلام عن المألوف أو الشائع ومجاوزته إياه .

---

(١٦) انظر د/ أحمد درويش - النص البلاغى فى التراث العربى والأدبى - ط مكتبة النصر - داخل جامعة القاهرة، مقال فى الأســلوب - جورج بوفون ص ١٨٩-١٩٤، وأنظر مقالة بعنوان الأسلوب والأسلوبية، فى فصول ٨٤/١، ص ٦٠.

(١٧) عبد السلام المسدى - الأسلوبية والأسلوب - ص ٧٠-٧١- الدار العربية للكتاب - ليبيا - تونس ١٩٧٧.

(١٨) أحمد الشايب - الأسلوب ص ٣٦ - مكتبة النهضة المصرية - ٩ ش عدلى بالقاهرة ط٣.

(١٩) دلائل الإعجاز/ بتحقيق محمود شاكر ص ٤٣.

ونستطيع أن نلمح وقوف البلاغيين على هذا الانحراف واعتماده لديهم أساسا للكشف عن التوظيف البلاغي للكلمة وهو ما أطلق عليه في تراثنا البلاغي مصطلح العدول. فإذا كانت البلاغة ترجع في سائر تعريفات البلاغيين التى سبق ذكرها إلى حسن تخير اللفظ، فإنه مما يجدر بنا التنبيه إليه أن هذا التخير أو الاختيار للفظ يمثل في غالب الأحيان أنواعا من العدول.

فالاختيار في حقيقته إنما هو عدول عن المستوى النمطى أو العادى من اللغة إلى المستوى الفنى من الكلام وقد يمثل تخير اللفظ نوعا من العدول عن النظام اللغوى أو عن الاستخدام الشائع، أو عدولا داخليا وهو ما يسميه ريفاتير بالعدول السياقى.

وفي الحقيقة أن النظرة إلى العدول على أنه عدول عن المستوى النمطى إلى المستوى الفنى نظرة لا تكاد تفرق بينه وبين الاختيار أما العدول الجدير بإفراده بمصطلح خاص يميزه عن الاختيار وإن كان يشترك معه في كونه انتقاء للفظ وإيثاراً له على غيره هذا العدول هو ما كان يمثل في رأيى نوعا من العدول عن النظام أو الأصل اللغوى أو نوعا من العدول عن سياق النص وهو ما عرف في التراث اللغوى والبلاغي بالمجاز[٢٠]والنقل، والانتقال، والتحريف، والانحراف، والرجوع، والالتفات، والعدول، والصرف، والانصراف، والتلون، ومخالفة مقتضى الظاهر، وشجاعة العربية، والحمل على المعنى، والترك، ونقض العادة، وغير ذلك[٢١].

هذا العدول قد عبر عنه في الدراسات الحديثة بمصطلحات عديدة كذلك، منها : الانحراف، والانزياح، والاختلال، والانتهاك، والتجاوز، والمخالفة، واللحن، وخرق السنن والشناعة، والإطاحة، والتحريف .. الخ[٢٢] فإذا كان النظر إلى الأ... من زاوية المنشئ قد أثمر مقولة الاختيار، فإن النظر إليه من زاوية النص

(٢٠) المجاز هنا هو مصطلح أبى عبيدة فى كتابه مجاز القرآن وهو أوسع من الدلالة التى استقر عليها مصطلح المجاز فى الدراسات البلاغية.

(٢١) انظر مجاز القرآن لأبى عبيدة ٩/١، البديع لابن المعتز ص ٥٩/٥٨، البرهان فى وجوه البيان لابن وهب الكاتب ص ١٥٣، الفروق لأبى هلال العسكرى ص ١٩٠، إعجاز القرآن للباقلانى ص ٢٧٣، ٢٧٤ المثل السائر لضياء الدين بن الأثير ١٦٧/٢، ١٦٩، ٢٤١، ٢٤٦ جوهر الكنز نجم الدين بن الأثير ص ١١٨-١١٩، الكشاف للزمخشرى ١٨٦/٢، ٢٠/٣، مفتاح العلوم للسكاكى ص ١٠٦ (المطبعة الأدبية)، الإيضاح للخطيب القزوينى ص ١٥٧(بتعليق د/ محمد خفاجى)، الطراز ليحى العلوى ١٣١/٢-١٣٢ ١٣٥- ١٣٦ ١٣٧، التبيان للطيبى= =٣٤٧/٢ بتحقيق / عبد الحميد هنداوى ط المكتبة التجارية بمكة، شروح التلخيص ٤٦٣/١ ٤٦٧ الخصائص لابن جنى /١ ٢١٤ - ٢١٥ ٤١١، ١٨٨/٣ ٢٦٧، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها د/ أحمد مطلوب ص ٢٩٦.

(٢٢) انظر المسدى - الأسلوبية ص ٩٤.

أو الرسالة قد أثمر مقولة العدول أو ما أسموه بمصطلحات عديدة لعل أبرزها، مصطلح الانحراف[٢٣]DEVIATION

وذهب ريفاتير إلى اعتبار القاعدة في العدول هي السياق نفسه. [٢٤].

إن نظرية العدول السياقى عند ريفاتير هى أقرب شيء إلى ظاهرة الالتفات في البلاغة العربية ولذا تعد من نقاط الالتقاء بين الأسلوبية الحديثة وبين البلاغة العربية في تناولها لظاهرة العدول وخاصة في مبحث الالتفات[٢٥].

وقد ينظر إلى الأسلوب باعتبار ما يغلب عليه من الظواهر الأسلوبية المختلفة ومدى تكرر تلك الظواهر بحيث يمكن أن تمثل سمات أسلوبية معينة لعمل بعينه أو لمبدع بعينه ، وهنا نجد الاهتمام بدراسة ظواهر التكرار الأسلوبي في نص بعينه .

وقد سبق أن تعرضنا لبحث ظاهرة التكرار من خلال دراسة ظاهرة التكرار الصوتي دراسة أسلوبية [٢٦].

ونستطيع أن نضرب مثالا للتحليل الأسلوبي الذي تتداخل فيه الدلالة اللغوية في جميع مستوياتها اللغوية لتشارك في خلق دلالة فنية خاصة لكلمة في سياق بعينه .

ولننظر على سبيل المثال هنا إلى الدلالة الفنية لكلمة (توسوس) في قوله تعالى: { **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ** }[٢٧] ، تلك الدلالة التى تتآزر في تشكيلها الدوال الصوتية والمعجمية والصرفية والنحوية .

حيث يقوم البحث الأسلوبي باستثمار تلك الدلالات التى تعطيها تلك الدوال المتعددة لتشكيل الدلالة الفنية لتلك الكلمة .

وينظر الأسلوبي إلى السياق والمقام الذى سيقت ضمنه تلك الكلمة :أولاً ، ثم ينظر في مختلف دلالاتها السابقة ليرى مدى مناسبتها ومطابقتها لمقتضى الحال أو المقام الذى سيقت لأجله .

---

(٢٣))انظر الأسلوبية والأسلوب المسدى ص ٩٦، ٩٧ وقد اخترت التعبير عن هذه الظاهرة بلفظ العدول لأمور: أولها: أن هذا التعبير هو اختيار أغلب البلاغيين القدماء كما سبق أن أوردنا. ثانيها: أنه أدق فى التعبير عن الظاهرة ووصفها. ثالثها: أن لفظة الانحراف تشمل إيحاءات إضافية قد لا تناسب الظاهرة ولعل أهم هذه الإيحاءات هو إيحاء الخطأ وهو غير وارد فى مصطلح العدول. وانظر د/ محمد عبد المطلب/ بناء الأسلوب فى شعر الحداثة التكوين البديعى ص ٣٢٤، وانظر له أيضا البلاغة والأسلوبية ط الهيئة ١٩٨٤ ص ١٩٨.

(٢٤) انظر علم الأسلوب ص ١٩٣.

(٢٥) انظر نظرية اللغة فى النقد العربى ٢٤٩ ٢٥٠ وأسلوب الالتفات فى البلاغة القرآنية د/ حسن طبل ص ٤٦، ٥٢.

(٢٦) انظر البحث المنشور في مجلة كلية الآداب – جامعة المنوفية – عدد يناير ٢٠٠٨

(٢٧) سورة ق : ١٦ .

لقد سيقت تلك الكلمة في مقام الحديث عن قدرة الله الشاملة على خلق الإنسان وإحاطة علمه به ، واطلاعه سبحانه على خفايا نفسه ، وهواجس ضميره ، وقربه منه سبحانه قربا لا تخفى معه خافية من أحواله على من يعلم السر وأخفي .

ومن هنا تأتى هذه الكلمة القرآنية متآزرة مع ذلك السياق ومناسبته أتم المناسبة لذلك المقام بما لها من دلالات مختلفة صوتية ومعجمية وصرفية ونحوية .

وهنا تستثمر الدراسة الأسلوبية الدراسات اللغوية المتعددة لتخرج بدلالة الكلمة في مختلف دلالاتها اللغوية السابقة ، ليقف الباحث على دلالتها الفنية التى هى محصلة تلك الدلالات جميعها .

فمن الناحية المعجمية يقارن البحث الأسلوبي بين الخيارات المتبادلة مع تلك الكلمة (توسوس) مثل (تتكلم - تتحدث - تّسر - تخفي) لينتهى من خلال النظر في معاني كل كلمة من تلك الكلمات إلى تفوق تلك الكلمة بما لها من مناسبة تامة لسياقها ومقامها لا تقوم به أي كلمة أخرى من البدائل الأخرى ؛ فالوسوسة هى الصوت الخفي غير المميز كصوت الريح أو الحَلي مثلا ، ومن هذا القبيل وسوسة الشيطان فهى خفية وغير واضحة ولا مميزة ، بل تتسلل إلى النفس تسللا خفيّا لا يكاد يشعر بها المرء ، بحيث لا يفرق بينها وبين نفسه .

ومن هنا تأتى مناسبة كلمة الوسوسة لسياقها لما تدل عليه من الخفاء وعدم التميز والوضوح، ومع دقتها وخفائها وعدم تميزها ووضوحها تظهر قدرة الله تعالى وسعة علمه في إحاطته بها ووقوفه عليها ، مما يلقى الرهبة ويعظم الخوف في قلوب العباد من تلك القدرة النافذة، إلى شغاف القلوب حتى تطلع على خطراتها ووساوسها الخفية التى قد يخفي على الإنسان نفسه معالمها ويصعب عليه تمييزها مع كونها بداخله.

وبطبيعة الحال فإن أي كلمة أخرى لا تسد مسدّ هذه الكلمة في دلالتها على ذلك المعنى .

ثم ينتقل البحث بعد ذلك إلى استثمار الدرس الصوتي لتلك الكلمة ليستخرج الدلالة الصوتية الفنية لتلك الكلمة .

فينظر إلى مجيئها مركبة من هذين الحرفين الرقيقين (الواو والسين) فينظر إلى ما في الواو من خفاء ورقة ولين مع قرب مخرجه لكونه شفويا ، فينظر إلى مناسبة لينه ورقته وخفائه لمعنى الوسوسة ، وما فيها من خفاء ولين ورقة ، كما تأتي دلالة قرب المخرج للدلالة على علم الله تعالى بأدق الأصوات وأخفضها صوتا وهو ما يخرج من بين الشفاه فما بالك بما فتح صاحبه فيه فمه وما كان من أقصى الحلق ونحو ذلك مما يرفع فيه الصوت؟! فمن ثم كانت مناسبة الواو للدلالة على تلك المعاني ، ثم لك أن تتأمل دلالة السين ، وما فيها من همس ورخاوة وصفير مع قرب المخرج كذلك فهى تلي الواو مخرجا لكونها مما بين الثنايا وطرف اللسان ، والهمس هو جري النفس في الحرف بلا انحباس فيخرج الحرف سهلاً لا جهر فيه يناسب الوسوسة الخفية ؛ كما ناسبها كذلك لكونه رخوا ليس بالشديد ؛ كما ناسب صوت

الوسوسة الذى يشبه صفير الريح ، ووسوسة الحلي بما فيه من صفير يصاحبه في النطق .

فإذا ضممنا إلى ذلك أيضا قرب مخرجه وماله من مناسبة سبق بيانها في حرف الواو ، تبين لنا مدى مناسبة هذين الصوتين للدلالة على المعنى المراد وهو علم الله تعالى بالدقائق من الوساوس والخطرات الخفية التى لا يعلمها إلا هو .

ثم نأتى بعد ذلك إلى ما هو أوضح دلالة وهى الدلالة الصرفية والدلالة النحوية.

فأما الدلالة الصرفية فنجد أن اختيار الفعل مضاعف الرباعى جاء مناسبا أتم المناسبة لمعناه، ومن ثم لسياقه ومقامه .

وذلك أن الفعل (وسوس) هو تضعيف (وس) وهذا التضعيف نشأ عن تكرار هذا المقطع (وس) فإذا التفت إلى ذلك لمحت المناسبة بينه وبين عملية الوسوسة وطبيعتها القائمة على التكرير والإلحاح ، فوسوسة النفس وكذلك وسوسة الشيطان ما هى إلا إغراء النفس بفعل المنهي عنه ، ووسيلة هذا الإغراء لا تكون إلا بالتكرار والإلحاح الدائم على النفس حتى تضعف وتقع فريسة للنوازع والرغبات الدنيئة .

وننتقل إلى الدلالة النحوية لنقف أمام دلالة المضارع حيث اختيرت صيغة المضارعة للتعبير عن حدوث الفعل وتجدده وتكرره ليعبر عن عملية الإلحاح التى تمثل عنصرًا أساسيًا في عملية الوسوسة ، وليدل على سعة علم الله تعالى بهذه الوسوسة مهما كثرت وتجددت وتكررت، ولهذا اختير المصدر المؤول من (ما والفعل المضارع) على المصدر الصريح وسوسة لدلالة الفعل على التجدد دون المصدر الصريح (وسوسة) .

ومن ثم نتبين مدى مناسبة تلك الكلمة لسياقها ومقامها بما لها من دلالة فنية كانت محصلة تلك الدلالات الصوتية والصرفية والمعجمية والنحوية لتلك الكلمة القرآنية .

وعلى هذا النحو يمضى البحث الأسلوبي فينظر في مناسبة الأصوات للمعانى من جهة ما تشتمل عليه من تفخيم أو ترقيق أو همس أو جهر أو انطباق وانفتاح ، أو مدّ أو لين أو تفشّ واستطالة أو إظهار أو إدغام أو تنوين أو إخفاء..إلخ .

وينظر في مناسبة صيغة الكلمة من حيث كونها اسما أو فعلا أو مشتقا من المشتقات ، فينظر إن كانت اسما في مناسبة الوزن الذى جاءت عليه ، وإن كانت فعلا إلى دلالة كونه ماضيا أو مضارعا أو أمرًا ، وإن كانت مشتقًا إلى كونها اسم فاعل أو اسم مفعول أو صيغة مبالغة أو اسم مرّة أو هيئة أو غير ذلك .

ومع النظر إلى مناسبة ذلك كله للسياق والمقام .

كما ينظر في التراكيب من حيث ما هى عليه من تقديم وتأخير ، وحذف أو ذكر ، وفصل أو وصل ، وإيجاز أو إطناب ، وخبر أو إنشاء ... إلخ ما ذكروه من

مباحث علم المعاني ثم ينظر إلى ما تشتمل عليه تلك التراكيب من صور وأخيلة من تشبيه واستعارة وكناية ومجاز بأنواعها المفصلة في مباحث علم البيان .

وما تشتمل عليه من وسائل تحسين وتزيين من سجع وجناس ومطابقة والتفات واحتراس وتكميل وتتميم .... إلخ ما ذكره البلاغيون من فنون البديع .

يبحث البلاغي والأسلوبي في الدلالات الفنية لتلك الفنون والصور والأساليب السابق ذكرها ، ويطابق بينها وبين مقتضى الحال وهو المقام الذى سيقت لأجله ليقرر مطابقة تلك الدوال التعبيرية المتعددة أو عدم مطابقتها للغرض الذى سيقت لأجله مع عدم الادّعاء بانفراد إحدى هذه الدوال بتلك الدلالة.

ومن ثم قام منهج الدراسة الأسلوبية لهذا البحث على الأسس التالية:

١- تحديد الغرض العام للنص أو فكرته الأساسية.

٢- تقسيم النص إلى وحدات أو فقر تشتمل كل فقرة على فكرة أساسية، وتتلاحم هذه الأفكار فيما بينها لتشكل من خلال وحدتها الموضوعية موضوع النص وغرضه العام.

٣- تحليل الوسائل التعبيرية الموظفة في النص للتعبير عن أفكاره وذلك على مستوى المفردات والتراكيب لبيان مدى اتفاقها ومناسبتها للفكرة المعبرة عنها.

٤- تغطية كافة المستويات اللغوية الدلالية بالوقوف على أبرز مظاهر التطابق بين الفكرة والوسائل التعبيرية على كل من:

أ- **المستوى الصوتي :** وينظر فيه إلى التركيب الصوتي للكلمة وسماتها الصوتية من حيث ما تتسم به حروفها من الترقيق أو التفخيم أو الهمس أو الجهر أو الانفتاح أو الإطباق أو الصفير أو التكرارية أو القلقلة أو الاستعلاء أو تجانس الحروف وتناغمها ، أو تراكبها وتعاظلها ونحو ذلك ،ومدى مناسبة ذلك للسياق والمقام الذي وردت فيه ، ويدخل في ذلك الإفادة من بعض ما ذكره البلاغيون في مبحث الفصاحة من خلال نظرة أسلوبية وبلاغية معاصرة ، كما يدخل في ذلك بعض مباحث علم البديع التي تتأسس أو تتفرع على التشكيل الصوتي للكلمة كالجناس أو السجع بأنواعهما .

ب- **المستوى المعجمي :** وينظر فيه إلى الدلالة المعجمية للكلمة ومدى مناسبتها للسياق والمقام الذي وردت فيه ، ويدخل في ذلك النظر إلى دلالة هذه الكلمة من حيث الحقيقة والمجاز لتشمل مباحث علم البيان المعروفة من حيث التشبيه والاستعارة والكناية والمجاز ، كما يدخل في ذلك كثير من مباحث علم البديع التي تتأسس أو تتفرع على الدلالة المعجمية كالطباق والمقابلة والتورية والأسلوب الحكيم والمذهب الكلامي ونحو ذلك.

ج-**المستوى الصرفي :** ينظر فيه إلى الصياغة الصرفية للكلمة من حيث كونها اسما أو فعلا أو حرفا ، ومن حيث أقسام الاسم إلى اسم فاعل أو مفعول أو صيغة مبالغة أو مشتق من المشتقات أو اسم مرة أو هيئة أو مصدرا من المصادر أو

غير ذلك ، ومن حيث أقسام الفعل إلى ماض و مضارع وأمر وأفعال مطاوعة وصيغ المجرد والمزيد بأوزانها المختلفة وغير ذلك ، ويستفاد في بعض ذلك مما ذكره البلاغيون والمفسرون من مباحث الإسناد من التفريق بين دلالتي كل من الاسم والفعل ونحو ذلك.

د-المستوى النحوي : وينظر فيه إلى الإسناد والتراكيب والأساليب من حيث مباحث علم المعاني المختلفة وتنوع الأساليب من حيث الخبرية والإنشائية ، والإيجاز والإطناب ، والفصل والوصل ، ونحو ذلك وما يعرض للتركيب الإسنادي من حيث التقديم والتأخير ، والحذف والذكر ، والتعريف والتنكير ، ونحو ذلك .

هـ - المستوى التصويري :ويشمل الفنون التصويرية المعروفة في فنون البيان والبديع ، كما أن كثيرا من فنون البديع كالجناس والسجع إنما يتم التعرض لها في الجانب الصوتي أو الصرفي ، أما فنون علم المعاني فتدخل في جملتها في المستوى النحوي .

ولما كانت الدراسات متوافرة حول المستوى النحوى المتمثل في (علم المعاني) ، والمستوى التصويري المتمثل في (علم البيان) فقد رأيت ترك الخوض في هذين المستويين في هذا الكتاب ، والاقتصار على المستويات الثلاثة الأولى التي تخص اللفظة المفردة ، والتي لم تنل – في نظري – العناية الكافية من جانب الدراسات البلاغية ؛ ولما كانت المنهج الأسلوبي أرحب وأمكن لهذه الدراسة اخترت ذلك المنهج لبيان الإعجاز الأسلوبي للقرآن الكريم على هذه المستويات الثلاثة : المعجمية والصوتية والصرفية ، والله أسأل أن يجزل لنا المثوبة في ذلك إنه ولي ذلك والقادر عليه .

منهجنا في التحليل الأسلوبي

آثرنا أن يتم التحليل الأسلوبي – في هذا البحث - على أساس النظر في الإجراءات الأسلوبية من جهة:

أ-اختيار وسائل تعبيرية معينة.

ب-العدول عن وسيلة تعبيرية إلى وسيلة أخرى.

ج-التكرار الأسلوبي لوسيلة تعبيرية على مدار النص.

وقد تم النظر من جهة البحث في مدى تطابق ذلك الاختيار أو العدول أو التكرار ومناسبته لأغراض النص وأفكاره.

هذا ؛ ومن خلال ما سبق إيراده في حقيقة الإعجاز وبيان حدّه نستطيع أن نقرر أن تلك الدراسة الأسلوبية بهذا التصور الحديث لا تخرج عن حقيقة الإعجاز اللغوي والبياني الذي اتفق على اعتباره في عدِّ وجوه الإعجاز وبيانها ؛ إذ إنه لا يتنافي مع ما قرره السابقون من وجوه الإعجاز ولا نكاد نعدم إشارات تدلُّ لبعض مستوياته في كلام السلف هنا وهناك.

الفصل الأول
الإعجاز الأسلوبي
في الدلالة الصوتية

الإعجاز الصوتي للقرآن

تبين لنا مما سبق في التمهيد أن إعجاز القرآن إنما هو في رصفه ونظمه في قليله وكثيره، وهذا النظم يشمل بلا ريب كل حرف في القرآن، فالنظم والرصف يبدأ من نظم ورصف الأحرف في الكلمات أو قل اختيار كلمات مشتملة على أحرف مخصوصة، ومن ثم يقع الإعجاز والتحدي برصف هذه الأحرف ونظمها في نسق وسياق خاص تدل به على معاني القرآن وأسراره.

ومن ثم ورد عن ابن عطية في المحرر الوجيز قوله: "لو نزعت حرفًا من القرآن ثم أدرت اللغة من ألفها إلى يائها لتجد ما يسد مسدّه، فلن تجد"(٢٨).

هذا، وقديما قال الجاحظ في إعجاز سور القرآن: "ولو أن رجلاً قرأ على رجل من خطبائهم وبلغائهم سورة واحدة لتبين له في نظامها، ومخرجها عن لفظها، وطابعها أنه عاجز عن مثلها، ولو تحدى بها أبلغ العرب لأظهر عجزه عنها"(٢٩).

ولا شك أن حروف الكلمة وبناءها الصوتي داخل لا محالة فيما عناه الجاحظ بقوله: "نظامها ومخرجها عن لفظها وطابعها".

فإما أن يكون أحد هذه الألفاظ مقصودا به أصوات الكلمة، وإما أن أصوات الكلمة أو بناءها الصوتي مما يدخل في ذلك لا محالة، أو مما تشمله دلالة تلك الألفاظ.

ومن ثم فنحن نقصد بالإعجاز الصوتي للقرآن مجيئه على هيئة خاصة من جهة البناء الصوتي، أو التشكيل الصوتي سواء لكلماته أو جمله وآياته، أو على المستوى الموسيقي أو الإيقاعي في السورة بأسرها ومدى موافقة ذلك واتساقه وتواؤمه مع المعاني والمقاصد التي تقصد إليها السورة على نحو من المواءمة والمطابقة العجيبة التي يستبعد وقوعها في مثل كلام البشر، بهذه الدرجة من المطابقة والموافقة والمواءمة لمعاني الكلام.

وهذا ما كشف عنه الأستاذ الكبير مصطفى صادق الرافعي في حديثه عن إعجاز النظم الموسيقي في القرآن حيث يقول: "وحسبك بهذا اعتبارًا في إعجاز النظم الموسيقي في القرآن، وأنه مما لا يتعلق به أحد، لترتيب حروفه باعتبار من أصواتها

---

(٢٨) المحرر الوجيز، نقلاً عن د/ عبد العظيم المطعني/ دراسات في إعجاز القرآن/ مكتبة وهبة ص ٨٠٧، ولم أستطع تخريج ذلك من المحرر الوجيز لابن عطية خاصة وأن د/ عبد العظيم المطعني لم يبين مكانها في أي موضع هي في المحرر.

(٢٩) دلائل الإعجاز ص ٢٥٠ وقد اقتبسه من كتاب دلائل النبوة.

ومخارجها، ومناسبة بعض ذلك لبعضه مناسبة طبيعية في الهمس والجهر، والشدّة والرخاوة، والتنغيم والترقيق، والتفشي والتكرير، وغير ذلك مما أوضحنا في صفات الحروف"[٣٠].

ويقول أيضًا: "وليس يخفى أن مادة الصوت هي مظهر الانفعال النفسي، وأن هذا الانفعال بطبيعته إنما هو سبب في تنويع الصوت، بما يخرج فيه مدًّا أو غنة أو لينا أو شدة، وبما يهيئ له من الحركات المختلفة في اضطرابه وتتابعه على مقادير تناسب ما في النفس من أصولها، ثم هو يجعل الصوت إلى الإيجاز والاجتماع، أو الإطناب والبسط، بمقدار ما يكسبه من الحدة والارتفاع والاهتزاز وبعد المدى ونحوها مما هو بلاغة الصوت في لغة الموسيقى.

فلو اعتبرنا ذلك في تلاوة القرآن على طرق الأداء الصحيحة لرأيناه أبلغ ما تبلغ إليه اللغات كلها في هزّ الشعور واستثارته من أعماق النفس، وهو من هذه الجهة يغلب بنظمه على كل طبع عربي أو أعجمي، حتى إن القاسية قلوبهم من أهل الزيغ الإلحاد لتلين قلوبهم وتهتز عند سماعه؛ لأن فيهم طبيعة إنسانية؛ ولأن تتابع الأصوات على نسب معينة بين مخارج الأحرف المختلفة، هو بلاغة اللغة الطبيعية التي خلقت في نفس الإنسان"[٣١].

وسوف يدور بحثنا على بيان هذه المناسبة على ما يقتضيه البحث الأسلوبي لكلمات القرآن وتراكيبه في سياقاتها ومقاماتها التي وردت فيها.

ومن ثم يقوم هذا البحث بدراسة الدلالة الصوتية للكلمة من حيث النظر في صفات الأصوات من حيث الجهر والهمس والرخاوة والشدة والانطباق والانفتاح والاستعلاء والانخفاض والصفير والاستطالة والتفشي والمد واللين والانحراف والتكرير وغير ذلك.

ومن حيث ما يصاحب الكلمة عند النطق بها من ظواهر صوتيه كالنبر والتنغيم، ثم من حيث النظر في مخارجها المختلفة، وبحث العلاقة بين تلك السمات الصوتية للتشكيل الصوتي للكلمة ومناسبتها لسياقها ونسقها الدلالي.

---

(٣٠) الرافعي _ إعجاز القرآن/ ص١٧٧.

(٣١) السابق ص ١٧٧-١٧٨.

تأصيل

على الرغم من كون الأصوات هي اللبنات الأولى والأساس في تشكيل البناء اللغوي فإنها لم تلق من الباحثين إلى الآن العناية الكافية لاستثمار طاقاتها الدلالية، وابتعاث إيحاءاتها الثرَّة في فاعليتها الدائبة مع السياقات الأدبية.

ولعل ذلك يرجع في رأيي _ إلى أمرين: صعوبة البحث في هذا المجال الموغل في الرمزية، مع تأبيه على التقعيد والتقنين، حيث يستطيع الناظر إلى دلالات الأصوات أن يتكهن ببعض تلك الدلالات التي يضفيها عليها السياق دون أن يجزم في كثير من الأحيان أن هذه الدلالات هي فعلاً دلالات تلك الأصوات، وليست مجرد معان فرضتها الدلالة المعجمية أو الصرفية أو التركيبية، ثم قام ذهن القارئ بتحميلها على الأصوات.

والأمر الآخر وهو تأبي تلك الدلالات على التقعيد والتقنين يرجع إلى أن كثيرًا من تلك الدلالات لا ترجع إلى قيمة للصوت في ذاته بقدر ما تكون وليدة السياق وخليقته، فالسياق هو الذي حمّل الصوت هذا المعنى، وهو الذي استخدم الحرف أو الكلمة كصوت ليكسبها دلالة سياقية حينية مؤقتة، وليست دلالة دائمة تستصحب في غيره من السياقات. فكل سياق له دلالاته التي يخلعها على أصواته، وكل قارئ أو سامع له ذوقه الخاص في استكناه دلالات تلك الأصوات وتأثره بها، وإن كان هذا لا ينفي وجود حِسٍّ أو ذوق عام يكاد يشترك في فهم دلالات كثير من تلك الأصوات في السياقات والمواقف المختلفة. وإن كان ذلك يختلف _ لا محالة _ باختلاف البيئات اللغوية.

تأصيل البحث في دلالة الأصوات عند قدامى النحاة واللغويين :

إذا تتبعنا كلام النحاة واللغويين الأوائل في هذا المضمار فإننا نستطيع أن نقف على معالم هادية ومحاولات حادة يمكننا عن طريقها الوقوف على التفات هؤلاء القدماء إلى دلالة الصوت ومناسبته لمعناه.

وهذه المحاولات الجادة في هذا السبيل نجد بعضها عند الخليل بن أحمد ، وكثيرا منها لدى سيبويه في كتابه ، كما نجدها أكثر نضجا عند ابن جنى في خصائصه ، وفى كتابات ابن الأثير من بعده.

أسس التوظيف الأسلوبي والبلاغي للتشكيل الصوتي في القرآن الكريم

تمهيد:

يحاول البحث في هذا الفصل أن يكشف عن الأسس الفنية التي يقوم عليها التوظيف الأسلوبي والبلاغي للتشكيل الصوتي مستلهما في ذلك روح التراث البلاغي مع الإفادة بما أمكننا الوقوف عليه من الدراسات الأسلوبية الحديثة؛ بما يمكن أن يمثل _ بمشيئة الله تعالى _ نقطة التقاء بين القديم والحديث، أو بين التراث والمعاصرة.

ويمكننا أن نقف _ من خلال _ تتبع المقولات البلاغية في التراث البلاغي، ونظرات الأسلوبيين المحدثين _ على ثلاثة أنماط مهمة من التوظيف الأسلوبي والبلاغي.

الأول: الاختيار بين عدد من البدائل الصوتية.

الثاني: العدول عن الأصل السياقي الصوتي[٣٢].

الثالث: تكرار الصوت.

(٣٢) قيدت العدول بأنه عدول عن الأصل السياقي وذلك لأن هذا هو ما رجحه البحث بالنسبة للقاعدة التي يتم العدول عنها.

المبحث الأول

التوظيف البلاغي للتشكيل الصوتي على أساس الاختيار الأسلوبي

المقصود بالاختيار هنا هو ما يقوم به المبدع من تمييز كلامه بميزات تعبيرية خاصة تتواءم مع الحال أو المقام والسياق الذي وردت فيه سواء من حيث التشكيل الصوتي موضوع البحث، أو من حيث الوسائل التعبيرية المختلفة كالمعجم والقواعد الصرفية والنحوية والأساليب البلاغية المختلفة.

هذه الميزات التعبيرية التي يتميز بها الأسلوب إنما هي في الغالب اختيار بين عدد من البدائل أو الأشباه والنظائر اللغوية المتعددة التي تشترك فيما بينها في التعبير عن معنى واحد بطريقة متقاربة، ويقوم المبدع باختيار أكثر هذه الوسائل تحقيقا للمطابقة بينها وبين المقام(٣٣).

فعلى سبيل المثال في قوله تعالى: **"تلك إذا قسمة ضيزى"** نجد أن هذه الكلمة (ضيزى) ليس لها من انسيابية النطق وجمال الوقع على الأذن ما للكلمة المرادفة لها "جائرة" لكننا نزعم أنها في موقعها من قول الله تعالى في سورة النجم يخاطب المشركين: **﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى(٢٢)﴾** (النجم:٢٢،٢١) دالة أبلغ دلالة على المراد، وهو فساد القسمة، وحيفها بشكل يولد في النفس _ عند نطق الكلمة _ إحساسا بثقلها وبغضها، والنفور منها، وهي دلالة لا تتفجر من الكلمة السابقة.

ونؤيد ما ذكر ونتممه ببيان أوجه المناسبة بين السمات الصوتية لتلك الكلمة ودلالتها فنقول: إن الناظر في مناسبة تلك الكلمة لدلالتها لا يحتاج أكثر من أن يتأمل طريقة نطقه بها، وأن ينظر إلى هيئة الفم حال النطق لها، حيث نلاحظ أن النطق بحرف الضاد مصحوبا بحركة ياء المد يجعل الفم منفتحا بدرجة كبيرة سببها أن مخرج الضاد من حافة اللسان مما يلي الأضراس فإذا جاءت الضاد مصحوبة بالمد بالياء، فإن ذلك يؤدي إلى انفتاح الفم انفتاحا أفقيًا إلى هذه الدرجة التي هي أشبه بهيئة المشمئز من الشيء، ويزداد الاقتراب في الشبه بهذه الهيئة حينما ينتقل الفم فجأة من نطق الضاد ذات الكسرة الطويلة إلى نطق الزاي ذات الفتحة الطويلة (المد بالألف) مما يؤدي إلى انتقال الفم من الانفتاح الأفقي العرضي إلى الانفتاح الرأسي الطولي ليوحي بهذه الطريقة الإشارية المتولدة من نطق هذه الكلمة بدلالة النفور والاشمئزاز من تلك القسمة الجائرة التي تبعث على الاشمئزاز والأنفة من تلك العقول الفاسدة التي سوغت أن يكون الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا بينما هم لا يرضون بالإناث لأنفسهم فيتخلصون منهم بالقتل والوأد.

---

(٣٣) ولا يكاد يختلف ذلك في البلاغة القديمة باعتبارها (مطابقة الكلام لمقتضى الحال) عن الأسلوبية الحديثة باعتبارها تعنى بالاختيار الأسلوبي الذي يعبر عن صاحبه حتى قالوا (الأسلوب هو الرجل) يقصدون أنه يعبر عن طريقته في المنطق والتفكير كما يعبر عن شعوره كذلك، وسيأتي تفصيل ذلك وبيانه في الصفحات التالية سواء في تراثنا البلاغي أو في الدرس الأسلوبي الحديث.

ويمكننا أن نقف كذلك عند الدلالة الصوتية لكلمة **"اثاقلتم"** من قوله تعالى:
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلا قَلِيلٌ (٣٨)﴾
فالمتأمل طريقة النطق لتلك الكلمة يستشعر صعوبة واضحة في نطقها، فهي ليست خفيفة الوقع كذلك على الأذن، وذلك على خلاف ما نراه في كلمة بديلة وهي "تثاقلتم" بيد أن الأولى بتشكيلها الصوتي أقوى من الثانية في تصوير المراد والإيحاء به، إذ ترسم صورة مجسمة للتباطؤ الشديد، وتثير في خيال قارئها وسامعها صورة ذلك الجسم المتثاقل يرفعه الرافعون في جهد فيسقط من أيديهم في ثقل وحينما نوازن بين السمات الصوتية لهذه الكلمة وبين سياقها نجد أنها قد جاءت معبرة تمام التعبير عن الفكرة التي سيقت لأجلها؛ حيث نلاحظ أن حرف الثاء قد جاء مكررا وهو حرف يخرج من بين طرف اللسان وأطراف الثنايا العلى فهو قريب المخرج، وتكرره بالتشديد يصور هيئة المتثاقل المتباطئ فهو لا يبرح مكانه يتردد فيه، كما أن النطق لا يزال يتردد في مخرج الثاء يكرره ولا يبرحه ثم يأتي المد ليصور لك أن هذا المتثاقل لا يتحرك ولا يمتد إلا في مكانه، فهو مَدّ خاص بهذا الحرف (الثاء) الذي لا يكاد النطق يبرحه تارة بتشديده وتكريره وتارة بمده، ثم هاهو المدّ يبلغ أقصاه حيث مخرج القاف أقصى اللسان، وهنا يظن الظانّ أن المتثاقل قد تحرك شيئا أو جاوز مكانه فإذا به يرتد تارة أخرى إلى مكانه الذي قد قام منه وهو منطقة طرف اللسان حيث الثاء واللام والتاء، بل إنه يتساقط ويتأخر عن مكان ابتدائه حيث يرتد إلى مخرج الميم عند الشفتين، ولا شك أن المرء حينما ينطق بهذه الكلمة لا يكاد يصل إلى نطق تلك الميم الساكنة، وخاصة مع إيحاء هذا المقطع الأخير (تُم) حتى يستشعر أن شيئا قد سقط على الأرض فجأة محدثًا هذا الصوت.

وكأن النطق بهذه الكلمة يصور هيئة المتثاقل المتساقط وهو يتردد في قيامه ويتلعثم فيه ويتمادى في تباطئه وذلك في نطق الثاء المشددة الممدودة، ثم لا يلبث أن ينهض حتى يتساقط مرتدًا إلى مكان قيامه أو متجاوزا عنه إلى الخلف قليلا، فهو لا يكاد يقوم حتى يسقط وهنا نستشعر أن الكلمة بسماتها الصوتية موحية ومعبرة عن معنى التثاقل والتباطؤ بدرجة فنية عالية لا تستطيع أن توحي بها دلالتها المعجمية وحدها.

على أن في الآية كلمة أخرى لا تقل دلالتها الصوتية عن دلالة تلك الكلمة في التعبير عن ذلك التثاقل والخلود إلى الأرض والركون إلى الدعة والراحة، ألا وهي كلمة (الأرض) وذلك أنك إذا تأملت وقوفك على الضاد الساكنة بما لها من صفات الاستطالة والانبساط والتفشي لاستشعرت فيها ما يوحي به نطق الضاد من استطالة الركود والانبساط فيه، وتفشي هؤلاء المتثاقلين واسترخاؤهم وتمددهم في التصاقهم بالأرض واستنامتهم إليها.

إنها دلالة لا تلوح بها الدلالة المعجمية للكلمة، من قريب ولا من بعيد وإنما تنفرد بها الدلالة الصوتية لهذا الحرف في ذلك النسق والسياق الدلالي.

إننا في هذين المثالين السابقين نجد أن ثمة عددًا من البدائل المطروحة لكلمة (ضيزى) مثل: (جائرة _ ظالمة _ فاسدة) ومن ثم فالمبدع يختار هذه الكلمة من بين هذه الخيارات أو البدائل المطروحة التي تتيحها اللغة لكون هذه الكلمة هي أكثر مناسبة لسياقها بذلك التشكيل الصوتي الذي اشتملت عليه.

وكذلك نجد ذلك واضحا في الاختيار بين (اثاقلتم) ونظائرها من نحو: (تباطأتم _ تلكأتم _ تأخرتم _ تقاعدتم... إلخ).

وإذا كان أصل المعنى يمكن التعبير عنه بأي واحدة من هذه البدائل وتلك الخيارات المطروحة؛ فإنه يبقى بعد ذلك للصيغة المختارة تميزها من حيث المواءمة ودقة المناسبة الفنية بينها وبين السياق والمقام والمقصد .

وهذا الذي التفت إليه البلاغيون والنقاد المعاصرون من أثر التشكيل الصوتي للكلمة وما يوحي به من دلالة فنية عميقة، قد التفت إليه الدارسون للقرآن الكريم في العصر الحديث، ويأتي على رأس هؤلاء الذين التفتوا إلى هذه القيمة الفنية للأصوات أ/ **سيد قطب** في كتاباته في ظلال القرآن الكريم.

ومن أمثلة ذلك وقوفه عند كلمة (يصطرخون) في قوله تعالى: **﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (٣٦) وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾** حيث يرى أن هذه الكلمة بجرسها الغليظ تصور بدقة بالغة "غلظ الصراع المتجاوب من الكفار في كل مكان، المنبعث من حناجر مكتظة بالأصوات الخشنة، كما تلقى إليك ظل الإهمال لهذا الاصطراخ الذي لا يجد من يهتم به أو يلبيه، وتلمح من وراء ذلك صورة ذلك العذاب الذي هم فيه يصطرخون".

وهذا الذي ذكره أ/ سيد قطب بين مدى القيمة الدلالية لهذه الكلمة بهذا التشكيل الصوتي بحيث لا يعبر عن تلك القيمة تشكيل آخر ولو كان من نفس مادة الكلمة _ مثل (يصرخون) فإن في الصاد والطاء بما فيها من تفخيم وإطباق يصطدم فيه اللسان بأعلى الفم عن اللثة عن نطق الطاء يعبر تمام التعبير عن حال أهل النار وهم يحاولون الخروج من تلك وهذا هو عين ما يصطرخون به {ربنا أخرجنا} فإذا بهم يجدونها مطبقة عليهم، تصطدم محاولاتهم وأصواتهم بجدرانها فترتد إليهم خائبة هذا الإطباق والاصطدام هو ما يوحي به اجتماع الصاد والطاء بما لهذا الاجتماع من سمات صوتية تشبه ذلك الحال، كما تتلاقى دلالات التفخيم في كل من الصاد والطاء والخاء لتعبر عن ضخامة الصراخ والجوار لأهل النار كما تعبر الراء بما لها من صفة التكرارية عن تكرر ذلك الصراخ واستمراريته، ويشارك في هذا حرف الواو بما له من صفة لامد والهوى إلى غاية سحيقة ليدل على طول هذا الصراخ، ثم تأتي النون في نهاية الكلمة معبرة بأنتها الحزينة عن مدى الحسرة التي يؤوب بها الكافر من هذا الصراخ الطويل الدائم العظيم الأليم.

نماذج تطبيقية للاختيار الصوتي في القرآن الكريم

سبق أن وقفنا خلال القسم النظري من البحث – عند الإيحاءات الدلالية للتشكيل الصوتي لبعض الكلمات القرآنية(٣٤).

وسوف نعرض في هذا الجزء من البحث المزيد من النماذج التطبيقية للاختيار كأساس من أسس التوظيف الأسلوبي والبلاغي للتشكيل الصوتي.

ويمكننا أن نفرق في هذه النماذج بين نوعين من الاختيار الصوتي:

الأول: اختيار الأصوات الدالة بمحاكاة الحدث.

الثاني: اختيار الأصوات التي بينها وبين الحدث نوع مناسبة وملاءمة.

أما القسم الأول: فيشمل تلك الأصوات التي يكون بينها وبين الحدث نوع من التطابق أو الجناس الصوتي لذلك الحدث، أو ما يسمى بالمحاكاة فيما سبق الإشارة إليه في القسم النظري من البحث.

حيث نلاحظ أن بين هذه الكلمات بتشكيلها الصوتي وبين ما تدل عليه من الأفعال أو الأحداث تشابه إلى حد كبير صوت الحدث أو هي حكاية له، وذلك كما في التعبير عن الصوت الخفي بالوسوسة(٣٥)، فقد سبق أن بينا أن كلمة (وسوس) بما فيها من تضعيف وتكرير لهذا المقطع (وس) الذي يشتمل على هذه الأحرف التي تصدر أصواتًا غائمة مشوشة هو أشبه شيء بهذه الوسوسة الغائمة الخفية وما يصاحب عملية الوسوسة من تكرار وإلحاح للإغواء والإغراء يحاكيه هذا التكرير والتضعيف لهذا المقطع (وس).

- ومن ذلك كلمة (كبكبوا) في قوله تعالى: ﴿**وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (٩١) وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ**

---

(٣٤) من ذلك كلمة: (ضيزى) في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾ [النجم:٢٢] وكلمة: (اثاقلتم) في قوله تعالى: ﴿يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ﴾ [التوبة:٣٨] وكلمة (يصطرخون) في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [فاطر:٣٧] وكلمة (أنلزمكموها) في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ [هود:٢٨] وكلمة (توسوس) في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق:١٦] كما وقفنا عند دلالة الغنة في كلمة (أن) في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحج:٦] (وانظر صـ١٧ من البحث) وقوله تعالى على لسان شعيب عليه السلام: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود:٨٠].

(٣٥) يقول الأستاذ سيد قطب عن سورة الناس: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ (٣) مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (٦)﴾ اقرأها متوالية تجد صوتك يحدث "وسوسة" كاملة تناسب جو السورة، جو وسوسة: "الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ". [التصوير الفني صـ٨٠]

يَنْتَصِرُونَ (٩٣) فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (٩٤) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾[٣٦].

وذلك أن الفعل (كبكب) مضعف للمقطع (كب)، فيدل ذلك على تكرار الكب وتتابعه، كما يدل على الاجتماع والتراكم والتراكب لأهل النار بعضهم فوق بعض وتتابع كبهم وإلقائهم في النار على وجوههم في دركات الجحيم المتتالية.

وهذا يأتي منسجما تمام الانسجام مع سياق الوعيد والتهديد لهؤلاء الغاوين الضالين، كما أن تكرر الباء بما فيها من قلقلة وانفجارية يأتي مناسبًا تمام المناسبة لمحاكاة تردي تلك الأفواج في النار مع محاكاة صوت الوقوع والاصطدام، ولعل الاحتكاك بين الكاف والباء وتكرره قد يشارك في تلك المحاكاة معبرًا عن احتكاك تلك الأفواج بعضها ببعض.

يحاكى هذا الفعل والحدث سواء بسواء، حيث يشعر التالي أو السامع لهذه الكلمة (كبكب) أنه يسمع صوت الكب وإلقاء الكافرين في النار وكأنه يقول (كب كب).

- ومن هذا النوع أيضًا نجد الفعل **(زحزح)** وذلك في قوله تعالى: **﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾**[٣٧].

وكذلك في قوله تعالى في وصف اليهود: **﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾**[٣٨].

حيث نلاحظ أن كلمة (زُحزح) في الآية الأولى، تحاكي عملية الزحزحة وتصورها؛ وذلك أن الزحزحة لا تتم دفعة واحدة؛ وإنما تتم على مرات متكررة ومحاولات متعددة لتحريك شيء ثقيل من مكان ثابت فيه، ولذا فإنه لا يتأتى نقله منه مرة واحدة؛ ولذا يحتال على ذلك بتحريكه شيئًا فشيئًا، وكذلك نجد أنه فعل (زحزح) مضعف المقطع (زح) يعبر بتضعيفه وتكراره عن هذا الحدث ويصوره أتم التصوير.

كما أن اختيار الفعل بهذين الحرفين (الزاي والحاء) بما يشتمل عليه الأول من الجهر، والثاني من الهمس يوحي بصوت المزيح للشيء عند إزاحته، وما يخرج منه من صوت يعبر عند شدة المعاناة، وجهد الدفع والتحريك حيث يبدأ بما يشبه الزفرة وينتهي إلى ما يشبه السكون والهمود في كلمة (زح)، ويؤكد ذلك أن هذين الحرفين هما كذلك الحرفان الأساسيان في الفعل (زاح) الذي يدخل في الحقل الدلالي نفسه الذي نحن بصدده.

---

(٣٦) الشعراء: ٩١-٩٥.

(٣٧) آل عمران:١٨٥.

(٣٨) البقرة:٩٦.

وإذا كانت الزحزحة إنما تكون عبارة عن محاولة تشتمل على المعاناة والجهد الشديد من جراء إزاحة الشيء الثقيل وتحريكه، فمن هنا تأتي مناسبة هذه الكلمة (زُحزح) للتعبير عن مدى صعوبة الأمر في الخلاص من النار.

وأمر آخر أن الزحزحة إنما تكون عبارة عن تحريك يسير ونقلة دقيقة لمسافة قصيرة جدًّا للجسم المحرّك أو المزحزح بحيث لا تكاد تحس، حيث تصدق الزحزحة بحدوث أدنى مباينة للنقطة التي كان يرتكز فيها الجسم المزحزح.

ومن هنا تأتي مناسبة هذه اللفظة من جهة أخرى وهي أنها تعبر بهذا التشكيل الصوتي لتكرار المقطع (زح) أن تحقق الفوز والسعادة إنما يكون بمجرد الابتعاد لأدنى مسافة من النار، فهذا لا محالة فوز عظيم لا يكاد يقدر لمن عاين أهوال ذلك اليوم، ولمن رأوا النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفًا.

- ومن ذلك كلمة (يُدَعُّونَ) في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾[٣٩].

فهذه الكلمة بما تشتمل عليه من حروف مادة (دعّ) مضعفة العين تجانس صوت الدعّ والدفع، وكأنها حكاية لصوت المدفوع دفعًا شديدًا حيث يقول (أع – أع).

ولما كان هذان الحرفان بمثابة حكاية الدفع أو المدفوع اشتملت عليهما كذلك مادة (دفع)، غير أن دخول الفاء المهموسة الرقيقة في (دفع) خفف من حدَّة هذا الدفع وشدته.

ولما كان (الدَّع) أقوى من (الدفع) جرسًا ومعنى لذا آثرت الآية التعبير بالدَّعِّ دون الدفع، وهنا يظهر أثر الاختيار حيث تتضح مزية الكلمة المختارة على بدائلها المتاحة التي تشترك معها في حقل دلالي واحد كما تتضح القيمة الخلافية للحرف كقيمة فارقة بين الدلالات المعجمية.

- ويمكن أن نعد من هذا الباب أيضا تلك المجانسة الصوتية بين أسماء القيامة وأهوالها فالكلمات مثل: (الطامّة – الصاخة – القارعة) تجانس إلى حد كبير تلك الأصوات التي تكون في ذلك اليوم من أثر انفطار عقد الكون وارتطام أجزائه بعضها ببعض، وقرع بعضها بعضا، فضلاً عن صوت النفخة التي تصخ الآذان، أو تصمّها، ولذا فليس هناك حكاية لها أنسب من لفظة الصاخة.

  كما نكاد نحس في الطامة حكاية ارتطام وأصوات شيء تتحطم وكأنها تقول (طم – طم).

ونكاد نحس في القارعة أصوات أشياء تقرع وتتقعقع وكأنها تقول (قع – قع).

كذلك لا يخفى ما في هذه الأحرف (الطاء والصاد والخاء والقاف والعين) من انطباق واستعلاء وتفخيم يزيد من مناسبتها ومجانستها لما تمثله من هذه الأحداث

---

(٣٩) سورة الطور:١٣.

العظيمة، وكذلك اشتمال كل من الطامّة والصاخّة على حروف المد المنتهية بالتشديد الذي يزيد هذه الألفاظ حدة بما يحدثه ذلك المد من التهويل، وما يحدثه ذلك التشديد والنبر والارتكاز من تأثير في النفوس ووقفة وإلحاح على الانتباه والالتفات إلى ذلك الجرس وما يمثله من الإيحاءات والظلال.

- ومن ذلك أيضا لفظ (أفٍّ) في قوله تعالى: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾[٤٠].
  فإن هذه الكلمة (أفٍّ) هي محاكاة صوتية تامة لفعل المتأفف وصوته حيث يقول لما يكرهه ويثقل عليه (أف).
- وكذلك كلمة (يا ويلتى) في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (٢٧) يَا وَيْلَتَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾[٤١]. فهذه الكلمة (يا ويلتى) بانتهائها بمد التاء المفتوحة بالألف تحاكي تمامًا صوت العويل لمن يصرخ ويندب. وكذلك كل حروف (الندبة) في اللغة العربية إنما تحاكي صوت النادب وفعله سواء بسواء، ومنها ياء الندبة في هذه الكلمة (يا ويلتى) وفي كلمة (يا ليتني) وغيرها كثير.
- ومن ذلك أيضا: قوله تعالى في سورة الحاقة على لسان الذي يؤتى كتابة بشماله: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ﴾[٤٢].
- ومن الأمثلة كذلك في سورة الحاقة قوله تعالى على لسان المؤمن الذي يؤتى كتابه بيمينه: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾[٤٣].

فكلمة (هاؤم) بمد الهاء تعبر تماما عن صوت الفرح المستبشر وهي حكاية تامّة ومباشرة لفعله فإن الفرح المستبشر إنما يرفع صوته ويقول: (ها)، وهذا الذي أتي كتابه بيمينه ليس أحد أشد فرحة منه، فهو يرفع صوته منبها أهل المحشر جميعًا أن ينظروا إليه ليروا فوزه وسعادته فيقول موظفًا حرف التنبيه (ها) هذا التوظيف الصوتي الرائع لحكاية فرحته (هاؤم).

القسم الثاني: اختيار الأصوات التي بينها وبين الحدث نوع مناسبة وملاءمة.

الفارق بين هذا النوع والنوع الأول أن النوع الأول يكاد يكون حكاية تامّة لصوت الحدث، وذلك كما نقول (كاك) لصوت البط، أو (هوهو) حكاية لصوت الكلب.

---

(٤٠) الإسراء:٢٣.

(٤١) الفرقان:٢٨،٢٧.

(٤٢) الحاقة:٢٥.

(٤٣) الحاقة:١٩.

وفي العربية من ذلك الشيء الكثير كقولهم (بسبس)، و(طقطق)، وتسميتهم صوت الماء بالخرير، وصوت القط بالمواء ونحو ذلك.

أما النوع الثاني الذي نحن بصدده الآن فهو ما ليس حكاية لصوت الحدث، أو نقلاً له، ولكن فيه نوع من المناسبة والملاءمة للمعنى المعبر عنه سواء كان حدثًا له صوت أو ليس له صوت.

وهذا النوع الأخير _ هو في رأيي_ أكثر فنية من الأول؛ فإن النوع الأول على ملاحته وموسيقاه الناشئة من مجانسة صوت الحدث؛ فإنه يكاد يكون نقلاً مباشرًا للحدث كما هو، وكأن واضع العربية قد أعياه أو أعجزه أن يجد لفظًا يعبر به عن ذلك الحدث فنقله بهيأته وصورته كما هو، وحكاه بلفظه.

وذلك كالذي يتحدث بلغة لا يلم بكل ألفاظها فيعوزه التعبير عن بعض مدلولاتها في بعض الأحيان فيستعيض عن اللفظ الدال بإيراد المدلول نفسه ويضمنه كلامه بالإشارة إليه؛ كأن يريد أن يقول (قلم) ولا يعرف اللفظ الدال عليه، فيمسك بالقلم ويشير إليه.

غير أن هذا وإن كان مستقبحًا هنا لدلالته على الجهل باللغة؛ فإنه غير مستقبح من واضع اللغة في التعبير بحكاية الصوت لأنه جعل القاعدة عنده أن تكون الأصوات مطابقة للأحداث ما أمكن، فكلما أمكن الإتيان بصوت مطابق للحدث لم يجز العدول عنه إلى غيره، لأنه رأى الصوت المطابق يكون أدل على المقصود من غيره، والمطلوب هو الإبانة والدلالة على أكمل وجه، ومن هنا كانت تلك الألفاظ الحاكية لمدلولاتها هي أبلغ وأفصح في الاختيار من غيرها التي لا تحاكي ذلك الحدث.

ومن ثم فإن مفاضلتنا هنا ليست بين تلك الألفاظ وبدائلها في سياقاتها؛ وإنما نحن نفاضل بين صنيع الواضع في هذا النوع المحاكي أو المجانس، وصنيعه في النوع الثاني المناسب والملائم، فنقول: إن صنيعه في الثاني أدق وألطف لأنه في هذا المقام ليس هو بإزاء أحداث تحاكي أصواتها، وإنما هو بإزاء معان يختلف واديها عن وادي الأصوات والألفاظ حيث إنها لا جرس لها ولا صوت في الغالب فكان تمثيلها بالأصوات ومحاولة وضع صوت مناسب لها أدق وألطف، وهذا هو المقصود من أن هذا النوع أكثر فنيَّة من الأول، وبالأمثلة يتضح المقصود – إن شاء الله تعالى.

فمن ذلك النوع ما سبق التمثيل به في القسم النظري من البحث من ألفاظ (ضيزى – اثاقلتم – أنلزمكموها ....إلخ).

وهذا النوع يمكن أن نقسمه قسمين:

القسم الأول: هو ما كانت المناسبة بينه وبين المعاني الدال عليها من جهة محاكاة الناطق بهيئة نطقه صورة الفعل أو الحدث، ويمكن أن نسمي هذا النوع:

المحاكاة بهيئة الناطق:

والفرق بينه وبين النوع الأول: أن النوع الأول إنما هو محاكاة بالصوت والجرس لصوت الفعل أو الحدث.

أما هذا النوع فهو محاكاة بالفعل _لا بالصوت _ لصورة الفعل وهيئته لا لجرسه وصوته.

ففي هذا النوع تتم المحاكاة بهيئة أعضاء النطق وكيفية تحريكها عند النطق بالكلمة ما بين فتح وضم وكسر، وانفتاح للفم أو إغلاق له، أو انطباقه واستعلائه وغير ذلك.

ويمكننا أن نمثل لهذا النوع بما يحدث عند أمر الولد الصغير بالسكوت مثلا حيث يضم أحدنا شفتيه ويضع إصبعه عليها قائلا لولده (هش) أي اسكت، فهو يعبر بضم الشفتين ووضع الإصبع عليها على هيئة المحذر، أو هيئة الساكت المغلق لفمه.

وذلك أن واضع اللغة كما قلنا كأنه جعل القاعدة لديه تمام المطابقة للمدلول فما تمكن من مطابقته بالصوت أتى به، وهذا هو النوع الأول، وما لم يتمكن فيه من المطابقة بالصوت احتال له بنوع مطابقة بالفعل بهيئة النطق ليحدث نوعا من المناسبة والملاءمة بين الدال والمدلول تزيد في الإعانة على الدلالة والبيان.

وبالأمثلة يتضح المقصود من هذا النوع إن شاء الله تعالى:

فمن ذلك النوع في القرآن ما سبق التمثيل به من كلمة (ضيزى) في قوله تعالى: ﴿**تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى**﴾[٤٤] فقد قلنا إن هيئة الناطق بهذه الكلمة تعبر عن النفور والاشمئزاز عند النطق بها، ولذا آثر القرآن التعبير بهذه الكلمة عن بديلتها (جائرة).

ومن ذلك أيضًا فيما سبق التمثيل به كلمة (أنَّ) في قوله تعالى على لسان لوط عليه السلام حينما راوده قومه عن أضيافه: ﴿**قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ**﴾[٤٥].

حيث قلنا إن النطق بكلمة (أنَّ) في هذا الموضع يصاحبه ضغط المتكلم على أسنانه بحيث يبدو في هيئة المتغيظ، وهذا يحاكي حقيقة الأمر من تغيظ لوط عليه السلام من حال قومه وتماديهم في ركوب الفاحشة مع عدم قدرته على مجابهتهم وكفهم.

وسيأتي مزيد إيضاح لهذا النوع في المبحث الخاص بالعدول، حيث يقوم المبدع بالعدول عن القاعدة اللغوية الثابتة أو الشائعة لأجل الإتيان بلفظ يحاكي بهيئة النطق فيه، معنى يقتضيه السياق أو المقام، وذلك كما في فك الإدغام في كلمة

---

(٤٤) النجم:٢٢.

(٤٥) هود:٨٠.

(يحببكم) في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(٤٦).

وكما في كلمة (سأقيها) بالهمز في قراءة من قرأ: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ﴾(٤٧).

القسم الثاني من هذا النوع:

أما القسم الثاني من هذا النوع وهو ما تحدث فيه المناسبة بين أصوات الكلمة ومدلولها لا من جهة المحاكاة بالصوت، ولا من جهة المحاكاة بهيئة الناطق، ولكن من جهة مناسبة ألطف وأدق مما سبق.

وهذا النوع يدق في النظر حيث يشتمل على مناسبة ظاهرة ملموسة بينه وبين مدلوله، وهذا النوع هو الذي تظهر فيه براعة الواضع بصورة أكبر، ويحتاج للوقوف عليه إلى حسٍّ مرهف وذوق عربي أصيل.

فالمناسبة في المحاكاة بالصوت ظاهرة جدًّا كما في (وسوس) وهي أظهر الأنواع.

يليها في الظهور ما كانت المناسبة فيه بالمحاكاة بهيئة الناطق كما في (ضيزى).

أما المناسبة في هذا النوع الذي نحن بصدده فتحتاج إلى قدر كبير من التأمل، كما في الأمثلة التي سبق التمثيل بها من نحو (اثَّاقلتم(٤٨) – أنلزمكموها(٤٩)).

حيث بينا أن هناك مناسبة دقيقة بين هاتين الكلمتين ومدلوليها، حيث إن التشديد والمد المنتهي بالسكون في (اثَّاقلتم) يشبه هيئة المتثاقل الذي كلما قام قعد وأخلد إلى الأرض والسكون والدّعة.

كما أن كلمة (أنلزمكموها) بتراكبها وثقلها في النطق تأتي مناسبة جدًّا لثقل التكاليف التي يُلزم بها الكافرون وهم لها كارهون.

ويلاحظ أن الفارق دقيق بين هذا النوع وسابقه، فالمناسبة هنا ليست من جهة المحاكاة بالصوت، فليس هناك صوت للحدث المعبر عنه، كما أنها ليست محاكاة

---

(٤٦) آل عمران:٣١. وسيأتي الحديث عنها تفصيلا في مبحث العدول.

(٤٧) النمل:٤٤. الدر المصون في علوم الكتاب المكنون (٨/ ٦١٩) "قوله: {سَاقَيْهَا} العامَّة على ألفٍ صريحةٍ. وقنبل روى همزَها عن ابن كثير. وضَعَّفَها أبو عليّ." وسيأتي بيان النكتة فيها في مبحث العدول.

(٤٨) الكلمة وردت في قوله تعالى: ﴿يأيها الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ﴾ [التوبة:٣٨].

(٤٩) الكلمة وردت في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ [هود:٢٨].

بهيئة الناطق، لأن هيئة الناطق في (اثاقلتم) أو (أنلزمكموها) لا تشتمل على إشارة تدل على التثاقل أو الإلزام كما في (ضيزى) حيث اشتملت على إشارة واضحة لهيئة (المشمئز) فساعدت على معنى التنفير من الجور.

أما هنا فالمناسبة إنما هي بين التشكيل الصوتي للكلمة وما تشتمل عليه من مدّ أو تشديد أو سكون، أو تراكب للحروف، أو تقارب أو تباعد في المخارج، أو سهولة وسلاسة في النطق، أو تعثر فيه.

ومن ذلك النوع: كلمة (ليبطئن) في قوله تعالى: **﴿يأيها الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا (٧١) وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾** [٥٠]. حيث نلاحظ أننا نتعثر ونتباطأ في النطق بهذه الكلمة تعثرًا يشبه ويحاكي تعثر المتباطئ إلى حدٍّ كبير، حيث ينتقل الفم في النطق بها من الضم في الياء إلى الفتح في الباء، إلى الكسر في الطاء الثقيلة ثم يعاود الفتح مرة أخرى، وهذا التنقل بين الحركات والحروف المتقاربة في المخرج يؤدي إلى نوع من الثقل في النطق بها يشبه ثقل المتباطئ ويحاكيه[٥١].

ومن ذلك أيضًا كلمة (زلزلت) في قوله تعالى: **﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾**[٥٢].

فإن هذه الكلمة (زلزلت) تحاكي حركة الزلزلة بما فيها من هز وتحريك متتابع يقتضي التكرار لهذه العملية، وكذلك يأتي الفعل (زلزل) مكرر المقطع (زلّ) ليصور ذلك الحدث ويحاكيه بتركيبه الصوتي.

نلاحظ في المثالين السابقين أن المحاكاة أو المناسبة بين الكلمة ومدلولها ليست محاكاة بالصوت، ولا بهيئة النطق وإنما هي محاكاة من جهة أن التركيب الصوتي للكلمة (زلزل) بما فيها من تكرار وتتابع يحاكي بصورة تركيبه لا بجرسه ولا بهيئة نطقه – حدث الزلزلة بما فيه من تكرار وتتابع، وذلك لأن الزلزلة ليس لها صوت يحاكى، وإنما لها صورة وهي الاهتزاز والتتابع؛ فمن ثم وقع التناسب بين صورة اللفظ وصورة الفعل، كما أن كلمة (ليبطئن) تحاكي بتعثر النطق بها هيئة المتعثر المتباطئ، وتلك المحاكاة ليست بالصوت، ولا بهيئة النطق حيث لا يظهر على أعضاء النطق عند النطق بهذه الكلمة هيئة معينة تشابه هيئة التباطؤ، وإنما جاءت المحاكاة من المناسبة بين الثقل المصاحب للنطق بها، والثقل الذي يكون عليه المتباطئ.

---

(٥٠) النساء: ٧١-٧٢.

(٥١) للأستاذ سيد قطب في هذا الموضع كلام جيد حيث قال: "ترتسم صورة التبطئة في جرس العبارة كلها _ وفي جرس (ليبطئن) خاصة _ وإن اللسان ليكاد يتعثر، وهو يتخبط فيها، حتى يصل ببطء إلى نهايتها" [التصوير الفني صـ٧٨].

(٥٢) سورة الزلزلة: ١.

- ومن الأمثلة على ذلك التناسب أيضا في هذا النوع قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ (١٧) وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾[٥٣].

حيث نلاحظ مناسبة واضحة بين هذه الكلمة (عسعس) وبين المعنى الذي تدل عليه وهو إقبال الليل، أو إدباره[٥٤].

وذلك أننا عند نطق هذا اللفظ (عسعس) نكاد نحس همس الليل، وخفوت ضوء النهار، وهدأة الكون، وهذا يحدث في كلا الحالتين عند إقبال الليل وعند إدباره.

وإذا كان تكرار حرف السين بما يشتمل عليه من همس ورقة يتناسب مع إدبار الليل وهمسه، فإننا نجد أن كلمة (تنفس) في التعبير عن إقبال الصبح وإشراقه قد أخذت نصيبها من همس السين ورقته المناسبة للطافة الصبح ورقته، غير أن هذا الحرف لم يتكرر، وإنما اشتملت الكلمة على أحرف أخرى متحركة بالفتح متقاربة المخارج تضفي على جو طلوع الصبح وميلاده نوعا من الحركة والحياة التي نشعر بتدرجها شيئًا فشيئًا مع توالي هذه الحروف والحركات، وكأنها تكاد تحاكي ميلاد هذا الصبح الجديد.

- ولو تأملنا كذلك كلمة (يغشيكم) في قوله تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ﴾[٥٥].

نجد أن في قوله تعالى (يغشيكم النعاس) استعارة مكنية شبه النعاس بغطاء، والله تعالى يغشيهم به، واستعار لفظ (التغشية) ليصور النعاس في صورة شيء حسي يغشيهم الله تعالى به رحمة منه أشد رحمة من الوالد الحنون بولده – ولله المثل الأعلى – إذ يغطيه شفقة منه عليه.

يأتي التشكيل الصوتي لهذه الكلمة (يغشيكم) متناسبًا تمام المناسبة مع هذا المعنى حيث يتميز حرف الشين المضعف في هذه الكلمة بما له من تفشٍ واستطالة تكاد تنفرد بمحاكاة تصوير التغشية بالشيء، بل لا يبعد إذا قلنا إن هذا الحرف كان له مشاركة كبيرة بالإيحاء بتلك الصورة البديعة.

- هذا الإيحاء نجده كذلك في كلمة (تغشاها) في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ

---

(٥٣) التكوير:١٧-١٨.

(٥٤) قال ابن جرير الطبري: أن المراد بقوله: ﴿إذا عسعس﴾ إذا أدبر، وقال ابن كثير: "وعندي أن المراد بقوله: ﴿عسعس﴾: إذا أقبل، وإن كان يصح استعماله في الإدبار، لكن الإقبال هاهنا أنسب، كأنه أقسم تعالى بالليل وظلامه إذا أقبل، وبالفجر وضيائه إذا أشرق، كما قال: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾، وقال: ﴿وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾، وقال: ﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾، وغير ذلك من الآيات.

(٥٥) الأنفال:١١.

حَمْلا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾(٥٦).

فكلمة (تغشاها) بتشكيلها الصوتي القريب من كلمة (يغشيكم) السابقة يوحي كذلك بصورة تلك التغشية.

- وكذلك في قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى (٥٣) فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى﴾(٥٧) حيث نلمح كذلك إيحاء الشين المضعفة بتفشيها واستطالتها بتصوير العذاب بشيء مادي كثيف يغشى تلك القرى المؤتفكة.

ولما كانت تغشية الليل للكون تأتي رقيقة متدرجة لذلك أوثرت كلمة (يغشى) دون تضعيف للشين لكي تخفف الآية من الإيحاء بكثافة تلك التغشية وتصور أنها رقيقة لطيفة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ بينما نجد التعبير عن انجلاء النهار ووضوحه وتجليه للعيان بقوله تعالى: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ﴾ فتستشعر عند النطق بكلمة (تجلى) بما تشتمل عليه من جهر وانفجارية واضحة في حرف الجيم المعبر تمام التعبير عن الجهارة والوضوح الذي يتميز به النهار، ويزيد في الإيحاء بهذه الدلالة مجيء حرف اللام مضعفًا بما يتميز به من الجهر والوضوح كذلك.

- وكذلك نجد هاتين الكلمتين الرقيقتين (أمنة منه) في هذا السياق السابق (إذ يغشيكم النعاس أمنة منه) حيث تفيض الكلمتان رقة وأمنًا وحنانًا ودعة بما لتلك الحروف الرقيقة القريبة المخرج ذات الغنة الرخيمة من رقة صوتية تكاد تشبه ذلك الصوت الذي تحدثه الأم عند تنويم طفلها في دعة ورقة حانية.

ظاهرة المدود القرآنية:

ومن الاختيارات الصوتية التي تكاد تمثل ظاهرة قرآنية فريدة، ظاهرة اختيار الكلمات ذات المدود الصوتية سواء ما يسمى بالمدود الطبيعية في حروف المد الثلاثة؛ حيث تمد هذه الأحرف بمقدار حركتين، أو المدود الزائدة على المد الطبيعي حيث تمد هذه الأحرف الثلاثة مدًا زائدًا يتروح بين أربع وست حركات بالشروط التي بينها علماء القراءات.

ونستطيع أن نلمح تناسبا واضحا بين الكلمات التي اشتملت على تلك المدود وبين المعاني السياقية التي جاء المد متآزرًا معها فمن أمثلة ذلك:

---

(٥٦) الأعراف:١٨٩.

(٥٧) النجم: ٥٣-٥٤ .

(١) قوله تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾[٥٨].

(٢) وقوله تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾[٥٩].

(٣)وقوله تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[٦٠].

ففي هذه الأمثلة نلاحظ تناسبا بين هذه المدود وما صاحبها من معاني النداء، فهي تحاكي أو تجانس النداء وما يصاحبه من رفع للصوت.

ومن ذلك لفظ (آمِّين) في قوله تعالى: ﴿يأيها الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلا الْهَدْيَ وَلا الْقَلائِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾[٦١].

حيث نلاحظ أن المد اللازم المثقل في همزة (آمِّين) يتناسب تناسبًا تامًا مع هيئة قاصدي البيت الحرام الذين يتجهون نحوه لا يلوون على شيء، فالمد هنا يوحي بدوام التوجه والقصد.

وكذلك مد (الضالين) في قوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾[٦٢] أو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ﴾[٦٣] فإنها في مثل هذه السياقات إنما تتآزر مع دلالة التمادي والضلال والثبوت عليه.

كذلك فقد وقفنا قبل عند دلالة المد في كلمتي (الطامّة) و(الصاخّة) ونحوها من ألفاظ القيامة وكيف أنها تتآزر مع دلالتها على طول هذا اليوم وتماديها في الفظاعة والروع.

---

(٥٨) الأعراف:٤٤.

(٥٩) الأعراف:٤٨.

(٦٠) الأعراف:٥٠.

(٦١) المائدة: ٢.

(٦٢) الفاتحة: ٧.

(٦٣) الواقعة: ٥١.

ومن المواضع الطريفة هنا ذلك المد الدال على قوَّة المحاجَّة وطولها ، وذلك في محاجة إبراهيم عليه السلام لقومه ، ومحاجة قومه له ، قال تعالى : وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إلا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٨٢) وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣)

حيث نلاحظ استعمال الكلمة ذات المد اللازم (٦ حركات)في التعبير عن محاجة قوم إبراهيم – عليه السلام – له ، لبيان طول محاجتهم ، وقوة لجاجتهم ، وفي المقابل : طول محاجة إبراهيم – عليه السلام – وقوة محاجته بصورة أكبر على نحو ما بينت الآيات ، وأسهمت المفردة القرآنية (أتحاجونّي)بتشكيلها الصوتي في ذلك.

المبحث الثاني

التوظيف الأسلوبي البلاغي للتشكيل الصوتي على أساس العدول

ثمة أساس آخر للتوظيف الأسلوبي والبلاغي للتشكيل الصوتي نستطيع أن نلمح وقوف البلاغيين عليه واعتماده لديهم أساسا للكشف عن الدور البلاغي للأصوات وهذا الأساس الثاني هو ما أطلق عليه في تراثنا البلاغي مصطلح العدول. فإذا كانت البلاغة ترجع في سائر تعريفات البلاغيين التي سبق ذكرها إلى حسن تخير اللفظ، فإنه مما يجدر بنا التنبيه إليه أن هذا التخير أو الاختيار للفظ يمثل في غالب الأحيان أنواعا من العدول.

فالاختيار في حقيقته إنما هو عدول عن المستوى النمطي أو العادي من اللغة إلى المستوى الفني من الكلام وقد يمثل تخير اللفظ نوعا من العدول عن النظام اللغوي أو عن الاستخدام الشائع، أو عدولا داخليا وهو ما يسميه ريفاتير بالعدول السياقي، وذلك فيما سوف نبينه قريبا عنه.

وقد نبهنا في حديثنا السابق عن الاختيار إلى وقوف نقادنا القدامى على مستويين متمايزين من الأداء اللغوي:

الأول: هو المستوى النمطي.

الثاني: هو المستوى الفني أو البلاغي.

هذا التفريق الواضح بين مستويي اللغة الذي عنى ببيانه والوقوف عليه نقادنا القدامى هو ما تهتم الدراسات الأسلوبية بالوقوف عليه.

فهذا الواقع اللغوي يعد بمثابة (الأصل)، وهو ما تهتم تلك الدراسات برصد عملية الخروج عنه لواقع طارئ من شأنه أن يعيننا على تدبر أبعاده الدلالية والأصولية(٦٤).

وفي الحقيقة أن النظرة إلى العدول على أنه عدول عن المستوى النمطي إلى المستوى الفني نظرة لا تكاد تفرق بينه وبين الاختيار؛ أما العدول الجدير بإفراده بمصطلح خاص يميزه عن الاختيار وإن كان يشترك مع الاختيار في كونه انتقاء للفظ وإيثارًا له على غيره هذا العدول هو ما كان يمثل في رأيي نوعا من العدول عن النظام أو الأصل اللغوي أو نوعا من العدول عن سياق النص وهو ما عرف في التراث اللغوي والبلاغي بالمجاز(٦٥)والنقل، والانتقال، والتحريف، والانحراف، والرجوع، والالتفات، والعدول، والصرف، والانصراف، والتلون، ومخالفة مقتضى

---

(٦٤) المسدى/ الأسلوبية/ ص ٩٤.

(٦٥) المجاز هنا هو مصطلح أبي قتيبة في كتابه تأويل مشكل القرآن وهو أوسع من الدلالة التي استقر عليها مصطلح المجاز في الدراسات البلاغية.

الظاهر، وشجاعة العربية، والحمل على المعنى، والترك، ونقض العادة، وغير ذلك[٦٦].

ومما هو غني عن البيان أن نبين أن هؤلاء البلاغيين واللغويين كانوا يستخدمون هذه المصطلحات للعدول والنقل سواء كان في باب الأصوات أم في غيره من أنظمة اللغة، غير أن تلك المصطلحات كانت شاملة لديهم لذلك العدول الصوتي، وهذا هو ما يعنينا في هذا البحث.

هذا العدول قد عبر عنه في الدراسات الحديثة بمصطلحات عديدة كذلك، منها: الانحراف، والانزياح، والاختلال، والانتهاك، والتجاوز، والمخالفة، واللحن، وخرق السنن، والشناعة، والاطاحة، التحريف...إلخ[٦٧] فإذا كان النظر إلى الأسلوب من زاوية المنشئ قد أثمر مقولة الاختيار، فإن النظر إليه من زاوية النص أو الرسالة قد أثمر مقولة العدول أو ما أسموه بمصطلحات عديدة لعل أبرزها، مصطلح الانحراف[٦٨]؛ إذ يعتمد تعريف الأسلوب بالنظر إلى النص على أنه نوع من الخطاب الأدبي المغاير للخطاب العادي... وقد يكسر القواعد اللغوية الموضوعة أو يخرج عن النمط المألوف للغة، أو يبتكر صيغا وأساليب جديدة، أو يستبدل تعبيرات جديدة ليست شائعة بأخرى قديمة، أو يقيم نوعا من الترابط بين لفظين أو أكثر، أو يستخدم لفظا في غير ما وضع له. هذا الخروج على الاستعمال العادي للغة يطلق عليه الأسلوبيون وعلماء اللسانيات عدة مصطلحات لعل أبرزها الانحراف[٦٩] ومن ثم فقد وصف هذا الاتجاه الأسلوب بأنه انحراف عن قاعدة ما[٧٠] أو "بأنه انحراف عن

---

(٦٦) انظر مجاز القرآن لأبي عبيدة ٩/١، البديع لابن المعتز ص ٥٩/٥٨، البرهان في وجوه البيان لابن وهب الكاتب ص ١٥٣، الفروق لأبي هلال العسكري ص١٩٠، إعجاز القرآن للباقلاني ص ٢٧٣، ٢٧٤ المثل السائر لضياء الدين بن الأثير ٢٤٦/٢،٢٤١،١٦٩،١٦٧ جوهر الكنز نجم الدين بن الأثير ص ١١٨-١١٨، الكشاف للزمخشري ١٨٦/٢، ٢٠/٣، مفتاح العلوم للسكاكي ص ١٠٦ (المطبعة الأدبية)، الإيضاح للخطيب القزويني ص ١٥٧ (بتعليق د/ محمد خفاجي)، الطراز ليحي العلوي ١٣١/٢-١٣٢-١٣٥-١٣٦-١٣٧، التبيان للطيبي ٣٤٧/٢ بتحقيق/ د. عبد الحميد هنداوي ط المكتبة التجارية بمكة، شروح التلخيص ٤٦٣/١-٤٦٧ الخصائص لابن جني ٢١٤/١-٢١٥ ٤١١، ١٨٨/٣ ٢٦٧، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها د/ أحمد مطلوب ص ٢٩٦.

(٦٧) انظر المسدي _ الأسلوبية ص ٩٤.

(٦٨) اخترت التعبير عن هذه الظاهرة بلفظ العدول لأمور: أولها: أن هذا التعبير هو اختيار أغلب البلاغيين القدماء كما سبق أن أوردنا. ثانيها: أنه أدق في التعبير عن الظاهرة ووصفها. ثالثها: أن لفظة الانحراف تشمل إيحاءات إضافية قد لا تناسب الظاهرة ولعل أهم هذه الإيحاءات هو إيحاء الخطأ وهو غير وارد في مصطلح العدول. وانظر د/ محمد عبد المطلب/ بناء الأسلوب في شعر الحداثة التكوين البديعي ص ٣٢٤، وانظر له أيضا البلاغة والأسلوبية ط الهيئة ١٩٨٤ ص ١٩٨.

(٦٩) د/ فتح الله سليمان / الأسلوبية ص ١٩.

(٧٠) د/ صلاح فضل علم الأسلوب ص ١٧٩.

المعيار الموجود أو بأنه: "خروج عن القاعدة اللغوية" أو بأنه "شكل منحرف عن المعيار"[(٧١)]

كذلك فقد تردد مصطلح العدول في التراث البلاغي القديم باعتباره عدولاً عن القاعدة اللغوية العامة، أو عن السياق، أو غير ذلك مما اختلف فيه نظرة الأسلوبيين المحدثين.

فعلى سبيل المثال نجد تعبير أبي هلال العسكري بمصطلح العدول للدلالة على الخروج على الأصل اللغوي وذلك في مثل مفاضلة بين (الرحيم) و(الرحمن) حيث يقول "فإن (الرحيم) مبالغة لعدوله، وإن (الرحمن) أشد مبالغة لأنه أشد عدولا"[(٧٢)] والذي يعنينا هنا هو استخدام أبي هلال لمصطلح العدول واتخاذه أساسا يقاس عليه تحقيق المبالغة المطلوبة التي يقتضيها المقام.

ومعنى ذلك أنه يلفتنا إلى أساس ثان غير الاختيار يمكن اعتماده في التوظيف البلاغي لصيغة الكلمة.

نجد هذا الملمح كذلك عند الباقلاني ت ٤٠٣هـ حيث يرى كذلك أن (رحمن عدل عن راحم للمبالغة)[(٧٣)] فيذهب إلى نحو ما ذهب إليه أبو هلال آنفا.

والذي أراه أن العدول الذي ذكره كل من أبي هلال والباقلاني في هذا الموضوع إنما هو بالنظر إلى الصيغة[(٧٤)] في ذاتها أي في حالة الإفراد لا في حالة التركيب، أي أن المقارنة إنما تمت بين كل من (راحم ورحمن ورحيم) خارج سياقات الكلام، وعلى هذا تم الخروج بهذه القاعدة أن رحيم عدل بها راحم فهي أبلغ منها، ورحمان أشد عدولا فيه أشد مبالغة.

وليس المقصود أنه عدل في هذا الموضوع أو هذا السياق عن راحم أو رحمن، إذ إنه ليست هناك قرينة توجب كون أصل التعبير في هذا السياق باسم الفاعل راحم ثم عدل عنه إلى زيادة المبنى ونقصانه إنما تترتب على زيادة المعنى ونقصانه، لا على أن الأصل هو عدم الزيادة.

والذي يبدو أن مصطلح العدول قد وظف هنا بمعنى إيثار صيغة دون أخرى، وهذا يدلنا على أنه كان يخلط بينه وبين المعنى الدقيق للاختيار أحيانا.

---

(٧١) برند شبلنر علم اللغة ص ٦١.

(٧٢) مجاز القرآن ج٢/١٥١.

(٧٣) انظر السابق ص ٩ وانظر الكامل ٣/٢٢، ٢/٥٦.

(٧٤) لا يخفى أهمية رصد الاختيار أو العدول الأسلوبي في جانب الصيغ لماله من أثر كبير في التشكيل الصوتي لبنية الكلمة وتحويلاتها الصرفية المختلفة التي تؤدي بدورها إلى العديد من التشكيلات الصوتية التي تقع في إطار البحث.

أما الزمخشري ت ٥٣٨ هـ فقد جرى نظريا على نهج ابن المعتز في قصر ظاهرة الالتفات على المخالفة بين الضمائر[٧٥] وتبعه على ذلك السكاكي في مفتاحه، إلا أن الزمخشري قد التفت في تطبيقاته القرآنية إلى ظاهرة العدول في الصيغ وإن لم يسمها بمصطلح الالتفات الذي قصره على مدلول المخالفة بين الضمائر.

وقد كان للزمخشري النصيب الأعظم في هذا الباب وتبعه على هذا النهج كافة من جاء بعده من المفسرين حتى إن بعضهم لا يزيد في كثير من المواضع على أن يحكي عبارة الزمخشري في بيان ما اشتملت عليه الآية من اختيار أو عدول في جانب الصيغ، والحق أنه ما أبلى أحد في هذا الأمر ما أبلا ضياء الدين بن الأثير ت ٦٣٧ هـ في كتابه "المثل السائر" من كلامه فيم سماه تارة بالعدول، وتارة بالنقل أو الانتقال وذلك في الفصل الذي عقده بعنوان"قوة اللفظ لقوة المعنى"[٧٦].

---

(٧٥) الكشاف ١٠/١.

(٧٦) المثل السائر ٢٤١/٢-٢٤٧ انظر الفصل الخاص بين الصيغة والمعنى في الباب الأول من الرسالة.

إذا ارتضينا اعتبار شيوع الظاهرة في نص ما هو القاعدة التي يتم العدول عنها؛ فإننا نستطيع أن نقرر أنه قد تم العدول الصوتي عن القاعدة الصوتية الشائعة في القرآن الكريم _على سبيل المثال _ في عدد من المواضع لأغراض فنية، نحاول الكشف عنها في بعض ما نعرض من الأمثلة.

فمن المواضع العجيبة التي تمثل عدولا صوتيا عن السياق القرآن لفظ (مجراها) بإمالة الألف لتكون قريبة في نطقها من الياء، وذلك في قوله تعالى: **﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِاسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (٤١)﴾** (هود:٤١).

حيث نلاحظ أن هذه اللفظة (مجراها) هي اللفظة الوحيدة في السياق القرآن كله في قراءة حفص التي تتسم بهذه السمة الصوتية (سمة الإمالة).

وحينما نتأمل سياق الآية نشعر مدى مناسبة هذه اللفظة لجوها السياقي؛ فالأمر بركوب السفينة هنا متجه إلى هؤلاء المؤمنين من أتباع نوح _ عليه السلام_ وقد أمروا بركوب تلك السفينة الغريبة العجيبة التي لا عهد لهم بها من قبل، وهي راسية على بر ليس فيه قطرة ماء، ومن هنا كان التعجب من جري هذه السفينة وكونها وسيلة للنجاة.

فطمأنهم الله تعالى إلى أن هذه السفينة سوف تجري بمشيئته وبكرته (بسم الله) وأن جريها سوف يكون سهلا رخاء بلا معاناة ولا مشقة، ومن ثم جاءت الإمالة في مجراها لتعبر عن حركة تلك السفينة حيث تشق عباب الطوفان في يسر وسهولة ورخاء.

وحينما أراد الله تعالى أن يطمئنهم لرسوها، جاء لفظ (مرساها) بال إمالة ليعب عن حال رسو السفينة وما يناسبه من الثبات والاستقرار مما لا يتلاءم مع صفة الإمالة الواردة في مجراها.

ومن ذلك قوله تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا(١٠)﴾**(الفتح:١٠) .

فالملاحظ في هذه الآية أنها هي الآية الوحيدة في القرآن التي جاء ضمير الغائب الموصول فيها مضموما؛ لأن القاعدة الشائعة في مجيئه في القرآن هي الكسر فيقال (عليهِ) بالكسر لا بالضم؛ وذلك كما في قوله تعالى: **﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾** وكما في قوله تعالى: **﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾**.

ومن ثم يمثل الضم في هذه الكلمة عدولا عن القاعدة الصوتية القرآنية، فيا ترى ما سرّ هذا العدول؟

إذا تأملنا سياق الآية وجدناها عن مبايعة المؤمنين لرسول الله _ صلى الله عليه وسلم_ وتعظيم الله تعالى تلك البيعة ووصفها بأنها مبايعة له هو سبحانه، وإذا كانت البيعة لله رب العالمين فإن حقها التفخيم والتغليظ والتشديد والتوثيق، ولذا جاء

الضمير في (عليهُ) مضموما إشعارا بذلك التفخيم، وذلك ما لا يوحي به مجيء الضمير على أصل القاعدة مكسورا في هذا السياق، وأمر آخر يكشف عن القيمة الفنية لهذا العدول الصوتي، وهو أن حركة الحرف السابق على لفظ الجلالة يؤثر فيه بالتفخيم والترقيق حسب القاعدة الصوتية لنطق هذا اللفظ في القرآن الكريم؛ فإذا جاءت الهاء في (عليه) مكسورة كانت اللام من لفظ الجلالة مرققة، أما حيث جاءت الهاء مضمومة فإن اللام من لفظ الجلالة تنطق مفخمة فيتناسب تفخيم لفظ الجلالة مع ما يقتضيه السياق من تعظيم المُعَاهَدَ، وتفخيم شأنه، والتحذير من نكث العهد معه.

ومن مظاهر العدول الصوتي في القرآن الكريم كذلك، ذلك العدول بفك الإدغام في لفظة (يجبيكم) في قوله تعالى: **﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ(٣١)﴾** (آل عمران:٣١)، فالقاعدة الصوتية هنا هي الإدغام كما في قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤)﴾** (المائدة:٥٤).

ويمكننا أن نعلل لفك الإدغام في الآية الأولى بالنظر إلى سياقها فهو سياق ترغيب في اتباع الرسول، وبيان أنه شرط لثبوت الإدعاء بمحبة العبد لربه، ووعد بالجزاء الحسن على تلك المحبة وذلك الاتباع، وقد جعل الله تعالى الجزاء من جنس العمل، فجعل جزاء هؤلاء الصادقين في محبته، محبة مضاعفة منه سبحانه لهم فكان في فك الإدغام في الباء المشددة ما يشعر بمضاعفة محبته تعالى وبسطها ومدها لمن أحبه واتبع رسوله.

كما أن هذا الفك معنى آخر نستطيع أن نستشفه من الآية وهو أن في لفظ يحببكم بفك الإدغام من الرقة ما ليس في اللفظ المدغم، فالناطق بالكلمة بهذه الطريقة يستشعر _ ولله المثل الأعلى _ في اللفظ تدليلا وتنعيما للمخاطبين، كما يوحي قرب مخرج الباء الشفوية بتقريبهم، كما يوحي إسكانها بما في هذه المحبة من طمأنينة القلب وسكينته.

أما في آية المائدة التي جاءت على الإدغام فقد كان الإدغام أنسب لسياقها لكونها تتحدث عن الجهاد في سبيل الله، وهذا سياق يناسبه التشديد والخشونة فمن ثم جاءت الكلمة مدغمة إظهارا لذلك التشديد.

ومن مواضع العدول الصوتي العجيبة في القرآن الكريم كذلك لفظ (يَهِدِّي) في قوله تعالى: **﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ(٣٥)﴾** (يونس:٣٥).

ونظرا لأننا سوف نختم البحث بهذه الآية فإننا سوف نتعرض لما فيها كذلك من ظاهرة اختيار صوتي للمد وتركه في هذه الآية، بالإضافة إلى ما فها من عدول في لفظ (يهدِّي).

حيث نلاحظ المد في قوله تعالى: ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ حيث يجوز مد الياء من يهدي لوجود سببها وهو الهمزة بعدها، بخلاف يهدي الثانية في قوله تعالى: ﴿يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ حيث يمتنع المد لامتناع سببه، وكذلك يجوز المد في: ﴿يَهِدِّي إِلا﴾ لوجود الهمز بعد الياء، ويمتنع في (يهُدى).

وإذا تأملنا أولا: أسباب اختيار المد في مواضعه في الآية مسترشدين بالسياق، وجدنا ذلك التناسق العجيب بين الآية بسياقها وما احتف بها من دلالات أخر صوتية ومعجمية وصرفية ونحوية.

فالآية إنما تعقد مقارنة بين هداية الله تعالى لأوليائه، ومن ثم استحقاقه للعبودية، وبين حال الآلهة الباطلة المزعومة من حيث العجز عن تقديم أي نوع من الهداية لشركائهم قلّ أم كثر، طال طريقه أم قصر، ولذا جاءت الآية بهذا الأسلوب الاستفهامي الإنكاري: ﴿هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ ويأتي المد في ياء يهدي ليوحي بطول طريق الهداية لدى هؤلاء الشركاء لو هَدُوا، وتتضافر دلالة المد هنا وهي دلالة صوتية مع الدلالة المعجمية لكلمة (إلى) التي تفيد بعد المسافة، فكأن الله تعالى يقول لهم: "هل من شركائكم من يهدي إلى الحق ولو بطريق طويل بعيد؟!" ويأتي الجواب في صورة التحدي الذي لا يحتمل الموازنة والمقارنة: ﴿قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ وهنا تأتي الدلالة الصوتية ممثلة في ترك المد في ياء يهدي إيحاء بقصر مسافة الهداية بالنسبة لله تعالى، فهو يهدي إلى طريق مستقيم، والطريق المستقيم هو أقصر الطرق المؤدية إلى الحق.

وتتضافر تلك الدلالة الصوتية مع الدلالة المعجمية لحرف اللام الذي يفيد قرب المسافة ولصوقها، فهدايته سبحانه تقربك للحق وتلصقك به من أقرب الطرق وأقصرها.

ثم يأتي الاستفهام التوبيخي: ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ وهنا يأتي المد في الهداية المنسوبة إلى الحق سبحانه، ليصبح المعنى: أفمن يهدي إلى الحق ولو بطريق طويل _ (مع أن طريق هدايته أقصر الطرق، ولكن كأنه يعبر عن طوله في نظر المعرضين) _ أحق أن يتبع أم من لا تكون منه الهداية أصلا ولو ببطء شديد وتراخ إلى الأبد؟!

وهنا يأتي العدول الصوتي في كلمة (يَهِدِّي) التي لا نظير لها في السياق القرآني كله لتعبر بذلك التشكيل الصوتي، وتلك الطريقة النطقية عن البطء الشديد في الهداية يستفاد ذلك البطء من كسر الهاء التي تأتي من أقصى الحلق ليصطدم الصوت بالدال الأسنانية المشددة المكسورة التي يظل الصوت حبيسا عندها لتضعيفها ثم يتمادى به في الهوى مع الياء الممدودة مدا طويلا، لوجود سبب المد بعده وهو همزة إلا، ليوحي ذلك المد بطول طريق الهداية مع بطئها الشديد كذلك.

ثم يزداد عجبك بعد ذلك إذا تأملت أن تلك الهداية مع بطئها وطولها الشديد وتراخيها الأبدي منفية كذلك على كل حال، فهؤلاء الشركاء لا يهدون أبدًا بحال من

الأحوال؛ إلا أن يهدوا، ولا تكون الهداية إلا من الله تعالى، فهم لا يهدون أصلا من قبل أنفسهم.

من مواضع العدول الصوتي في القرآن الكريم أيضًا كلمة (سأقيها) في قراءة من قرأ (وكشفت عن سأقيها) في قوله تعالى: **﴿ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ﴾** [٧٧] حيث عدلت الآية عن القاعدة اللغوية المطردة بتسهيل الهمز في (ساقيها) وهو الأصل وعدلت عنه إلى ما يمثل خروجا على هذه القاعدة (بالهمز) لغرض بلاغي هو الإيحاء بالتهكم أو السخرية من صنيع الملكة بلقيس في هذا الموضع، فكأن الآية بذلك تحاكي صوت الضاحك الساخر من فعلها بكشفها عن ساقيها حينما أوت بدخول الصرح وحسبته لجة ماء فكشفت عن ساقيها لتخوض تلك اللجة المتوهمة، بينما هي صرح ممرد من قوارير زجاجية لامعة تبدو فيها صورة الواقف عليه وكأنه ناظر إلى الماء أو واقف عليه.

وبهذا نرى ما لهذا العدول الصوتي من قيمة فنية في هذا السياق، تتضافر مع العناصر الدلالية الأخرى.

وبعد فلعلنا نكون قد وفقنا إلى إلقاء بعض الضوء على القيمة الفنية لتلك الدلالة الصوتية التي لا تزال بحاجة إلى العديد من البحوث التي تكشف عن أسرارها وغوامضها، ولعلنا قد نوفق إلى الكشف عن بعض تلك الأسرار في بحوث لاحقة لنا إن شاء الله تعالى.

---

(٧٧) النمل: ٤٤.

المبحث الثالث

التوظيف الأسلوبي والبلاغي للتشكيل الصوتي على أساس التكرار

التكرار الصوتي في التراث اللغوي والبلاغي:

عرضنا في بداية هذا البحث لوقوف البلاغيين القدامى عند الإيحاءات الدلالية للتشكيل الصوتي، وكان ابن جني أبرز هؤلاء اللغويين.

وإذا كان ابن جني[٧٨] قد استطاع أن يكشف عن المناسبة بين التكرار الصوتي و ما يوحي به من المعاني و الدلالات - مما يدل على وعيه بقيمته و دوره الدلالي - فلقد جاء من العلماء بعد ابن جني من يستهجن تكرار الحروف ويعده مخلا بحسن الكلمة و فصاحتها.

من هؤلاء على سبيل المثال ابن سنان الخفاجي[٧٩] و من تبعه كابن الأثير[٨٠] و الطيبي[٨١] والعيني[٨٢] و نكتفي هنا بذكر كلام كل من ابن سنان و العيني في هذا المقام.

يقول ابن سنان في شروط فصاحة اللفظة المفردة:"الأول منها أن يكون تأليف اللفظة من حروف متباعدة المخارج....و بيانه أن يجتنب الناظم تكرار الحروف المتقاربة في تأليف الكلام "كما أمرناه بتجنب ذلك في اللفظة الواحدة، بل هذا في التأليف أقبح، و ذلك أن اللفظة المفردة لا يستمر فيها من تكرار الحرف الواحد أو تقارب الحرف مثل ما يستمر في الكلام المؤلف إذا طال واتسع، وما زال أصحابنا يعيبون هذا البيت:

لو كنت كنت كتمت الحب كنت كما ... كنا نكون و لكن ذاك لم يكن

وليس يحتاج إلى دليل على قبحه للتكرار أكثر من سماعه......"[٨٣]

---

(٧٨) انظر الحديث عن (تأصيل البحث في دلالة الأصوات عند قدامى النحاة واللغويين) في بداية هذا البحث.

(٧٩) سر الفصاحة: ٩٠.

(٨٠) المثل السائر ١٦٣/١ بتعليق د / أحمد الحوفي، د / بدوي طبانة، ط دار النهضة بمصر وانظر الجامع الكبير لابن الأثير لذلك صـ ٢٧٣.

(٨١) علم البيع فن الفصاحة وهو الجزء من كتاب التبيان في المعاني والبيان بتحقيق ط المكتبة التجارية – مكة المكرمة ٤٩٥/٢.

(٨٢) العيني في (ملاح شرح مراح الأرواح) انظر مجلة المورد عدد ٢ سنة ١٣٩٦هـ صـ ١٧٥.

(٨٣) سر الفصاحة: ٩٠.

و قال العيني في **(ملاح الألواح في شرح مراح الأرواح)**

" واعلم أنه إذا اجتمع حرفان من جنس واحد أو متقارب في المخرج، يدغم الأول في الثاني لثقل المكرر. وذلك لأنه ثقل عليه التقاء المتجانسين لما فيه من العود إلى حرف بعد النطق به، وشبهه الخليل بوطء المقيد،فإن المقيد يمنع من توسع الخطو" فيصير كأنه يعيد قدمه إلى موضعها الذي نقلها منه، وذلك مما يشق على النفس، و شبهه بعضهم بوضع القدم و رفعها في حيز واحد، و بعضهم بإعادة الحديث مرتين فكل ذلك مستكره فلذلك صارت الحروف المتباعدة في المخرج أحسن في التأليف مما تدانت مخارجه"

وهذا الذي ذكره العيني و من قبله ابن سنان ومن تبعه يعاب عليهم فيه إطلاق القول بإعابة التكرير، و ذلك لأمور:

١-أن تكرير الصوت لا يعاب مطلقا و لا يمدح مطلقا بل إن استحسان ذلك و استقباحه لا يجوز إلا بالنظر إليه داخل سياقه، و سوف يتضح ذلك بما نورده قريبا من أمثلة التكرار الصوتي التي كان لتكرار الصوت فيها دلالة فنية لا يمكن الاستغناء عنها.

٢- أن هذا التكرار الذي أطلق القول بذمه و إعابته قد وقع في كتاب الله تعالى المشهود له ببلوغ الغاية في الفصاحة و البيان في مواضع تنأى عن الحصر نذكر منها:

ا-قوله تعالى: **﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٨)﴾**(٨٤)

ب-قوله تعالى **﴿كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا﴾**(٨٥)

ج-قوله تعالى **﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾**(٨٦)

د- قوله تعالى: **﴿وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾**(٨٧)

---

(٨٤) هود: ٤٨.

(٨٥) الجن: ١١.

(٨٦) الكهف: ١٠٩.

(٨٧) الجن: ٢٨.

هـ قوله تعالى: ﴿فاسلكي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلا﴾[88]

و – قوله تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّار وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾[89]

(٣) أن الثقل المنافي لحسن الجرس ليس سببه تكرار الحرف ، والاطراد وعدم اطراده ظاهر في كثير من الألفاظ التي تجاور فيها المتجانسان دون أدنى ثقل بل أكسبها تجاورهما حسن الجرس كما شهدناه قبل .

(٤) أن اللغة قد حرصت على قلب أحرف بعينها، وإدغام أخرى للحصول على التكرار بتجانس الحرفين متجاورين، ولو كان اجتماع المتجانسين ثقيلا لما احتالت لتوفيره تخفيقًا وتحسينًا للجرس.

يظهر هذا في أماكن منها ما اشتهر تطبيقه على كتاب الله: من إدغام النون الساكنة والتنوين بالغنة إذا تلاهما حرف من حروف "ينمو"، ودون الغنة إذا تلاهما اللام أو الراء.

ومثله ما يسميه علماء التجويد إدغام المتجانسين، ويوجبونه متى سكن السابق منهما في ستة مواضع:

(١) في الدال الساكنة قبل التاء مثل: ﴿ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ﴾.

(٢) في التاء الساكنة قبل الدال، مثل: ﴿فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ﴾.

(٣) في التاء مع الطاء، مثل: ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ﴾

(٤) في الذال مع الظاء، مثل: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ..﴾

(٥) في الثاء مع الذال، مثل: ﴿أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ...﴾

(٦) في الباء مع الميم، مثل: ﴿يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا﴾.

وكل ذلك مما يقلب فيه الأول من الحرفين ليجانس الثاني، فيوفر بالتكرار والإدغام حسن الجرس ويسر النطق، ولعله من المقرر المعلوم أن الإدغام لا يخرج

---

(٨٨) النحل: ٦٩.

(٨٩) الزمر: ١٦.

الحرفين عن الحكم بالتكرير، فلكل منهما صوته نطقًا وسماعًا وإن خالهما غير المتأمل حرفًا واحدًا[٩٠].

٥- أن تكرار الحرف لو كان ثقيلًا بذاته لما جاز أن يتضمن قاموس اللغة هذا الحشد من الكلمات، بل لما جاز أن يوجد المضعف الرباعي ومزيده وفروعهما[٩١]، فإن كل لفظ منها يتضمن تكريرين معا .

وقد سبق أن ذكرنا أمثلة لمضعف الثلاثي في كتاب الله تعالى وأما ما ورد من المضعف الرباعي في الفصيح فهو كذلك في وفرته، ومنه:

﴿عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ﴾[٩٢]

﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾[٩٣]

وفي السنة : قول النبي –صلى الله عليه وسلم - " **يا أم السائب ما لك تزفزفين ؟**"[٩٤].

وقوله في وصف الوحي :" **صلصلة كصلصلة الجرس**".[٩٥]

وقول الرجل له :" **لا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ**"[٩٦]

وفي المثل :"**شنشنة أعرفها من أخذم**".

وقال أبو كبير:

أزهير هل عن شيبة من معدل	**أو لا سبيل إلى الشباب الأول**
أم لا سبيل إلى الشباب وذكره	**أشهى إليَّ من الرحيق السلسل**

---

(٩٠) التكرير ص ٢٤ ط – عالم الكتب – د/ عز الدين علي السيد.

(٩١) السابق.

(٩٢) سورة الرحمن: ٧٦.

(٩٣) الحاقة: ٦.

(٩٤) رواه مسلم في البر والصلة ح (٤٥٧٥).

(٩٥) رواه البخاري في بدء الوحي ح (٢).

(٩٦) رواه أبو داود في الصلاة باب في تخفيف الصلاة.

وقال علقمة:

تخشخش أبدان الحديد عليهم كما خشخشت يبس الحصاد جنوب

وقال العجاج:

تسمع للحَلى اذا ما وسوسا زفزفة الريح الحصاد اليبسا

إن تكرار الصوت في المضعف الرباعي ألصق بموسيقا الطبيعة وبالنفس من الثلاثي، ولذلك لا ينبغي أن نذهب مذهب الناسبينِ الثقل إلى تكرار الحروف أو قرب المخارج دون تقييد، كابن سنان الذي يشترط لفصاحة المفرد ولفصاحة الكلام خلوه من تكرار الحرف ومن قرب المخارج(٩٧).

وإذا كنا قد أطلنا في الرد على أصحاب هذا المذهب فقد وجد من العلماء المتقدمين من تعقب هؤلاء العلماء وردّ كلامهم في هذا الباب مثل القلقشندي الذي تعقب ابن الأثير فيما ذهب إليه من أن تكرار الحروف مما يوجب التنافر(٩٨) فيرد عليه القلقشندي بقوله:

"ليس تكرار الحروف مما يوجب التنافر مطلقًا كما يقتضيه كلامه، بل بحسب التركيب، فقد تتكرر الحروف وتترادف في الكلمات المتتابعة مع القطع بفصاحتها وخفتها على اللسان وسهولة النطق بها. ألا ترى إلى قوله تعالى: " قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم ".

كيف اجتمع فيه ست عشرة ميمًا في آية واحدة، قد تلاصق منها أربع ميمات في موضع، وميمان في موضع، مع ما اشتملت عليه من الطلاوة والرونق الذي ليس في قدرة البشر الإتيان بمثله والله أعلم "(٩٩).

ورد القلقشندي هنا يرجع إلى الوجهين الأول والثاني من وجوه الرد التي سبق أن رددنا بها على أصحاب هذا المذهب.

كذلك فقد أدرك بعض أئمة اللغة المتأخرين كالثعالبي القيمة الجمالية للتكرار الصوتي للحرف بما يعد سبقًا علميًا في مجال البحث الأسلوبي والجمالي يقول الثعالبي:

---

(٩٧) السابق.

(٩٨) الجامع الكبير صـ ٢٧٣.

(٩٩) صبح الأعشى ٢: ٢٧٣.

" فإذا استمعتَ إلى إنشاد البحتري في وصف الذئب الجائع المرتجف بسبب البرد ظننته أمامك:

يقضقض عصلا في أسرتها الردى كقضقضة المقرور أرعده البرد

فإن تكرر القاف وتواليها خمس مرات، وتكرر الراء ست مرات مع الحروف الأخرى يوحي بصورة الذئب في ضراوته وجوعه وارتجافه"(١٠٠).

إن هذا النص يكشف لنا عن وعي الثعالبي بما للأصوات من قيم دلالية جمالية يمكن استشفافها من السياق، كما يكشف لنا عن وعيه بالدلالة الفنية للتكرار الصوتي للحروف وأثره في إبراز المعنى وإيضاحه.

التكرار الصوتي في الدراسات الأسلوبية

إن هذه الإشارات المتناثرة سواء عند المتقدمين كالخليل وسيبويه وابن جني، أو المتأخرين كالقلقشندي والثعالبي وغيرهما لتدل أبلغ الدلالة على أن البحث الأسلوبي في أدق معانيه لم يكن غائبًا عن الفكر اللغوي والبلاغي عند أسلافنا القدامى.

ومن ثم فليس سبقًا للأسلوبية الحديثة التفاتها إلى القيمة الفنية للأصوات(١٠١) في إطار استيعابها لجميع العناصر الدالة وجميع العناصر المدلولة بحثًا يتوخى تكاملها النهائي(١٠٢)

أقسام التكرار الصوتي :

أحب أن أقرر هنا أن هذا البحث ليس بدعًا في هذا الجانب، فقد سبق أن التفت إلى القيمة الفنية للتكرار الصوتي عدد من الباحثين المحدثين(١٠٣) وقد حاول كل واحد منهم ذكر أقسام هذا النوع، وقد أفدت من تلك المحاولات وأضفت إليها ما رأيته جديرًا بالإضافة مما لم ينبهوا إليه.

---

(١٠٠) فقه اللغة وخصائص العربية: ٢٦١ – دار الفكر ١٩٦٨.

(١٠١) تحدثت في بحث العدد السابق عن دلالة الأصوات في الدراسات الأسلوبية الحديثة وعرضت فيه لرأي كل من أولمان وجسبرسن ورتشارد وغيرهم.

(١٠٢) انظر د/ صلاح فضل / علم الأسلوب ص ١٢٣.

(١٠٣) انظر على سبيل المثال: نازك الملائكة في قضايا الشعر المعاصر / الطبعة الأولى. د/ فاطمة محجوب في بحث لها عن التكرار في الشعر في مجلة الشعر عدد ٨ سنة ١٩٧٧ صـ ٤٠، د/ عز الدين علي السيد / التكرير بين المثير والتأثير صـ٧ ط عالم الكتب، د/ مصطفى السعدني / البنيات الأسلوبية في لغة الشعر العربي الحديث صـ ٣٠ ط منشأة المعارف بالأسكندرية.

وسوف أعرض هنا لأقسام التكرار الصوتي في خطة هذا البحث مع شفع كل قسم من أقسامه ببعض الأمثلة والنماذج التي سوف نقف أمام بعضها بالتحليل لنقف على القيمة الجمالية والفنية للتكرار الصوتي في نماذجه الأدبية الرفيعة التي أحسن توظيفه فيها.

ويمكننا أن نقسم التكرار الصوتي إلى هذه الأنواع:

أولًا: بحسب نوع الأصوات

يمكن أن ينقسم إلى:

١- تكرار حرف كما في **(أمم ممن معك) (تحبون) (يجببكم).**

٢- تكرار حركة، وهي إما قصيرة كما في **(النُّذُر- الزُّبُر- الدُّبُر- سُعُر- القَمر)** وإما حركة طويلة وهي المدود بالألف والواو والياء كما في نهايات الفواصل القرآنية.

٣- تكرار مقطع كما في وسوس- كبكب -زلزل

٤- تكرار كلمة وذلك حينما توظف كصوت محض وذلك كما في تكرار كلمة الحاقة في **(الحاقة. ما الحاقة. وما أدراك ما الحاقة)**

ثانيًا: بحسب صفة الأصوات، وذلك كتكرار الهمس والجهر والإطباق والقلقلة إلخ. وذلك كتكرار صفة القلقلة في فواصل سورة **(ق).**

ثالثًا: بحسب كيفية التكرار، وينقسم إلى:

١- متتابع كما في **(أمم ممن معك)** وكما في **(سُعُر)** و**(سَقر).**

٢- منفصل كما في **﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾** وأمثلة كثيرة.

رابعًا: بحسب درجة التكرار، وينقسم إلى:

١- مطرد وهو التكرار الملتزم به في موضع معين كفواصل الآيات أو القوافي ومن أمثلته تكرار حرف الراء في جميع فواصل سورة القمر، وتكرار الهاء في الفقرة المعروضة من سورة الحاقة**﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ﴾** الآيات.

٢- غير مطرد : وذلك كالتكرار المتناثر في مواضع متعددة في النص بغير التزام بالمكرر في موضع بعينه.

خامسًا بحسب القيمة الفنية، وينقسم إلى:

١- مطابق: وهو ماجاء متسقًا مع سياقه بلا تكلف، وتبدو قيمته الجمالية في إحداث نوع من الموسيقى الداخلية لها أثر إيجابي كبير في تلقي المخاطب.

٢- بليغ: وهو ماجاء متسقًا مع سياقه مع زيادة نكتة أو غرض بلاغي يمكن الوقوف عليه عند تأمل المناسبة بين السياق والسمات الصوتية المكررة.

٣- متكلف: وهو ماجاء متنافرًا مع السياق.

وجميع النماذج القرآنية تنتمي إلى النوعين الأول والثاني أي أنها مطابقة وبليغة في الوقت نفسه، ولكن يتضح دخولها في النوع الثاني أو يخفي بحسب القدرة على استشفاف النكتة والغرض البلاغي الذي وظف التكرار الصوتي لأجله، وهو ما سوف نكشف عنه في الأمثلة التي سنقوم بتحليلها في هذا البحث .

أما النوع الثالث المتكلف فليس له أمثلة في الكتاب العزيز.

النماذج التطبيقية

للتوظيف الأسلوبي والبلاغي للتكرار الصوتي في القرآن الكريم

سنعرض هنا للأمثلة القرآنية التي تعود إلى الأنواع السابقة على سبيل الإجمال مع التنبيه على ما يعود على كل واحد من هذه الأقسام السابق بيانها.

فمن أمثلة تكرار الأحرف وتكرار المقطع كذلك:

١- تكرار الواو والسين في كلمة **(توسوس) (يوسوس)**[*] في قوله تعالى:

٢- **﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾**[١٠٤]

٣- وقوله تعالى: **﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾**[١٠٥]

نلمح في هذين المثالين أن الفعل "وسوس" يتركب من تكرار المقطع **(وس)** وهذا التكرار الصوتي لهذا المقطع يحاكي عملية الوسوسة بما تشتمل عليه من إلحاح وإغراء بالشيء يقتضي تكرار الإيعاز بالشيء مرّة بعد مرّة.

كما أن تكرر الواو بما تشتمل عليه من خفاء ولين يؤكد معنى الخفاء والمكر ولين القول في عملية الوسوسة.

وكذلك تكرر السين بما تشتمل عليه من همس وصفير يؤكد معنى الهمس والإخفاء في الوسوسة فما أشبهها بصوت صفير الريح ووسوسة الحلى ونحو ذلك ، وهذا يؤكد معنى الخفاء من جهة كونه صوتًا غائمًا، ومعنى التشويش على الضمير من جهة ما فيه من صفير وغوغائية متكررة.

وتأتي هذه الدلالة متناغمة مع سياق الآية الدال على مدى علم الله تعالى بوساوس النفوس مهما خفيت ودقت، وعلمه كذلك بضعف الإنسان ومعاناته أمام هذه الوساوس المتكررة والملحة عليه مما يقتضي رحمة الله تعالى وعفوه عن عباده التائبين.

وتأتي هذه الدلالة كذلك متناغمة مع دلالة السياق في المثال الثاني الذي يأمر الله تعالى عباده أن يستعيذوا به من شر هذه الوساوس الشيطانية الملحة المتكررة، فهو وحده القادر على إعاذتهم منها ووقايتهم من شرورها.

---

(١٠٤) ق: ١٦.

(١٠٥) الناس: ٥.

ومن أمثلته أيضًا:

تكرار الكاف والباء في كلمة **(كبكبوا)**(*) في قوله تعالى: **﴿ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾**(١٠٦)

في هذا المثال نجد أن الفعل **(كبكب)** قد اشتمل على تكرر المقطع **(كب)** مما يوحي بتكرر **(كب)** أهل النار فيها وتواليهم في دركات الجحيم، وهذا يأتي منسجمًا تمام الانسجام مع سياق الوعيد والتهديد لهؤلاء الغاوين الضالين ، كما أن تكرر الباء بما فيها من قلقلة وانفجارية يأتي مناسبا تمام المناسبة لمحاكاة تردي تلك الأفواج في النار مع محاكاة صوت الوقوع والاصطدام، ولعل الاحتكاك بين الكاف والباء وتكرره قد يشارك في تلك المحاكاة معبرًا عن احتكاك تلك الأفواج بعضها ببعض.

ومن أمثلة تكرار الحروف: تكرار الباء في كلمة **(تحبون)** **(يحببكم)** في قوله تعالى: **﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾**(١٠٧)

نلاحظ أن تكرار الباء في الموضع الأول قد جاء مع الإدغام عن طريق التشديد مما أضفى على الكلمة نوعًا من الإجلال والوقار يزيد محبة العباد لربهم فهي ليست كمحبة الأزواج والأولاد. أما في محبة الله تعالى لعباده التي جاءت على سبيل الجائزة والمكافأة لمحبتهم إياه فقد جاء التكرار بفك الإدغام في الحرف المشدد مناسبًا لمضاعفته سبحانه تلك المحبة عليهم، وفي الحديث الصحيح الثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم عن رب العزة جل وعلا "**من تقرب إليّ شبرًا تقربت إليه ذراعًا**.." كما أن لهذا الفك للإدغام معنى آخر نستطيع أن نستشفه من الآية وهو أن في لفظ يحببكم بفك الإدغام من الرقة ما ليس في اللفظ المدغم، فالناطق بالكلمة بهذه الطريقة يستشعر - ولله المثل الأعلى - في اللفظ تدليلًا وتنعيمًا للمخاطبين، كما يوحي تكرر الباء الشفوية ذات المخرج القريب بزيادة تقريبه سبحانه إياهم ومضاعفته المحبة لهم إزاء محبتهم إياه .

(*) سبق معالجة هذه الكلمة في مبحث الاختيار، وقد أوردناها في هذا البحث للنظر إليها من جهة تشتمل عليه من تكرار صوتي.

(١٠٦) الشعراء: ٩٤.

(١٠٧) آل عمران: ٣١.

ومن الأمثلة العجيبة لتكرار الحروف كذلك:

تكرار ثمان ميمات متوالية في قوله تعالى: ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ﴾[(١٠٨)]

في هذا المثال توالت ثمان ميمات في قوله تعالى " **أمم ممن معك**" وذلك بالنظر إلى ما في الأحرف المشددة من تكرار وتضعيف. ونستطيع أن نجتهد في تفسير توالي هذه الميمات واجتماعها في هذه الآية على هذا النسق إذا ما تأملنا سياق الآية الذي يتحدث عن بشارة الله تعالى لنوح بهبوط سفينته على الأرض مؤذنًا ببداية العمران والاجتماع لهذه الأمم التي اجتمعت مع نوح عليه السلام في هذه السفينة بأمره سبحانه لنوح ﴿احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾[(١٠٩)]

ويأتي اجتماع هذه الميمات - بما للميم نفسها من صفة الاجتماع في المخرج حيث تنضم الشفتان وتجتمعان عند النطق بها وتصاحبها غنّة مقدارها حركتان تؤدي إلى استقرار الصوت عند النطق بها - يأتي اجتماع هذه الميمات بتلك الصفات معبرًا تمام التعبير عن اجتماع تلك الأمم واستقرارها في ذلك العمران الجديد الذي تبشر به هذه الآية الكريمة.
ولعلنا قد نتجاوز الحدّ في الاجتهاد إذا حاولنا التخرص بعلة كون هذه الميمات ثمانية.

ومع تقييد ذلك بكونه مجرد حدس وظن واجتهاد قد يصيب وقد يخطئ فنقول - والله تعالى أعلم - لعل السبب في ذلك أن الأجناس التي قد اجتمعت مع نوح أربعة أجناس هي:

١- جنس الإنس

٢- جنس الجنّ

٣- جنس الدواب

٤- جنس الطير

---

(١٠٨) هود: ٤٨.

(١٠٩) هود: ٤٠.

فالإنس والجن جنسان، والطير والدواب جنسان آخران بدليل قوله تعالى ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾[110] فقسم الله الحيوان إلى جنسين: دواب، وطيور وسمّى الجميع أممًا.

وبهذا يكون قد اجتمع مع نوح عليه السلام أربعة أجناس؛ فإذا ضربت في اثنين باعتبار جنسي الذكور والإناث بدلالة قوله تعالى: ﴿ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾[111] كان حاصل ذلك ثمانية أجناس فكأن اجتماع هذه الميمات الثمانية بإزاء اجتماع هذه الأجناس واستقرارها في تلك الحياة الجديدة.

ومن الأمثلة الواضحة لتكرار الحروف والحركات : قوله تعالى ﴿كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا﴾

نستشعر في تتابع الدالين المفتوحين دلالة ذلك التكرار على تعدد تلك الطوائف من الجنّ ، كما أن تتابع الفتح وتكراره في الدالين يورث النطق نوعا من التنافر الفني الذي أحسن توظيفه للدلالة على ما بين هذه الفرق من تفرق واختلاف . ويشارك في حدوث هذا التنافر انتقال الفم من الكسر في القاف إلى الفتح المتكرر في الدالين مما يجعل الفم في هيئة شبيهة بهيئة المشمئز المستنكر لشيء ، ويتقوى هذا الاشمئزاز والاستنكار بما في حرف الدال من جهر وانفجار مع تكرر ذلك الجهر والانفجار ويؤيد هذا المعنى ما فهمه كبار المفسرين من المعنى الجملي لهذه الآية .

قال ابن كثير : **{كنا طرائق قددا }**" أي طرائق متعددة مختلفة وآراء متفرقة "[112]

ومن أمثلته كذلك قوله تعالى : ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾[113] نستشعر هنا في هذه الآية الكريمة دلالة التكرار لحركات الفتح المتتالية على أحرف الكلمة كلها مع تكرار حرف الدال ولعل هذا هو سبب التفريق بين دلالة تكرار الدال في هذا الموضع والموضع السابق ؛ وذلك لأن هيئة التنافر المتولدة في الموضع الأول **(قددا)** بسبب الانتقال من الكسر إلي الفتح ، قد زال سببها في هذا الموضع ، وجاء تتابع الفتح مع

---

(١١٠) الأنعام: ٣٨.

(١١١) هود: ٤٠.

(١١٢) تفسير ابن كثير ، سورة الجن ، آية ١١.

(١١٣) سورة الكهف : ١٠٩.

تتابع الدالين بسماتهما الصوتية المذكورة آنفا من الجهر والانفجار جاء ذلك التتابع بتلك السمات الصوتية متناغما ومتسقا تمام الاتساق مع دلالة التتابع والإمداد والإرداف المتتالي اللانهائي الذي أرادت الآية أن تعبر عنه في مقام التعبير عن اتساع علم الله تعالى وكثرة كلماته تلك الكثرة غير المتناهية التي تنأى عن الحصر .

وشبيه بتلك الدلالة السابقة لتوالى الحروف والحركات قوله تعالى : **﴿ لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾**[١١٤] حيث نستشعر هنا في توالى وتكرار حركات الفتح في كلمة (**عددا**) وتكرار الدال فيها مناسبة تامة لسياق الآية الدال على الإحصاء والإحاطة والجمع والعد فجاء تتابع تلك الحروف والحركات وتواليها بإزاء تتابع حركة العد والإحصاء وتواليها .

ومن أمثلة توالى السمات الصوتية وتكررها ، تكرار الترقيق باختيار الأحرف المرققة في كلمة (**ذللا**) من قوله تعالى :

﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾

إن السياق هنا سياق امتنان من الله تعالى علي عباده بأن ذلل السبل ومهدها للنحل حتى يخرج للناس مادة غذائهم وشفائهم وتأتى دلالة تكرار الأحرف المرققة في كلمة " ذللا" متناغمة ومتسقة تمام الاتساق مع تلك الدلالة ، فتوالى تلك الأحرف المرققة الذال واللامين مع ما في الذال من ذلاقة وهمس مع رقة اللام المكررة كذلك ، كل ذلك يوحي تمام الإيحاء بالتذليل والتسهيل ، وإنك لتجد ذلك واضحا في سهولة النطق بتلك الكلمة مع ما نستشعره من تكرار الضم وتتابعه من حنو ورفق لا يكذبه الحس والشعور . إذا وازنا بين دلالة الكلمة السابقة " **ذللا** " وكلمة شبيهة بها وهى (**ظلل**) مع النظر إلى القيمة الخلافية لكل من حرفي الذال والطاء كصوت فإننا نقف على ما يقوم به الصوت من دور فعال في مناسبة المعنى . وذلك أنه لما كان السياق سياق تذليل وتسهيل وامتنان ونعمة ناسب ذلك إيراد حرف الذال المهموس المرقق.

ولما كان السياق في الآية الأخرى سياق وعيد وتهديد وتخويف ناسب ذلك إيراد حرف الظاء المجهور المفخم ، وتأتى هذه القيمة الخلافية لحرف الظاء متناغمة تمام التناغم مع تكرار اللام بعدها للدلالة على تتابع الظلل النارية وتراكب بعضها فوق بعض .

---

(١١٤) الجن : ٢٨.

وإذا كان تتابع الضم في كلمة **(ذللا)** قد جاء موحيا بالحنو والرفق والرحمة ، فإن سياق الوعيد والتهديد ليس بحاجة إلى شيء من ذلك ، وإنما يناسبه ذلك التراكب العجيب في الانتقال من الضم إلى الفتح بما في الفتح من استعلاء مناسب لاستعلاء تلك الظلل وتراكبها .

الجناس البديعي والتناغم الصوتي:

من الظواهر اللافتة للنظر في ظاهرة التكرار الصوتي تكرر حروف بعينها داخل الجملة الواحدة بين كلمتين أو أكثر محدثة نوعًا من الجناس الصوتي الذي عرفه البلاغيون في مبحث الجناس البديعي المعروف.

وغني عن البيان أن نقرر هنا ما سبق أن قرره البلاغيون من قبل كأمثال عبدالقاهر الجرجاني حيث قرر أن هذا الجناس لا يحسن إلا إذا كان المعنى هو الذي يستدعيه ويتطلبه، حيث أطال في هذا المعنى وأبدأ وأعاد فقرره على أكمل وجه ثم قال: "وعلى الجملة فإنك لا تجد تجنيسًا مقبولاً، ولا سجعًا حسنًا، حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه وساق نحوه، وحتى تجده لا تبتغي به بدلاً، ولا تجد عنه حولاً، ومن هاهنا كان أحلى تجنيس تسمعه وأعلاه، وأحقه بالحسن وأولاه، ما وقع من غير قصدٍ من المتكلم إلى اجتلابه، وتأهب لطلبه، أو ما هو – لحسن ملاءمته، وإن كان مطلوبا – بهذه المنزلة وفي هذه الصورة، وذلك كما يمثلون به أبدًا من قول الشافعي رحمه الله تعالى وقد سُئل عن النبيذ فقال: "أجمع أهل الحرمين على تحريمه". ومما تجده كذلك قول البحتري: [من الكامل]

يَغْشَى عَن المجد الغبيُّ ولَنْ تَرى   في سُودِدٍ أرَبًا لغير أريبِ

وقوله: [من الوافر]

فقد أصبحتَ أغْلَبَ تَغْلَبِيٍّ   على أيدى العَشِرةِ والقلوبِ

ومما هو شبيه به قوله: [من الكامل]

وهوىً هَوَى بدُموعه فتبَادَرَتْ   نَسَقًا يَطأنَ تجلُدًا مغلوبَا

وقوله: [من الكامل]

ما زلت تقرَعُ بابَ بابَكَ بالقنا   وتزوره في غارةٍ شعواءِ[١١٥].

---

(١١٥) عبد القاهر الجرجاني – أسرار البلاغة/ تحقيق محمود محمد شاكر - ط مطبعة المدني القاهرة – صـ١١.

ومن أمثلة ذلك في القرآن الكريم: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ (٧٢) فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾[١١٦].

وكقوله تعالى: ﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ (٢٩) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾[١١٧].

وقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾[١١٨].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ (٧) وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾[١١٩].

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾[١٢٠].

وقوله تعالى: ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [١٢١].

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[١٢٢].

وقوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾[١٢٣].

وقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ﴾[١٢٤].

حيث نلاحظ في هذه الأمثلة جميعًا تناسبا وتجانسًا صوتيًا بين الكلمتين المتجانستين مما يضفي على الجملة نوعًا من الموسيقى الداخلية بين الكلمات لها أثر بالغ في تمثل المعاني مع انسجام تلك الألفاظ في الوقت نفسه مع معانيها واتفاقها معها بحيث لا تجتلب تلك الألفاظ لأجل إحداث ذلك التجانس وإنما تقتضيها المعاني وتتطلبها.

---

(١١٦) الصافات: ٧٢-٧٣.

(١١٧) القيامة: ٢٩-٣٠.

(١١٨) الهمزة: ١.

(١١٩) العاديات: ٧-٨.

(١٢٠) الأنعام: ٢٦.

(١٢١) النمل: ٢٢ .

(١٢٢) الكهف: ١٠٤.

(١٢٣) الروم: ٤٣.

(١٢٤) الواقعة: ٦٨-٦٩.

ونضرب هنا مثالاً لذلك الجناس الصوتي الذي تحقق فيه التوافق مع السياق، واقتضاه النظم، وتطلبه المعنى وذلك كما في قوله تعالى: ﴿**وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ**﴾[١٢٥]. وهذا يمثلون به للجناس التام، وفيه فائدة أكبر من مجرد التحسين اللفظي، والذي قصر القوم عليه فائدة الجناس، والحق أن فيه تحسينًا للمعنى أيما تحسين، كما أن فيه أبلغ المطابقة للمقام، وأروع تعبير عن حال هؤلاء المجرمين، وأوضح كشف لما تنطوي عليه ضمائرهم ونفوسهم في هذا اليوم العصيب من الحسرة والندامة، ومدى إحساسهم بالغبن والفجيعة والخسران المبين.

فالجناس في هذه الآية كان له دور كبير في تنبيه الذهن لعقد المقارنة بين ساعة الدنيا وساعة الآخرة، وكيف أن هؤلاء المجرمين قد أهملوا أمر هذا اليوم وهذه الساعة التي تعقبها نار أبدًا أو جنة أبدًا من أجل هذه الدنيا الرخيصة التي تبين لهم قدرها الحق في ذلك اليوم بالنسبة إلى طول الموقف وهو له وتلفت الآية بطريق الجناس ذهن القارئ إلى أن نسبة هذه الدنيا إلى الآخرة كنسبة ساعة من ساعات الدنيا، كما تبين له مدى جرم هؤلاء المجرمين من حيث أفرطوا في العمل لساعة كان مقدارها خمسين ألف سنة من أجل ساعة عاجلة يراها المجرمون يومئذ كأنها لم تكن إلا عشية أو ضحاها فشتان بين ساعة وساعة، ففيه أبلغ الزجر عن الانشغال بتلك الساعة العاجلة الفانية عن العمل للساعة الآجلة الباقية كما أنك ترى في هذا الجناس من المطابقة والموافقة للمعنى بحيث لا يمكنك أن تعبر عن المعنى المراد بغير هذا الجناس فإنك لو قلت: "ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير عشية أو ضحاها" أو "إلا عشية أو ضحاها" لما أديت حق المقام، فإن المقام هنا مقام قسم، والقسم إنما يراد فيه المبالغة في إثبات أمر هو المقسم عليه، وذلك الأمر المراد المبالغة في إثباته هنا هو بيان قلة لبثهم في الدنيا، وأنهم لم يمكثوا فيها زمنًا كافيًا ليتأهبوا فيه لهذا اليوم، ويعدوا له عدته، ومن أجل ذلك يقسمون على ذلك لله عز وجل ظانين أن ذلك ينفعهم عند ربهم لعله يستجيب لهم إذا طلبوا العودة إلى الدنيا مرة ثانية": ﴿**رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ**﴾[١٢٦].﴿**رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ**﴾[١٢٧].

---

(١٢٥) الروم: ٥٠.

(١٢٦) فاطر: ٣٧.

(١٢٧) المؤمنون: ١٠٧.

ولذلك يكون جوابهم: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾[١٢٨]. فلعلهم لما سمعوا هذا الجواب أملوا أنهم لو أقسموا أنهم ما لبثوا فيها إلا زمانًا يسيرًا، لعل ذلك يكون عذرًا لهم عند ربهم فيخرجهم من النار ويعيدهم إلى الدنيا مرة أخرى، ولذا كان لفظ ساعة أوفق لهذا المعنى أليق بالمقام من قولهم عشية أو ضحاها، لأن العشية أو الضحى قد تكون عدة ساعات لأن اليوم أربع وعشرون ساعة في لغة العرب "والساعة في الأصل تطلق بمعنيين أحدهما أن تكون عبارة عن جزء من أربعة وعشرين جزء من مجموع اليوم والليلة والثاني أن تكون عبارة عن قليل من النهار أو الليل. يقال: جلست عندك ساعة من النهار، أي: وقتًا قليلاً منه"[١٢٩] كما أن الساعة هي أقل ما يطلق على الوقت في لغة العرب، ولا يطلق عداها مما يعبر عن القلة في الوقت إلى مجازًا كقولك: "انتظر لحظة" أي مقدار لحظة عين، وهذا في حد علمي وبحثي في كتب اللغة.

فهنا نجد أن الجناس في هذه الآية يحقق مغزى بلاغيًا، ونكتة زائدة تزيد بها مطابقة الكلام للمقام.

ففي هذا المثال نلاحظ أن المعنى هو الذي اقتضى هذا الجناس وتطلبه مع ما فيه من تحسين للفظ والجرس والنغم.

التكرار الصوتي في سورة القمر

يعد التكرار في هذه السورة من أهم عناصر الإعجاز الصوتي بها حيث تم توظيفه بطريقة متناغمة ومنسجمة مع الغرض العام الذي سيقت السورة لأجله .

إن الناظر في هذه السورة الكريمة يكاد يستشعر أن التكرار يكاد يمثل الغاية والوسيلة معا في هذه السورة ، فالغاية أو الغرض من هذه السورة هو عرض صور النذارة المتكررة لإزعاج هؤلاء الغافلين . ومن ثم نستطيع أن نلمح صور التكرار في هذه السورة ممثلة في:

الصورة الأولى : تكرار الآيات الكونية المنذرة بقرب الساعة وعذاب الكافرين ممثلة في :

انشقاق القمر _ الطوفان وسفينة نوح عليه السلام _ ريح قوم عاد _ ناقة ثمود _ إهلاكهم بالصيحة _ إهلاك لوط بالحاصب _ الآيات التي جاء بها موسى

---

(١٢٨) فاطر: ٣٨.

(١٢٩) لسان العرب، مادة (سوع)، ٢١٥١/٣ ط دار المعارف.

لفرعون وقومه _ إهلاك فرعون وقومه لما كذبوا بالآيات ﴿ **كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ**﴾

الصورة الثانية : تكرار الآيات السمعية ممثلا في : ﴿**وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ**﴾ القمر :٤

حكمة بالغة " القمر ٥"
ذكر **(القرآن)** أربع مرات .

ذكر (**الذكر**) القمر :(٢٥) مرادا به ما أنزل على الرسل السابقين .

الصورة الثالثة : تكرار ذكر الرسل وبعثهم ونذارتهم لأقوامهم **(قوم نوح وعاد وثمود ولوط وآل فرعون وأهل مكة)**

الصورة الرابعة : تكرار مصارع المكذبين من الأمم السابقة

الصورة الخامسة : تكرار إنجاء المؤمنين من الأمم السابقة

الصورة السادسة : تكرار الامتنان علي العباد بنعمة تيسير القرآن للذكر أربع مرات

الصورة السابعة : تكرار الحض على التذكر والاتعاظ مرارا " **فهل من مدكر** " ذكرت ست مرات .

الصورة الثامنة : تكرار النذارات إلى العباد بصورها المختلفة وقد تكررت كلمة **(النذر)** بلفظها في هذه السورة عشر مرات كما تكررت النذارة بمادتها ومعناها أكثر من ذلك .

الصورة التاسعة : تكرار لفظ العذاب سبع مرات منسوبا ـ في ست منها ـ إلى الله تعالى (**عذابي**) ، وتكرار الإذاقة للعذاب مرارا حيث تكرر لفظ " **فذوقوا عذابي ونذر** " مرتين ، وتكرر لفظ (**ذوقوا**) ثلاث مرات بعد قوله تعالى " **ذوقوا مس سقر**"

الصورة العاشرة : تكرر لفظ (**الزجر**) بمادته مرتين (**مزدجر**) آية : ٤ (**وازدجر**)آية :٩

الصورة الحادية عشر : تكرار لفظ الأخذ بمادته مرتين في ﴿ **فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ**﴾٤٢

هذا التحليل السابق لأهم صور التكرار في سورة القمر نستطيع أن نتخذه مفتاحا للوصول إلى سر التكرار الصوتي الذي اشتملت عليه فواصل هذه السورة الكريمة حيث تكرر صوت الراء بصورة مطردة في جميع فواصل هذه السورة الخمسة والخمسين بلا استثناء ، كما قد تكررت بعض الأحرف والحركات في هذه السورة لأغراض بلاغية بعيدة المدى . وإذا صح ما قلناه آنفا من أن هذه السورة الكريمة قد اتخذت التكرار وسيلة وغاية في الوقت نفسه ، فالغرض هو تكرير الحجج والآيات والبينات والزواجر علي مسامع هؤلاء الغافلين ، حتى لقد تكرر التكرار في هذه السورة بصور شتى .

إن هذه السورة إذا هي سورة التكرار ؛ ومن ثم فليس ثمة حرف أنسب لفواصل هذه السورة من حرف الراء لاشتماله علي سمة التكرارية كسمة لازمة له في طبيعة النطق به ؛ ومن ثم يأتي هذا الحرف بهذه السمة الصوتية متناغما تمام التناغم مع سياق هذه السورة ومقامها وغرضها البلاغي.

وثمة مظاهر أخر للتكرار الصوتي في هذه السورة الكريمة تتمثل في تكرار الحركات وتواليها في كلمات هذه السورة كما في تكرار الضم (**النُذُر _ نُكُر _ الزُبُر _ الدُبُر _ سُعُر _ دُسُر**) وكما في تكرار الفتح وتواليه في (**القمر _ عقر _ سحر_ شكر _ أمر _ سقر _ قدر _ نهر**)

كما تبدو مظاهر التكرار الصوتي كذلك في تكرر بعض حروف هذه السورة إما بصورة متتابعة كما في تكرار السين في (**مسّ سقر**) أو بصورة منفصلة كما في تكرار السين في (**نحس مستمر**)

ويمكننا أن نقف هنا عند بعض مظاهر هذا التكرار لتأمل ما فيه من الأسرار

.

فعلى سبيل المثال في قوله تعالى : ﴿**يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ**﴾ القمر : ٤٨

كمثال لتوالى الحرف وتكراره على التتابع والانفصال معا حيث تكررت السين أربع مرات في (**يسحبون _ مس _ سقر**) وتكررت على التوالي ثلاث مرات في (**مس سقر**) باعتبار الحرف المشدد في (**مس**) كما تكررت حركات الفتح على التوالي في أحرف (**سقر**) وحينما نتأمل السمات الصوتية لحرف السين بماله من طبيعة احتكاكية تبدو واضحة عند النطق به نستشعر مدى مناسبة هذا الصوت الاحتكاكي المهموس لسياق الآية ومعناها حيث يتهكم بالكافرين حينما تأكل النار أجسادهم بمجرد المماسة لها ويأتي حرف السين بما فيه من احتكاك وصفير كأنه حكاية لصوت احتكاك تلك النيران بأجساد هؤلاء الكافرين ، بل إننا لنستشعر عند

النطق بهذه السينات المتتالية في " **مس سقر** " حكاية صوت الشيء الذي يشيط ويحترق عند تسليط النيران عليه ، ويمكن أن تتذوق ذلك بنفسك بتكرار تلك السينات وتأمل هذا المعنى عند النطق بها في هذا السياق .

ويأتي هذا الصوت الاحتكاكي في هذه السينات المتتالية متجاوبا ومتناغما مع صوت الاحتكاك المتجاوب في أول الآية من السين المعبرة أيضا تمام التعبير عن حكاية صوت السحب وما فيه من احتكاك واضح في قوله (**يسحبون**)

ومن ثم يتجاوب الاحتكاك المنبعث في أول هذه الآية مع الاحتكاك المتتابع في آخرها . كما يأتي هذا التتابع للاحتكاك والمس في إذاقة العذاب متجاوبا مع توالي الحركات المفتوحة في **(سقر)** التي تدل كذلك بتكرر حركات الفتح فيها على توالي العذاب ، وسرعة غليان تلك النيران وتقلبها بأهلها فهي تفور بهم كما تفور القدر بالحب ، ومن ثم يأتي توالي الحركات هنا محاكيا تمام المحاكاة لذلك الفوران والغليان . وإذا كنا قد استشعرنا ذلك من توالي حركات الفتح في مثل (**سقر**) فإننا نكاد نستشعر كذلك مدى تلهف هذه النار على التهام أهلها وضمهم إليها في توالي الضم وتكراره في نحو **(سعر)** التي جاءت متجاوبة مع **(سقر)** في قوله تعالى **﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٤٧) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (٤٨)﴾**.

التكرار الصوتي في سورة الحاقة

لن نستطيع الوقوف أمام جميع مظاهر التكرار الصوتي في هذه السورة الكريمة ولكننا سوف نقف فقط أمام بعض هذه المظاهر
فعلى سبيل المثال قوله تعالى في أول السورة **﴿ الْحَاقَّةُ (١) مَا الْحَاقَّةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (٣)﴾**

إذا ما تأملنا الدلالة المعجمية لكلمة الحاقة في ضوء الدلالة الصوتية لها التي تصور شيئا يرفع شيئا فشيئا ثم يوضع فجأة ويقر في نصابه ومكانه الذي يستقر فيه إلى الأبد فإننا نجد أن هذه الدلالة الصوتية قد جاءت متجاوبة تمام التجاوب مع المعنى المعجمي لهذه الكلمة في إحقاق الحق وإعادة الأمور إلى نصابها وإقرار كل شيء في مكانه الصحيح ، ووضع كل عامل في مكانه اللائق به .
ويأتي تكرار كلمة الحاقة بسماتها الصوتية السابق لتأكيد هذا المعنى من كلا الطريقين طريق الدلالة الصوتية وطريق الدلالة المعجمية.

وإذا ما تجاوزنا هذا المعنى الذي ألحت الآيات علي توكيده فإننا نكاد نستشعر معنى آخر وظفت فيه تلك الكلمة بسماتها الصوتية كصوت محض استعمل كخالفة من الخوالف التي تطلق في مقام التنبيه والإفصاح عن مكنون النفوس بطريقة لا شعورية

هي أشبه ما تكون بالصراخ والعويل والنحيب في هذا الموضع الذي نستشعر فيه نبرات حزينة لإنسان يصرخ وينتحب لهول لتلك الساعة الموصوفة بتلك الأوصاف الرهيبة في هذه السورة حيث يتجاوب الإيقاع الصوتي لتلك الأوصاف في فواصل الآيات في (**الحاقة والقارعة والطاغية والعاتية والواقعة ...**) لتأتي تلك الفواصل معبرة عن طريق ما اشتملت عليه من المدود الصوتية المتعددة التي استخدمت كصوت محض يحدث نوعا من الصراخ والعويل والنحيب المخيف من أهوال تلك الواقعة أو أهوال الأخذ الشديد للمكذبين بها .

وثمة ظاهرة صوتية أخرى في هذه السورة يجدر بنا الوقوف عندها قد شاركت في إحداث هذا الإيحاء بالعويل والندب والنحيب في هذه السورة في سياقها من أوله وحتى الآية التاسعة والعشرين فيها كصورة من صور التكرار المطرد .

وهذه الظاهرة هي تكرار الهاء في فواصل هذه الآيات جميعا سواء ما كان أصلها التاء في (**عاتية _ خاوية _ باقية**) أو ما زيدت للسكت عليها في نحو (**كتابيه _ حسابيه _ ماليه _ سلطانيه**) وهي أوقع ، وذلك لأنها تدل على أن السورة قد قصدت قصدا إلي توظيف تلك الهاء بما لها من دلالة صوتية ظاهرة في تلك الآيات نستشعر فيها معنى التحسر والندب والنحيب ولا سيما في هذا المقطع الأخير المعبر تمام التعبير بدلالاته الشتى عن ذلك المعنى في تصويره الحالة النفسية للكافر حينما يلاقي صحائفه السوداء ويوقن بوقوعه في الهلاك والعذاب فيقول :

﴿ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧) مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (٢٩)﴾
الآيات من ٢٥ إلي ٢٩

وإذا كانت الهاء قد وظفت في أغلب فواصل هذه السورة للإيحاء بهذا المعنى معنى التحسر والندم والتفجع والندب والنحيب ؛ فإن الإعجاز الصوتي للقرآن يتجلى في توظيف تلك الهاء نفسها بدلالة مخالفة تمام المخالفة لتلك الدلالة السابقة حيث توحي لنا في سياقها بعكس تلك الدلالة السابقة تماما . وذلك في قوله تعالى :

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤)﴾
الآيات ٢٠ _ ٢٤

إننا نستشعر في النطق بالهاء في هذه الآيات إيحاء بطمأنينة القلب ، وقرار العين والنفس ، وبلهنية العيش ونعومته ، وسكونه وهدوئه ، ويساعد على إبراز هذا المعنى ما للهاء من سمات الهمس والرقة .

وإذا كنا قد تحدثنا عن دلالة المد بالألف في الفواصل السابقة فيمكننا الوقوف كذلك عند دلالة المد بالواو في قوله تعالى **﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢)﴾** الآيات ٣٠ _ ٣٢

حيث نستشعر في تلك الآيات قيمة المد في إبراز مدى المبالغة بالأمر بتعذيب هذا الكافر وأخذه ، كأنه قال خذوه أخذا شديدا ، وغلوه غلا وثيقا ، ثم صلوه تصلية أليمة ، واسلكوه في تلك السلاسل سلكا دقيقا كما يوحي هذا المد كذلك بحالة الشدة وهيئة البطش وجبروت الانتقام التي يكون عليها هذا الآمر بالعذاب في ذلك اليوم الشديد .

التكرار الصوتي في سورة ق

من المظاهر الواضحة للتكرار الصوتي في سورة "ق" تكرار سمة القلقلة في فواصل هذه السورة عدا عدة مواضع تم العدول فيها عن هذه السمة الصوتية لغرض بلاغي .
ومن المعلوم أن السمات الصوتية المصاحبة لحروف القلقلة هي الانفجار بماله من دوي وقلقلة واهتزاز . وبتأمل سياق السورة نجد أنها تعالج ما عليه نفوس هؤلاء المشركين من شك وتكذيب واهتزاز وتقلب في أمر العقيدة ، وقد عبرت السورة عن هذا الاهتزاز والتقلب معجميا بقوله تعالى **﴿فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾** آية (٥). وتواجه السورة ذلك الشك والافتراء والاهتزاز والتقلب في أمر العقيدة بالآيات الكونية الثابتة الشامخة ، وبمشاهد القيامة المروعة بما تحدثه من دوى وانفجار هائل يهز كيان الكون ويقلب أوضاعه ويقلق كل ثابت ويحرك كل شيء في هذا الكون .

ومن هنا تأتي حروف القلقلة بسماتها الصوتية السابقة متسقة مع سياق الآيات تمام الاتساق سواء على مستوى الغرض الأول وهو التعبير عن افتراء الكافرين وتقلبهم في أمر العقيدة وتكذيبهم بالبينات وقوارع التخويف[١٣٠].

فعلى مستوى الغرض الأول تأتي القلقلة في (**عجيب**) آية (٢) لتعبر عن القلق والاستغراب والتعجب والشك والافتراء في أمر العقيدة وكذلك الفاصلة التالية

---

(١٣٠) هذه المواضع هي (حفيظ) آية (٤) ، (محيص) آية (٣٦)، (المصير) و(يسير) آية (٤٣)، (٤٤) وقد بينت سبب العدول الصوتي فيها في بحث العدول الصوتي.

(بعيد) آية (٣) و**(قريب)** آية (٢٥) لتعبر عن استبعاد هذا الأمر بما يصاحبه من اهتزاز وشك ، وتقلب في وصف ما جاء به النبي **(صلى الله عليه وسلم)** بأنه شاعر أو ساحر أو كاهن أو غير ذلك من الصور المختلفة المعبرة عن استبعاد صفة النبوة عنه واستبعاد التصديق بالبعث والنشور والحساب والجزاء الذي ينذر به . ولذا تأتي الفاصلة رقم (٥) لتقرر أنهم في أمر **(مريج)** وتأتي دلالة القلقلة في هذه الفاصلة كذلك متآزرة تماما مع دلالة ذلك المرج والتقلب في اعتقاد المشركين فيما جاء به النبي **(صلى الله عليه وسلم)**

أما على مستوى الغرض الثاني فتأتي حروف القلقلة في فواصل السورة معبرة تمام التعبير عن الانفجار الشديد الهائل الذي يقلقل كل شيء **﴿يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ (٤١) يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ (٤٢)﴾** ومع مناسبة القلقلة والانفجار لهذين الغرضين والمعنيين على العموم في سياق الآيات فإننا نكاد نستشعر للقلقلة معنى خاصا في كل فاصلة يتجاوب مع معنى الآية التي ورد فيها بخلاف ذلك المعنى العام .

فمن ذلك قوله تعالى : **﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾** ق(٧)

حيث يأتي معنى القلقلة هنا متجاوبا مع تلألؤ أزواج النبات واهتزازها بهجة ، كأنها من ابتهاج الناظر إليها والرائي لها تهتز في عينيه

كما نجد أن هذه الفاصلة قد وظفت لعكس المعنى السابق وهو الاهتزاز والقلق والتقلب لتعطى معنى الثبات والاستقرار والدوام في قوله تعالى

﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨)﴾
حيث تأتي دلالة القلقلة في " **قعيد _ رقيب _ عتيد** " موظفة بمعنى الثبات واللزوم والاستقرار ، ويأتي تكرار الحرف المقلقل **(الدال)** لتأكيد هذه الدلالة ،وتأتي مناسبته الصوتية لهذا المعنى من جهة أن قلقلة هذا الحرف عند نطقه تعطى ما يشبه بالاتكاء عليه ولزوم موضع النطق به وثباته حينا قبل حدوث الانفجار بالنطق به ، ويأتي هذا الاتكاء واللزوم والثبات المصاحب لنطق الحرف متسقا تمام الاتساق مع ثبات القرين ولزومه للعبد وقعوده منه مقعدا لا يزول عنه ولا يحول

وقد وظفت القلقلة بنحو هذا المعنى في العديد من فواصل السورة في التعبير عن صور الثبات والخلود في هذا اليوم المشهود يوم الوعيد وذلك كما في الفواصل **(الوعيد)** مكررة في (١٤)، (٢٠)، (٢٨) ، (٤٥) وكما في **(الخلود)** (٣٤) ، **(مزيد)**(٣٥) ، **(قريب)** (٤١) وأشباهها .

الفصل الثاني
الإعجاز الأسلوبي
في الدلالة المعجمية

لعل هذا النوع من الإعجاز يعد أبرز أنواع الإعجاز على الإطلاق ؛ ولذا فقد توفرت عليه الدراسات حول إعجاز القرآن الكريم – في القديم والحديث.

ونقصد به :

دقّة اختيار القرآن الكريم لألفاظه ذات الدلالة المعجمية المطابقة لسياقها ومقامها أتم المطابقة ؛ بحيث لا يصلح أن تحلَّ كلمة مكان تلك الكلمة القرآنية المختارة لسياقها.

ومن أهم مظاهره :

١- اتساع الدلالة من خلال المشترك اللفظي
٢- اتساع الدلالة من خلال المتواطئ
٣- اتساع الدلالة من خلال الجمع بين الحقيقة أو المجاز
٤- اتساع الدلالة من خلال الجمع بين المعنيين اللغوي و الشرعي.

٥- اتساع الدلالة من خلال جوامع الكلم

وسوف أعرض هنا لكل واحدة من هذه الظواهر بشيء من التفصيل :

١- اتساع الدلالة من خلال المشترك اللفظي :

الاشتراك بين الألفاظ واقع في لغة العرب بما لا ينكره من له أدنى اطلاع على لغتهم ، وذلك كما في لفظ (العين – الجون – الشفق – القرء - عسعس ...الخ)[131]

---

(١٣١) اختلف الأصوليون في إمكان وقوع المشترك فأوجبه قوم، لوجهين:

"الأول: أن المعاني غير متناهية، والألفاظ متناهية فإذا وزّع لزم الاشتراك ورُدَّ- بعد تسليم المقدّمتين- بأن المقصود بالوضع متناهٍ.

والثاني: أنَّ الوجود يطلق على الواجب والممكن، ووجود الشيء عينه.

ورد بأن الوجود زايد مشترك، فإن سُلّم: فوقوعه لا يقتضي وجوبه.

وأحاله آخرون؛ لأنه لا يفهم الغرض فيكون مفسدة. ونوقض بـ: أسماء الأجناس.

والمختار: إمكانه؛ لجواز أن يقع من واضعين، أو واحد لغرض الإبهام حيث يصير التصريح سببًا للمفسدة.

ووقوعه للتردد في المراد من "القرء" ونحوه، ووقع في القرآن العظيم مثل: (ثلاثة قُرُوءٍ) البقرة:٢٢٨.

(وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ) التكوير:١٧" شرح المنهاج للبيضاوي في علم الأصول- تحقيق د/عبدالكريم بن

"وإذا عرف وقوع الاشتراك لغة فهو أيضاً واقع في كلام الله تعالى والدليل عليه قوله تعالى: " والليل إذا عسعس " فإنه مشترك بين إقبال الليل وإدباره وهما ضدان هكذا ذكره صاحب الصحاح.(١٣٢)

علي بن محمد النملة- ط.مكتبة الرشد- الرياض- الأولى- ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.- (٢٠٨/١).

وقال الآمدي: "اختلف الناس في اللفظ المشترك، هل له وجود في اللغة فأثبته قوم ونفاه آخرون، والمختار جوازه ووقوعه" الإحكام- (٢٤/١). الآمدي (سيف الدين أبي الحسن علي بن أبي علي بن محمد) - الإحكام في أصول الأحكام - دققها جماعة من العلماء- ط دار الحديث.

ثم أطال في توجيه الجواز كعادته في توجيه ما يذهب إليه.

وقد عرض الرازي في محصوله الخلاف في وقوعه وأطال فيه على عادته كذلك : المحصول في علم الأصول للفقه - تـ٦٠٦هـ- تحقيق د/طه جابر فياض العلواني- ط جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية- السعودية- الأولى ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.(٣٦٠/١-٣٦٦).

ثم قال: "والأغلب على الظن وقوع المشترك" ومال إلى القول بوقوعه أكثر الأصوليين . انظر د/ النملة د/عبدالكريم بن علي بن محمد النملة - إتحاف ذوي البصائر بشرح روضة الناظر - ط مكتبة الرشد- الرياض- الأولى- (١٤٢٢هـ-٢٠٠١م)- (١٧٨/١)، و الشوكانى(محمد بن على)إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول- محمد بن علي بن محمد الشوكاني- ط دار المعرفة- بيروت- لبنان.- (١٩-٢٠)، ورد الشوكاني قول من قال: إنه غير واقع في القرآن فأيّد وقوعه في القرآن والسنة، وانظر تحفة المسئول في شرح مختصر منتهى السُّول للرهوني- (٣٠٥/١)، وما بعده، وقد أطال في بيان أدلة وقوعه ثم قال: "ووقع في القرآن على الأصح" وأطال في بيانه- (٣١٣/١)، والقول بوقوعه هو ظاهر كلام الشيرازي في اللمع- (٥-٦)، حيث ذكر أمثلته وتوجيهها، واختاره الأصفهاني في شرح المنهاج- (٢٠٨/١)، السبكي (علي بن عبدالكافي) الإبهاج في شرح المنهاج- وولده تاج الدين عبدالوهاب بن علي السبكي تـ٧٧١هـ- دراسة وتحقيق د/أحمد جمال الزمزمي- د/نور الدين عبدالجبار صغير- ط دار البحوث للدراسات الإسلامية- الإمارات- الأولى ١٤٢٤هـ-٢٠٠٤م- (٦٣٧/٣-٦٤٤)، وأثبت وقوعه في المسوّدة آل تيمية فجاء فيها (والأصل في هذا أن اللفظ المحتمل لشيئين فصاعدًا هو حقيقة في محتملاته- (١٥٠)، وعليه ظاهر الكلام شرح التلويح- (٦٦/١)، وهو الشرح المسمى بالتلويح في كشف حقائق التنقيح لسعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني الشافعي تـ٧٩٢هـ- شرح به تنقيح الأصول لصدر الشريعة عبيدالله بن مسعود البخاري الحنفي تـ٧٤٧هـ، وهو تنقيح لكتاب فخر الإسلام البزدوي مع زيادة مباحث من كتاب المحصول ومباحث ابن الحاجب مع تحقيقات بديعة فصنف هذا الشرح ممزوجًا وسماه التوضيح في حلّ غوامض التنقيح- ط دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان، وانظر من كتب الأصوليين المحدثين: ابن الوزير :أحمد بن محمد بن علي - المصفى في أصول الفقه- تـ ط دار الفكر المعاصر- بيروت- لبنان- الأولى ١٤١٧هـ-١٩٩٦م (٨٨٠)..

(١٣٢) وما يقوله المانع لذلك من أن المشترك إن كان المقصود منه الإفهام فإن وجد معه البيان فهو تطويل من غير فائدة ، وإن لم يوجد فقد فات المقصود ، وإن لم يكن المقصود منه الإفهام فهو عبث وهو قبيح فوجب صيانة كلام الله عنه فهو مبني على الحسن والقبح الذاتي العقلي ." الإحكام في أصول القرآن - (ج ١ / ص ٦)

وهذه قضية كلامية من أصول المعتزلة ، وقد أطال العلماء في بطلانها والرد عليها عموما ، وفي

و" مذهب الشافعي والقاضي أبي بكر أن المشترك نوع من أنواع العموم."(١٣٣)

وقد يقع الاشتراك في كتاب الله تعالى محفوفا بالقرائن الدالة على أحد معنييه أو معانيه ؛ ففي قوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ }"إنْ قِيلَ : مَا وَجْهُ قَوْله تَعَالَى : { بِدَيْنٍ } وَالتَّدَايُنُ لا يَكُونُ إلا بِدَيْنٍ ؟ قِيلَ لَهُ : لأَنَّ قَوْله تَعَالَى { تَدَايَنْتُمْ } لَفْظٌ مُشْتَرَكٌ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مِنْ الدَّيْنِ الَّذِي هُوَ الْجَزَاءُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : { مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ } يَعْنِي يَوْمَ الْجَزَاءِ ، فَيَكُونُ بِمَعْنَى (تَجَازَيْتُمْ) فَأَزَالَ الاشْتِرَاكَ عَنْ اللَّفْظِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : { بِدَيْنٍ } وَقَصَرَهُ عَلَى الْمُعَامَلَةِ بِالدَّيْنِ ؛ وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ عَلَى جِهَةِ التَّأْكِيدِ وَتَمْكِينِ الْمَعْنَى فِي النَّفْسِ."(١٣٤)

ومعلوم أن كونه توكيدا لا ينفي كذلك كونه قرينة محددة لأحد معاني هذا المشترك .

وقد تدق القرينة فلا تكون لفظية ظاهرة ؛ وإنما تكون عقلية تحتاج إلى تدبر واستخراج ؛ فمن ذلك لفظ السفه :في نحو قوله تَعَالَى : **{ فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا }**

" قِيلَ إنَّ أَصْلَ السَّفَهِ الْخِفَّةُ ..وَيُسَمَّى الْجَاهِلُ سَفِيهًا لأَنَّهُ خَفِيفُ الْعَقْلِ نَاقِصُهُ ؛ فَمَعْنَى الْجَهْلِ شَامِلٌ لِجَمِيعِ مَنْ أُطْلِقَ عَلَيْهِ اسْمُ السَّفِيهِ .

وَالسَّفِيهُ فِي أَمْرِ الدِّينِ هُوَ الْجَاهِلُ فِيهِ ، وَالسَّفِيهُ فِي الْمَالِ هُوَ الْجَاهِلُ لِحِفْظِهِ وَتَدْبِيرِهِ ، وَالنِّسَاءُ وَالصِّبْيَانُ أُطْلِقَ عَلَيْهِمْ اسْمُ السُّفَهَاءِ لِجَهْلِهِمْ وَنُقْصَانِ تَمْيِيزِهِمْ ، وَالسَّفِيهُ فِي رَأْيِهِ الْجَاهِلُ فِيهِ وَالْبَذِيُّ اللِّسَانِ يُسَمَّى سَفِيهًا لأَنَّهُ لا يَكَادُ يُتَّفِقُ إلا فِي جُهَّالِ النَّاسِ وَمَنْ كَانَ خَفِيفَ الْعَقْلِ مِنْهُمْ .

وَإِذَا كَانَ اسْمُ السَّفِيهِ يَنْتَظِمُ هَذِهِ الْوُجُوهَ رَجَعْنَا إلَى مُقْتَضَى لَفْظِ الآيَةِ فِي قَوْله تَعَالَى : { فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا } فَاحْتَمَلَ أَنْ يُرِيدَ بِهِ الْجَهْلَ بِإِمْلاءِ الشَّرْطِ وَإِنْ كَانَ عَاقِلا مُمَيِّزًا غَيْرَ مُبَذِّرٍ وَلا مُفْسِدٍ ..، وَيَكُونُ ذَلِكَ أَوْلَى بِمَعْنَى الآيَةِ ...لأَنَّ الْجَهْلَ يُسَمَّى سَفَهًا وَاَللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ ."(١٣٥)

هذه النقطة خصوصا . السابق

(١٣٣) السابق ، وانظر بعض ما جاء من المشترك في القرآن كلفظ (القرء) واختلاف المفسرين في ترجيح أحد معنييه (الحيض والطهر) أحكام القرآن للجصاص - (ج ٢ / ص ٣٦٣)

(١٣٤) أحكام القرآن للجصاص - (ج ٣ / ص ٢١٨)

(١٣٥) أحكام القرآن للجصاص - (ج ٣ / ص ٢٣٥- ٢٣٧)

وقد يؤتى باللفظ المشترك لغرض بلاغي أو نكتة جمالية كما في قوله تعالى : "وَلا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إلا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلا" النساء :(٢٢) فلفظ (فاحشة): "يَحْتَمِلُ أَنْ يُرِيدَ بِهِ أَنَّ مَا كَانَ مِنْهُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَهُوَ فَاحِشَةٌ فَلا تَفْعَلُوا مِثْلَهُ ، وَهَذَا لا يَكُونُ إلا بَعْدَ قِيَامِ حُجَّةِ السَّمْعِ عَلَيْهِمْ بِتَحْرِيمِهِ ،...وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : {وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلا } .. الْفَاحِشَةُ لَفْظٌ مُشْتَرَكٌ يَقَعُ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الْمَحْظُورَاتِ ، وَقَدْ رُوِيَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : { إلا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ } أَنَّ خُرُوجَهَا مِنْ بَيْتِهِ فَاحِشَةٌ .

وَرُوِيَ أَنَّ الْفَاحِشَةَ فِي ذَلِكَ أَنْ تَسْتَطِيلَ بِلِسَانِهَا عَلَى أَهْلِ زَوْجِهَا ، وَقِيلَ فِيهَا : إنَّهَا الزِّنَا .

فَالْفَاحِشَةُ اسْمٌ يَتَنَاوَلُ مُوَاقَعَةَ الْمَحْظُورِ ، وَلَيْسَ يَخْتَصُّ بِالزِّنَا دُونَ غَيْرِهِ حَتَّى إذَا أُطْلِقَ فِيهِ اسْمُ الْفَاحِشَةِ كَانَ زِنًا ، وَمَا كَانَ مِنْ وَطْءٍ عَنْ عَقْدٍ فَاسِدٍ فَإِنَّهُ لا يُسَمَّى زِنًا "[١٣٦]

ومع أن أنكحة الجاهلية الفاسدة لا تسمى زنا ؛ فقد سماها الله تعالى فاحشة ، وهي مما يسمى به الزنا تقبيحا لذلك الفعل وتنفيرا منه ، فأتى باللفظ المشترك تحقيقا لذلك الغرض البلاغي .

- ومن ذلك أيضا كلمة (عسعس) ، و(قسورة) ، و(ريع) ،و (آية)...إلخ ونحو ذلك .
- فكلمة (عسعس) في قوله تعالى :" وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ "[١٣٧]تأتي بمعنى الإقبال والإدبار ، "عن مجاهد قوله:(وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ) قال: إقباله، ويقال: إدباره".[١٣٨]

و لا شك أن كلا من إقبال الليل وإدباره ساعتان شريفتان ، وآيتان عظيمتان دالتان على قدرة الله تعالى ؛ فلذا فقد أقسم بهما تنويها بشأنهما ، وتعظيم النبي ﷺ لهاتين الساعتين بالذكر والصلاة والتسبيح ثابت بنصوص كثيرة ليس هنا محل دكرها ؛ لذا فلا يبعد أن يراد بالقسم كلا من هاتين الساعتين الشريفتين ن وسياق الكلام يساعده ولا يعارضه .

---

(١٣٦) أحكام القرآن للجصاص - (ج ٤ / ص ٢١٦)

(١٣٧) (التكوير:١٧)

(١٣٨) انظر تفسير الطبري للآية ، وقد ذكر ذلك المعنى صاحب الصحاح وغيره كما سبق ذكره.
الجوهرى (إسماعيل بن حماد)الصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية- تحقيق أحمد عبد الغفور عطار- دار الكتاب العربى

- وكذلك لفظ (قسورة) في قوله تعالى : "**فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ**"[139]

ذكر ابن جرير الاختلاف فيها ؛ فمنهم من قال: الرماة ومنهم من قال هو الأسد.[140]

والسياق لا ينفي أحد المعنيين بل يحتملهما جميعا ؛ فالحمر بلا شك تفر من الرماة كما تفر من الأسد ؛ فقد أثبت لها الفرار من كل من يشمله اسم القسورة ، ويؤيد ذلك مجيء قسورة منكرة .

ولا شك أن ذلك مما يزداد به المعنى جمالا وقوة فهذه الحمر المضروبة مثلا للكافر المعرض تفر من كل من تعرض لها أشد الفرار ؛ إذ تستشعر فيه خطرا داهما عليها ؛ وكذلك هؤلاء الكافرون المعرضون يحسبون كل متعرض لهم بالدعوة إلى الله خطرا داهما ، وشرًا محدقا ، وذلك لكون ما يأتي به من الهدى معارضا أهواءهم أتم المعارضة .

- ومن ذلك قوله تعالى :{ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تعبثون}:" عن مجاهد : " قال: "شرف ومنظر"...وعن قتادة.. قال: "بكلّ طريق".[141]

فعلى ذلك فكلمة (ريع) من المشترك اللفظي ؛ إذ تعني الطريق أو الشرف وهو الموضع العالي أو المنظر ، ولا مانع من اجتماع تلك المعاني جميعا ؛ حيث لا يأباها السياق ، وهذه هي العادة في اتخاذ الآيات التي يتباهى بها أصحاب الحضارات ؛ إذ ينخيرون لها موضعا مستشرفا للأعين ، ذي منظر حسن ، في طريق الناس حتى تقع الأعين على تلك الآية التي يتباهون بها .

وكذلك كلمة { آيَةً } قيل :"أي: معلما بناء مشهورًا"[142]

وقيل :"الآية هي الدلالة والعلامة"[143]

فعلى ذلك فهي من المشترك اللفظي كذلك ، والسياق محتمل لهذه المعاني جميعها ؛ فهم يتخذون ذلك الأثر لكي يكون دلالة على قوتهم ، وعلامة على حضارتهم ن أو

---

(١٣٩) (المدثر:٥١)

(١٤٠) تفسير الطبري - (ج ٢٤ / ص ٤٠)

(١٤١) تفسير الطبري - (ج ١٩ / ص ٣٧٤)

(١٤٢) تفسير ابن كثير - (ج ٦ / ص ١٥٢)

(١٤٣) تفسير الطبري - (ج ١٩ / ص ٣٧٤)

على مدينتهم ؛ بحيث تعرف به وتعلم به وتشهر به ، فيجتمع فيه كلُّ هذه المعاني أنه معلم وبناء مشهور ودلالة وعلامة .

وفي هذا كله تأكيد لتلك السمة الأسلوبية من سمات إعجاز القرآن الكريم ، ألا وهي سمة الاتساع في المعاني بوسائل وطرق شتى .

٢- اتساع الدلالة من خلال المتواطئ :

يفرق الأصوليون بين المشترك والمتواطئ وذلك أن "اللفظ المشترك هو اللفظ الواحد الموضوع لعدة معان وضعًا أولا"[١٤٤].

---

(١٤٤) انظر شرح المختصر للأصفهاني- (١٦٣/١)، والمحصول للرازي- (٣٥٩) وقد جاء فيه: "اللفظ المشترك هو: اللفظ الموضوع لحقيقتين مختلفتين أو أكثر وضعًا أولا".

وقوله: "اللفظ" كالجنس يعم المشترك وغيره.

وقوله: "الواحد الموضوع لعدة معان" يخرج عنه الألفاظ المتباينة، والمتواطنة، والمشككة؛ لأنها لم توضع لعدة معان –بل لمعنى واحد، وإن كان ذلك مشتركًا بين الأفراد.

وقوله: "وضعًا أولا" يخرج عنه الألفاظ المنقولة والمجازية؛ فإنها وإن كانت موضوعة فلعدة معان ولكن لا وضعًا أولا" شمس الدين محمود عبدالرحمن الأصفهاني: شرح المنهاج للبيضاوي في علم الأصول- مكتبة الرشد- الرياض- (٢٠٩/١).

وقد ورد في شرح التعريف بعض ما يتداخل مع المشترك كالمتواطئ والمتباين كما قد يقارن بينه وبين المترادف لكونه عكسه، أو المجاز لكونه مما يلتبس به، ويفرق بينهما من جهة الوضع وعدمه، لذا نزيد هذا التعريف إيضاحًا فنقول:

"ينقسم اللفظ المفرد من حيث اللفظ والمعنى الدال عليه إلى سبعة أقسام:

١-المنفرد: وهو أن يتوحد اللفظ ويتوحد المعنى مثل لفظ "الله" فإن لفظه واحد ومعناه أي مدلوله واحد.

٢-المشترك: وهو أن يكون اللفظ واحدًا والمعاني متعددة مثل لفظ "العين" فهو يدل على معانٍ متعددة منها: العين الباصرة، والعين الجارية، والذهب، والجاسوس، ومثل لفظ "القرء" فهو يدل على الطهر وعلى الحيضة.

٣-المتواطئ: سبق تعريفه وذكر حدّه في متن البحث .

٤-المترادف: وهو أن يتعدد اللفظ ويكون المعنى واحدًا مثل: الليث الهزبر، والوَرد، فهي تدل على معنى واحد وهو الحيوان المسمى بالأسد، ومثل: الصلهب والشوذب تدل على الطويل.

٥-المتباين: وهو ما تعدد لفظه وتعدد معناه مثل: الأبيض والأسود، ومثل الوجود والعدم، ومثل السماء والأرض، ومثل الرجل والمرأة، ومثل أسد، محمد، كتاب.

وهو أغلب ألفاظ اللغة.

أما المتواطئ: فهو لفظ يطلق على أشياء متغايرة ولكنها متفقة في المعنى الذي وضع اللفظ له مثل لفظ "لون" فالسواد لون، والبياض لون، والحمرة لون.

ومثل لفظ "رجل" التي تطلق على: زيد وعمرو ومحمد و...

ومثل لفظ "جسم" فهي تطلق على السماء والأرض، والإنسان، والحيوان، وعلى كل شيء له ثقل ويشغل حيز.

فقوله تعالى: (**سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ...**) الحديد:١.

٦-الحقيقة: الحقيقة هي اللفظ المستعمل فيما وضع له أولا في اللغة. مثل لفظ "الأسد" إذا استعمل ليدل على الحيوان المفترس كقولك: رأيت أسدًا ضخمًا في حديقة الحيوانات.

والحقيقة اللغوية تقسم إلى قسمين:

أ-الحقيقة اللغوية الوضعية:

وهي اللفظ الذي وضعه أهل اللغة ابتداءً للمعنى مثل لفظ "رجل" للذكر البالغ، ومثل لفظ "أسد" للحيوان المفترس.

ب-الحقيقة اللغوية المنقولة:

وهي اللفظ الذي وضعه أهل اللغة ابتداءً لمعنى، ثم نقله أهل اللغة أو الشرع إلى معنى آخر، وبذلك يكون إما حقيقة لغوية عرفية، وإما حقيقة لغوية شرعية.

٧-المجاز: هو اللفظ المستعمل في غير ما وضع له أولاً في اللغة بقرينة تمنع إرادة الحقيقة. فاللفظ قد يستعمل على الحقيقة وقد يستعمل على المجاز بقرينة، مثل لفظ "رقبة" في قوله تعالى: (فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ) النساء:٩٢.

فهي استعملت على سبيل المجاز لتدل على "عبد مملوك" فأطلق عليه رقبة، لأنها جزء من العبد، فتكون العلاقة هي الجزئية. ومثل: رأيت أسدًا يقود الجيش، فلفظ "أسد" استعمل على سبيل المجاز وذلك لعلاقة المشابهة في الشجاعة بين الرجل الشجاع والأسد. ومثل قوله تعالى: (إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا) يوسف:٣٦ ، فكلمة خمر استعملت مجازًا، فالذي يعصر العنب وليس الخمر، فاستعملت "خمرًا" مجازًا لتدل على العنب لعلاقة ما سيكون عليه العنب.

والعلاقات والقرائن التي تدل على أن اللفظ استعمل مجازًا أي استعمل في غير ما وضع له أولا، هذه العلاقات والقرائن متعددة ومتنوعة تناولها علماء اللغة والبلاغة بالبحث والتفصيل، فمن أراد الإلمام بها فليرجع إليها في مظانها . انظر : محمد حسين عبدالله - الواضح في أصول الفقه- ط دار البيارق- الثانية ١٤١٦هـ-١٩٩٥م.

- (٣٥٥-٣٥٨)، وانظر اتحاف ذوي البصائر بشرح روضة الناظر- (١/١٧٠-١٩٦).وانظر في حدَّي الحقيقة والمجاز وبيانهما تفصيلا : ما جاء في مبحث الحقيقة والمجاز في شروح التلخيص تحقيق د/ عبد الحميد هنداوي – طبعة المكتبة العصرية – بيروت .

ورد فيه لفظ متواطئ يدل على العموم وهو لفظ "ما" فإنها تعني الإنسان، والملائكة والحيوان والجماد... فاللفظ المتواطئ من ألفاظ العموم.[١٤٥]

فمِثَالُ المتواطيء مَا نُقِلَ فِي قَوْلِهِ تعالى : "ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ"[١٤٦]؛ فَمَعْلُومٌ أَنَّ كُلَّ واحد من هذه الأقسام يتناول أصنافا كثيرة ، الظَّالِمَ لِنَفْسِهِ يَتَنَاوَلُ الْمُضَيِّعَ لِلْوَاجِبَاتِ وَالْمُنْتَهِكَ لِلْمُحَرَّمَاتِ.
وَالْمُقْتَصِدُ يَتَنَاوَلُ فَاعِلَ الْوَاجِبَاتِ وَتَارِكَ الْمُحَرَّمَاتِ ، وَالسَّابِقُ يَدْخُلُ فِيهِ مَنْ سَبَقَ فَتَقَرَّبَ بِالْحَسَنَاتِ مَعَ الْوَاجِبَاتِ..[١٤٧]
وترجع قيمته الجمالية - في الغالب – إلى ما فيه من إيجاز بالإجمال المغني عن التفصيل بأفراد ما أجمل لشيوع العلم بها .
فمن أمثلته أيضا قَوْله تَعَالَى : { فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ }" قَدْ تَضَمَّنَ الأَمْرَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَذِكْرُنَا إِيَّاهُ عَلَى وُجُوهٍ .

وَقَدْ رُوِيَ فِيهِ أَقَاوِيلُ عَنْ السَّلَفِ ، قِيلَ فِيهِ : اُذْكُرُونِي بِطَاعَتِي أَذْكُرْكُمْ بِرَحْمَتِي " ، وَقِيلَ فِيهِ : " اُذْكُرُونِي بِالثَّنَاءِ بِالنِّعْمَةِ أَذْكُرْكُمْ بِالثَّنَاءِ بِالطَّاعَةِ " وَقِيلَ : اُذْكُرُونِي بِالشُّكْرِ أَذْكُرْكُمْ بِالثَّوَابِ " وَقِيلَ فِيهِ : " اُذْكُرُونِي بِالدُّعَاءِ أَذْكُرْكُمْ بِالإِجَابَةِ " .

وَاللَّفْظُ مُحْتَمِلٌ لِهَذِهِ الْمَعَانِي ، وَجَمِيعُهَا مُرَادُ اللَّهِ تَعَالَى لِشُمُولِ اللَّفْظِ وَاحْتِمَالِهِ إيَّاهُ."[١٤٨]

---

(١٤٥) انظر:اتحاف ذوي البصائر بشرح روضة الناظر- (١/١٧٠-١٩٦)وانظر:الواضح في أصول الفقه- (٣٥٥-٣٥٨) .و"قد ظن في أشياء أنها مشتركة وهي متواطئة وفي أشياء أنها متواطئة وهي مشتركة أما الأول فكقولنا مبدأ للنقطة والآن ؛فإنه لما اختلف الموضوع المنسوب إليه وهو الزمان والخط ظن الاشتراك في اسم المبدأ وليس كذلك فإن إطلاق اسم المبدأ عليهما إنما كان بالنظر إلى أن كل واحد منهما أول لشيء لا من حيث هو أول للزمان أو الخط وهو من هذا الوجه متواطئ وليس بمشترك.

وأما الثاني فكقولنا خمري للون الشبيه بلون الخمر وللعنب باعتبار أنه يؤول إلى الخمر ،وللدواء إذا كان يسكر كالخمر أو أن الخمر جزء منه ؛فإنه لما اتحد المنسوب إليه وهو الخمر ظن أنه متواطئ وليس كذلك فإن اسم الخمري وإن اتحد المنسوب إليه إنما كان بسبب النسب المختلفة إليه ،ومع الاختلاف فلا تواطؤ .نعم لو أطلق اسم الخمري في هذه الصور باعتبار ما وقع به الاشتراك من عموم النسبة وقطع النظر عن خصوصياتها كان متواطئاً." الإحكام في أصول القرآن - (ج ١ / ص ٦)

(١٤٦) - فاطر :٣٢

(١٤٧) - انظر مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية ٣٢-٣٣ بتصرف يسير .

(١٤٨) أحكام القرآن للجصاص –وفيه : فَإِنْ قِيلَ : لا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْجَمِيعُ مُرَادَ اللَّهِ تَعَالَى بِلَفْظٍ وَاحِدٍ ؛ لأَنَّهُ لَفْظٌ مُشْتَرَكٌ لِمَعَانٍ مُخْتَلِفَةٍ قِيلَ لَهُ : لَيْسَ كَذَلِكَ ؛ لأَنَّ جَمِيعَ وُجُوهِ الذِّكْرِ عَلَى

ولا شك أن استخدام لفظ الذكر ونحوه مجملا فيما يعرف تفصيله بالتفكر والتأمل - ولا يرتاب في معرفته – فيه من الإيجاز واختصار الكلام ما هو بأعلى المنازل من البلاغة والفصاحة ، حتى قالوا : "البلاغة الإيجاز "[١٤٩].

ونحوه ما جاء في تفسير قوله تعالى :"وإذا النُّفوسُ زُوِّجَتْ "فقد ورد فيه أربعة تأويلات :

أحدها : يعني عُمل بهن عملٌ مثل عملها ، فيحشر العامل بالخير مع العامل بالخير إلى الجنة ، ويحشر العامل بالشر مع العامل بالشر إلى النار ، قاله عطية العوفي : حين يكون الناس أزواجاً ثلاثة .

الثاني : يزوج كل رجل نظيره من النساء فإن من أهل الجنة زوّج بامرأة من اهل الجنة ، وإن كان من أهل النار زوّج بامرأة من أهل النار ، قاله عمر بن الخطاب ، ثم قرأ :{ احْشُروا الذين ظلموا وأزواجهم } الثالث : معناه ردّت الأرواح إلى الأجساد ، فزوجت بها أي صارت لها زوجاً ، قاله عكرمة والشعبي . الرابع : أنه قرن كل غاو بمن أغواه من شيطان أو إنسان ، حكاه ابن عيسى .ويحتمل خامساً : زوجت بأن أضيف إلى كل نفس جزاء عملها ، فصار لاختصاصها به كالتزويج."[١٥٠]

وهذه المعاني كلها تنتسب إلى الكلمة بنسبة واحدة ؛ إذ إن كلُّ ذلك يعد تزويجا ؛ فهي إذا من المتواطئ ، وحمل الكلمة على كل هذه المعاني لا يأباه السياق بل يؤيده ويقويه

اخْتِلَافِهَا رَاجِعَةٌ إلَى مَعْنًى وَاحِدٍ .

فَهُوَ كَاسْمِ الإنسَانِ يَتَنَاوَلُ الأنثى وَالذَّكَرَ ، وَالأخُوَّةُ تَتَنَاوَلُ الإخوَةَ الْمُتَفَرِّقِينَ ، وَكَذَلِكَ الشَّرِكَةُ وَنَحْوُهَا ، وَإِنْ وَقَعَ عَلَى مَعَانٍ مُخْتَلِفَةٍ فَإِنَّ الْوَجْهَ الَّذِي سُمِّيَ بِهِ الْجَمِيعُ مَعْنًى وَاحِدٌ .

وَكَذَلِكَ ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى لَمَّا كَانَ الْمَعْنَى فِيهِ طَاعَتَهُ ، وَالطَّاعَةُ تَارَةً بِالذِّكْرِ بِاللِّسَانِ ، وَتَارَةً بِالْعَمَلِ بِالْجَوَارِحِ ، وَتَارَةً بِاعْتِقَادِ الْقَلْبِ ، وَتَارَةً بِالْفِكْرِ فِي دَلَائِلِهِ وَحُجَجِهِ ، وَتَارَةً فِي عَظَمَتِهِ ، وَتَارَةً بِدُعَائِهِ وَمَسْأَلَتِهِ ، جَازَ إرَادَةُ الْجَمِيعِ بِلَفْظٍ وَاحِدٍ ، كَلَفْظِ الطَّاعَةِ نَفْسِهَا جَازَ أَنْ يُرَادَ بِهَا جَمِيعُ الطَّاعَاتِ عَلَى اخْتِلَافِهَا إذَا وَرَدَ الأَمْرُ بِهَا مُطْلَقًا نَحْوُ قَوْلِهِ تَعَالَى : { أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ } وَكَالْمَعْصِيَةِ يَجُوزُ أَنْ يَتَنَاوَلَ جَمِيعَهَا لَفْظُ النَّهْيِ .

فَقَوْلُهُ : { فَاذْكُرُونِي } قَدْ تَضَمَّنَ الأمْرَ بِسَائِرِ وُجُوهِ الذِّكْرِ ، وَمِنْهَا سَائِرُ وُجُوهِ طَاعَتِهِ وَهُوَ أَعَمُّ الذِّكْرِ ، وَمِنْهَا ذِكْرُهُ بِاللِّسَانِ عَلَى وَجْهِ التَّعْظِيمِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ وَالذِّكْرِ عَلَى وَجْهِ الشُّكْرِ وَالاعْتِرَافِ بِنِعَمِهِ . (ج ١ / ص ٢٢٨)

(١٤٩) البيان والتبيين - (ج ١ / ص ٣١) في سؤال معاوية بن أبي سفيان لصُحار بن عَيّاش العبديّ " قال له معاوية: ماتعدُّون البلاغة فيكم؟ قال: الإيجاز، قال له معاوية: وما الإيجاز؟ قال صُحار: أن تُجيب فلا تبطئ، وتقولَ فلا تخطئ"

(١٥٠) النكت والعيون (٣٨٨/٤ - ٣٨٩)

والكلمة بهذه المعاني كشجرة ذات ظلال وأغصان وارفة كلها تمت إليها بصلة ونسبة واحدة .

٣ - اتساع الدلالة من خلال الجمع بين الحقيقة أو المجاز :

من الوجوه التي تتعدد بها الدلالة وتتسع تردد الكلمة بين الحمل على الحقيقة والمجاز ؛ وذلك قد يؤتى به لإرادة الحمل على كلا المعنيين الحقيقي والمجازي طلبا للاتساع في المعنى إذا ما اقتضاه السياق .

وأمثلته عديدة في كتاب الله تعالى ، فمن ذلك :

قوله تعالى :"وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ" (المدثر:٤)

من المفسرين من حملها على الحقيقة ومنهم من حملها على المجاز ، ومنهم من جوز الجمع بينهما :

فقد رجح أبو حيان الحقيقة رغم حكايته للأقوال المرجحة للمجاز [151]

واختار أبو حيان أن "الظاهر أنه أمر بتطهير الثياب من النجاسات ، لأن طهارة الثياب شرط في صحة الصلاة ، ويقبح أن تكون ثياب المؤمن نجسة ، والقول بأنها الثياب حقيقة هو قول ابن سيرين وابن زيد والشافعي"[١٥٢]

ومال الألوسي إلى المجاز فقال:"{ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ } تطهير الثياب كناية عن تطهير النفس عما تذم به من الأفعال وتهذيبها عما يستهجن من الأحوال لأن من لا يرضى بنجاسة ما يماسه كيف يرضى بنجاسة نفسه....

---

(١٥١) قال :"قيل :كناية عن طهارة العمل ، المعنى : وعملك فأصلح ، قاله مجاهد وابن زيد . وقال ابن زيد : إذا كان الرجل خبيث العمل قالوا : فلان خبيث الثياب؛ وإذا كان حسن العمل قالوا : فلان طاهر الثياب ، ونحو هذا عن السدي ، ...، وقيل : كنى عن النفس بالثياب ، قاله ابن عباس . ... وقيل : كنى بها عن الجسم .... وقيل : كناية عن الأهل ، قال تعالى : { هن لباس لكم } والتطهر فيهن اختيار المؤمنات العفائف . وقيل : وطئهن في القبل لا في الدبر ، في الطهر لا في الحيض ، حكاه ابن بحر . وقيل : كناية عن الخلق ، أي وخلقك فحسن ، قاله الحسن والقرطبي ، ومنه قوله :

ويحيى ما يلائم سوء خلق ... ويحيى طاهر الأثواب حر

أي : حسن الأخلاق ." أبو حيان الأندلسي (محمد بن يوسف تـ٧٤٥هـ)تفسير البحر المحيط- تحقيق عادل أحمد عبدالموجود وعلي محمد معوض- ط دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان- الأولى ١٤١٣هـ-١٩٩٣م. - (ج ١٠ / ص ٣٧٨)

(١٥٢) السابق

وكلمات جمهور السلف دائرة على نحو هذا المعنى في هذه الآية الكريمة .

وقيل كني بها عن الجسم كما في قول ليلى وقد ذكرت إبلاً ركبها قوم وذهبوا بها :

رموها بأثواب خفاف فلا نرى ... لها شبهاً إلا النعام المنفرا

وطهارة الجسم قد يراد بها أيضاً نحو ما تقدم . ومناسبة هذه المعاني لمقام الدعوة مما لا غبار عليه.

وقيل على كون تطهير الثياب كناية عما مر يكون ذلك أمراً باستكمال القوة القوة العلمية بعد الأمر باستكمال القوة النظرية والدعاء إليه وقيل إنه أمر له ﷺ بالتخلق بالأخلاق الحسنة .... وقيل الثياب كناية عن النساء "[١٥٣]

ومع ميل الألوسي للمجاز فإن ظاهر كلامه في الآية التالية عدم استبعاد الحقيقة وكأنه يجوز الجمع بينهما قال :"والرجز فاهجر كلام جامع في مكارم الأخلاق كأنه قيل اهجر الجفاء والسفه وكل شيء يقبح ولا تتخلق بأخلاق هؤلاء المشركين وعليه يحتمل أن يكون هذا أمراً بالثبات على تطهير الباطن بعد الأمر بالثبات على تطهير الظاهر بقوله سبحانه { وثيابك فطهر } [المدثر : ٤]"[١٥٤]

حيث حمل { وثيابك فطهر } على تطهير الظاهر ، ولا شك أن أول ما يدخل فيه تطهير الثياب .

أما ابن كثير فقد حكى الأقوال السابقة ثم رجح الجمع بين الحقيقة والمجاز ، فذكر من ذهب إلى المجاز كقول القائل :" لا تلبسها على معصية ولا على غَدْرَة. ثم قال: أما سمعت قول غيلان بن سلمة الثقفي:

فإني بحمد الله لا ثوبَ فاجر ... لبستُ ولا من غَدْرَة أتقَنَّعُ ....

وقال الشاعر :

إذا المرءُ لم يَدْنَس منَ اللؤم عِرْضُه ... فكُلّ رِدَاء يَرْتَديه جَميلُ ...

---

(١٥٣) تفسير الألوسي - (ج ٢١ / ص ٣٩٩)

(١٥٤) تفسير الألوسي - (ج ٢١ / ص ٤٠١)

وقال العوفي ، عن ابن عباس: { وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ } يعني لا تك ثيابك التي تلبس من مكسب غير طائب، ويقال: لا تلبس ثيابك على معصية. "[١٥٥]

ثم ذكر قول من ذهب إلى الحقيقة فقال :

"وقال محمد بن سيرين: { وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ } أي: اغسلها بالماء.

وقال ابن زيد: كان المشركون لا يتطهرون، فأمره الله أن يتطهر، وأن يطهر ثيابه.

وهذا القول اختاره ابن جرير."[١٥٦]

ثم قال :"وقد تشمل الآية جميع ذلك مع طهارة القلب، فإن العرب تطلق الثياب عليه، كما قال امرؤ القيس:

أفاطمَ مَهلا بعض هَذا التَدَلُّل ... وَإن كُنت قَد أزْمَعْت هَجْري فأجْمِلِي ...

وَإن تَكُ قَد سـاءتك مني خَليقَةٌ ... فَسُلّي ثِيَابي مِن ثيابك تَنْسُل

وقال سعيد بن جبير: { وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ } وقلبك ونيتك فطهر."[١٥٧]

والذي نراه أن السياق في هذه السورة الكريمة لا يأبى الجمع بين المعاني المذكورة في هذه الآية سواء منها ما كان حقيقة أو مجازا ؛وذلك لأن الداعي إلى الله ؛ بله أكرم الرسل ينبغي أن يجتمع له صلاح الظاهر والباطن المشتمل على حسن المظهر والمخبر ، فيجمع بين حسن السمت المشتمل على أكمل الهيآت التي ترغب في الإقبال عليه وتحول دون النفرة منه ، مع صلاح الباطن واستقامة الخلق بحيث لا يعثر له على هفوة تكون حجة عليه وعلى دعوته .

ومجيء هذه الكلمة في هذا الموضع محتملة لكل ما ذكر مما يقتضيه السياق ويتسع له هو أبلغ دلالة على إعجاز هذا الكتاب العزيز ، وكونه من لدن حكيم حميد .

ومن ذلك قوله تعالى : " **وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ** "[١٥٨]

---

(١٥٥) تفسير ابن كثير - (ج ٨ / ص ٢٦٢)

(١٥٦) تفسير ابن كثير - (ج ٨ / ص ٢٦٢)

(١٥٧) تفسير ابن كثير - (ج ٨ / ص ٢٦٢)

(١٥٨) (البقرة :١٩٧)

حيث جعل الزاد جنسا يشمل كلا النوعين الحقيقي الحسي المعهود ، أو المجازي المعنوي وهو تقوى الله تعالى ؛ فحمل الزاد على معنييه الحقيقي والمجازي لما في ذلك من اتساع في المعنى يقتضيه السياق والمقام ؛ فإن المقصود هو الاعتدال في الجمع بين الدنيا والآخرة .

٤- اتساع الدلالة من خلال الجمع بين المعنيين اللغوي و الشرعي.

ذهب ابن كثير كذلك في أكثر من موضع إلى جواز الجمع بين المعنى اللغوي والشرعي ما دام السياق محتملا لهما ، وذلك كما في قوله تعالى : { وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ} قال:"الأكثرون على أن المراد بالزكاة هاهنا زكاة الأموال، مع أن هذه الآية مكية، وإنما فرضت الزكاة بالمدينة في سنة اثنتين من الهجرة. والظاهر أن التي فرضت بالمدينة إنما هي ذات الأنصبة والمقادير الخاصة، وإلا فالظاهر أن أصل الزكاة كان واجبًا بمكة، كما قال تعالى في سورة الأنعام، وهي مكية:

{ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ}[١٥٩].

وقد يحتمل أن يكون المراد بالزكاة هاهنا: زكاة النفس من الشرك والدنس، كقوله: { قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا . وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا } [١٦٠] ، وكقوله: { وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ . الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ} [١٦١]، على أحد القولين في تفسيرها."

فقد حكى أقوال المفسرين هنا في معنى الزكاة ، وهي لا تخرج عن معنيين :

١- **المعنى الشرعي :** وهو الزكاة الشرعية (بمعنى إخراج قدر محدود من المال إلى مستحقيها بشروطها)، وهي إما المفروضة على القول المرجوح ؛ لعدم فرضيتها في زمان نزول النص ، وإما بمعنى الصدقة وقد كانت مشروعة آن ذاك .
٢- **المعنى اللغوي :** وهو يرجع في أصله إلى معان منها الطهر والنماء والصلاح [١٦٢]، فكأن المقصود هنا هو تطهير النفس وإصلاحها وتنمية جوانب الخير

---

(١٥٩) الأنعام: ١٤١

(١٦٠) الشمس: ٩، ١٠

(١٦١) فصلت: ٦، ٧

(١٦٢) انظر لسان العرب مادة (زكي)

فيها ، على نحو قوله تعالى : " **قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى**"(١٦٣)،وقوله تعالى :" **قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا** "(١٦٤)

وبعد حكايته للقولين الواردين في هذا الموضع قرر مذهبه في جواز الجمع بين كلا المعنيين اللغوي والشرعي بشرط احتمال السياق لهما فقال :

"وقد يحتمل أن يكون كلا الأمرين مرادا، وهو زكاة النفوس وزكاة الأموال؛ فإنه من جملة زكاة النفوس، والمؤمن الكامل هو الذي يتعاطى هذا وهذا، والله أعلم.(١٦٥)

وقد حكى نحو هذين القولين في قوله تعالى:"وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (٦) الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ "(١٦٦)

والذي ذهب إليه ابن كثير في هذا الموضع من جواز الجمع بين المعنيين اللغوي والشرعي لا غبار عليه ؛ إذ السياق يؤيده لاحتماله كلا المعنيين ؛ وذلك لأن السياق سياق ذكر لجملة من الخصال الحميدة التي اتصف بها المؤمنون ، واستحقوا بها المدح والثناء من الله تعالى ، ووعدهم عليها بالفلاح في مطلع تعداد تلك الصفات حيث بدأ الله تعالى السياق بقوله تعالى : "**قد أفلح المؤمنون** "(١٦٧)

ولا شك أن كلا الصفتين هما من صفات المؤمنين اللتين لا يتحقق فلاحهم إلا بهما ؛ بل إن المتأمل لهاتين الصفتين يلحظ تكاملهما وترابطهما بحيث لا يتصور إحداهما دون الأخرى ؛ وإلا فكيف يتصف بزكاة النفس وصلاحها وطهرها من قسا قلبه فلا يكرم اليتيم ولا يحض على طعام المسكين ، وكيف يرق القلب لإنفاق المال وبذله للغير دون مقابل دنيوي ما لم يكن قلبا زاكيا صالحا ؟!

ولذا فقد ذم الله تعالى المشركين في الآية الأخرى وتوعدهم بالويل بسبب أنهم (لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ) وقد سوغ ابن كثير حملها على المعنيين كذلك ، وهو صحيح لما ذكرناه ؛ فإذا كان المعنيان المذكوران هما سبب فلاح المؤمنين فلا جرم يكونان سبب خسران المشركين والكافرين كذلك ، وقد جمع الله تعالى في وصفهم بين هاتين

---

(١٦٣) الأعلى :١٤

(١٦٤) الشمس : ٩

(١٦٥) تفسير ابن كثير - (ج ٥ / ص ٤٦٢)

(١٦٦) فصلت:٧- تفسير ابن كثير - (ج ٧ / ص ١٦٤)

(١٦٧) المؤمنون :١

الصفتين (زكاة النفس وبذل الصدقة) وبين ترابطهما فقال : "أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (١) فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (٢) وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣)"[١٦٨]

ومما يستشهد به في هذا المقام كذلك لجواز الحمل على المعنيين اللغوي والشرعي قوله تعالى : (وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا):

فقد أورد ابن جرير الأقوال في معنى الآية وحاصلها :

١- قسم حمل الصلاة على المعنى اللغوي وهو الدعاء.
٢- وقسم حملها على المعنى الشرعي المعروف بما تشتمل عليه من قراءة وذكر
٣- وقسم حملها على بعض أجزاء المعنى الشرعي وهو القراءة ؛ فكأنه جعلها من المجاز المرسل ذي العلاقة الجزئية .[١٦٩]

فمما أورده ابن جرير من أقوال السلف في تفسيرها ما ورد "عن عطاء ، قال: يقول ناس إنها في الصلاة، ويقول آخرون إنها في الدعاء."[١٧٠] وبعد استقصائه جميع الأقوال التي سبق ذكر مجملها قال :"فالذي هو أولى وأشبه بقوله(وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا) أن يكون من سبب ما هو في سياقه من الكلام، ما لم يأت بمعنى يوجب صرفه عنه، أو يكون على انصرافه عنه دليل يعلم به الانصراف عما هو في سياقه.

فإذا كان ذلك كذلك، فتأويل الكلام: قل ادعوا الله، أو ادعوا الرحمن، أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى، ولا تجهر يا محمد بقراءتك في صلاتك ودعائك فيها ربك ومسألتك إياه، وذكرك فيها، فيؤذيك بجهرك بذلك المشركون، ولا تخافت بها فلا يسمعها أصحابك(وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلا)"

فنلاحظ أن ابن جرير قد سلك منهجا صائبا حيث احتكم إلى دلالة السياق فرأى أن السياق لا يأبى شيئا من الأقوال الآنفة فجمع بينها جميعا في عبارته السابقة .

٤- اتساع الدلالة باستثمار جوامع الكلم:

وذلك حيث تكون مفردات المعنى أجزاء تتكامل فيما بينها لإنتاج الدلالة الكليّة للكلمة أو الجملة التي ننظر في دلالتها ، وذلك كما في إيثار كلمة مؤمن على نظائرها مثل

---

(١٦٨) الماعون

(١٦٩) تفسير الطبري - (ج ١٧ / ص ٥٨٦)

(١٧٠) تفسير الطبري - (ج ١٧ / ص ٥٨٨)

موقن ومصدق ونحوهما في قوله تعالى : (وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ)[١٧١] ؛حيث تفيد من المعنى ما لا تفيده لو قال : (بمصدِّق لنا ولو كنا صادقين) ، وذلك لأن قوله : (بِمُؤْمِنٍ لَنَا) ، أي : لست مصدِّقًا لنا تصديق يقين واطمئنان وركون لما نقول حتى لو علمتَ أن كلامنا يوافق الواقع ، فلو أنه جاء بلفظة (بمصدِّق) بدل لفظة (بمؤمن)؛ لذهب هذا المعنى ، مع أن اللفظتين تشتركان في معنى التصديق .

فمن ثم نلاحظ أن المعنى هنا يتركب من عدَّة أجزاء هي مفردات الدلالة الكليَّة لهذه الكلمة ؛ ومن ثم فإن دلالة هذه الكلمة (مؤمن) تتركب من هذه المفردات :[مصدِّق – موقن - مطمئن – راكن] فليس إذا ثمة تعدد حقيقي للمعنى ؛ إذ إن معنى الكلمة لا يصدق على كلٍّ واحد من هذه المفردات ؛ بل لا يصدق إلا على مجموعها ، أي : يصدق عليها مجتمعة لا منفردة .

ومن ثم فإن ما يبدو من مثل هذا النوع على أنه من تعدد المعنى ليس تعددا في الحقيقة ، وإنما هذه المفردات المذكورة إنما هي أجزاء المعنى المتركب من تلك الأجزاء ؛ فلأجل ذلك سميته باتساع المعنى أو بالتعدد الشكليِّ في مقابل التعدد الحقيقي .

ومن ذلك قوله تعالى :" يأيها الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ " [١٧٢]

فنلاحظ أن كلمة تستأنسوا هنا تحمل من المعاني والظلال المناسبة لهذا السياق ما لا تؤديه كلمة أخرى من الكلمات التي تعد مرادفة أو - على الأصح – مقاربة لها ، مثل : (تستأذنوا) التي فسرها بها جمع من المفسرين .

"قال بعضهم: تأويله يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأذنوا."[١٧٣]

وقال الألوسي :"{ حتى تَسْتَأْنِسُوا } أي تستأذنوا من يملك الإذن من أصحابها "[١٧٤]

وقال مجاهد: "{ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا } قال: تنحنحوا -أو تَنَخَّموا."[١٧٥]

---

(١٧١) يوسف: ١٧

(١٧٢) النور :٢٧

(١٧٣) تفسير الطبري - (ج ١٩ / ص ١٤٥)

(١٧٤) تفسير الألوسي - (ج ١٣ / ص ٣٩٥)

(١٧٥) تفسير ابن كثير - (ج ٦ / ص ٤٠)

غير أن مقارنة سريعة بين الدلالة المعجمية لكلتا الكلمتين (تستأنسوا – تستأذنوا) - أو الكلمات الأخرى التي فسرت بها الكلمة باعتبارها من لوازم الاستئناس -تبين لنا فضل الكلمة المختارة في الآية الكريمة على ما دونها .

قال الزمخشريّ :"{ تَسْتَأْنِسُوا } فيه وجهان :

أحدهما : أنه من الاستئناس الظاهر الذي هو خلاف الاستيحاش لأن الذي يطرق باب غيره لا يدري أيؤذن له أم لا؟ فهو كالمستوحش من خفاء الحال عليه ، فإذا أذن له استأنس ، فالمعنى : حتى يؤذن لكم كقوله : { لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النبى إِلاَّ أن يُؤْذَنَ لَكُمْ }[176] وهذا من باب الكناية والإرداف؛ لأنّ هذا النوع من الاستئناس يردف الإذن . فوضع موضع الإذن .

والثاني : أن يكون من الاستئناس الذي هو الاستعلام والاستكشاف : استفعال من أنس الشيء إذا أبصره ظاهراً مكشوفاً . والمعنى حتى تستعلموا وتستكشفوا الحال ، هل يراد دخولكم أم لا؟ ومنه قولهم : استأنس هل ترى أحداً ، واستأنست فلم أر أحداً ، أي : تعرفت واستعلمت . ومنه بيت النابغة :

عَلَى مُسْتَأْنِسٍ وَحِدِ ... ويجوز أن يكون من الإنس ، وهو أن يتعرف هل ثمة إنسان؟ وعن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه : قلنا : يا رسول الله ، ما الاستئناس؟ قال : " يتكلم الرجل بالتسبيحة والتكبيرة والتحميدة ويتنحنح : يؤذن أهل البيت . والتسليم أن يقول : السلام عليكم ، أأدخل؟ ثلاث مرات؛ فإن أذن له وإلا رجع "[177]

ويتبين لنا من خلال ما ذكر أن الكلمة تحمل ظلالا كثيرة ،وأنها لا يعوض عنها بكلمة واحدة بل بمجموع كلمات عديدة فهي تحمل معنى الاستئذان والاستعلام والاستكشاف وذلك يحصل بوجوه كالتنحنح والتكبير أو مطلق الذكر والسلام على أهل البيت ونحو ذلك مما يحصل به الأنس وزوال الوحشة بالاطمئنان إلى أن زيارته لأهل هذا البيت مرغوب فيها في ذلك الوقت ، وأنها تحقق الأنس والائتناس بين الطرفين (الزائر

---

(١٧٦) الأحزاب : ٥٣

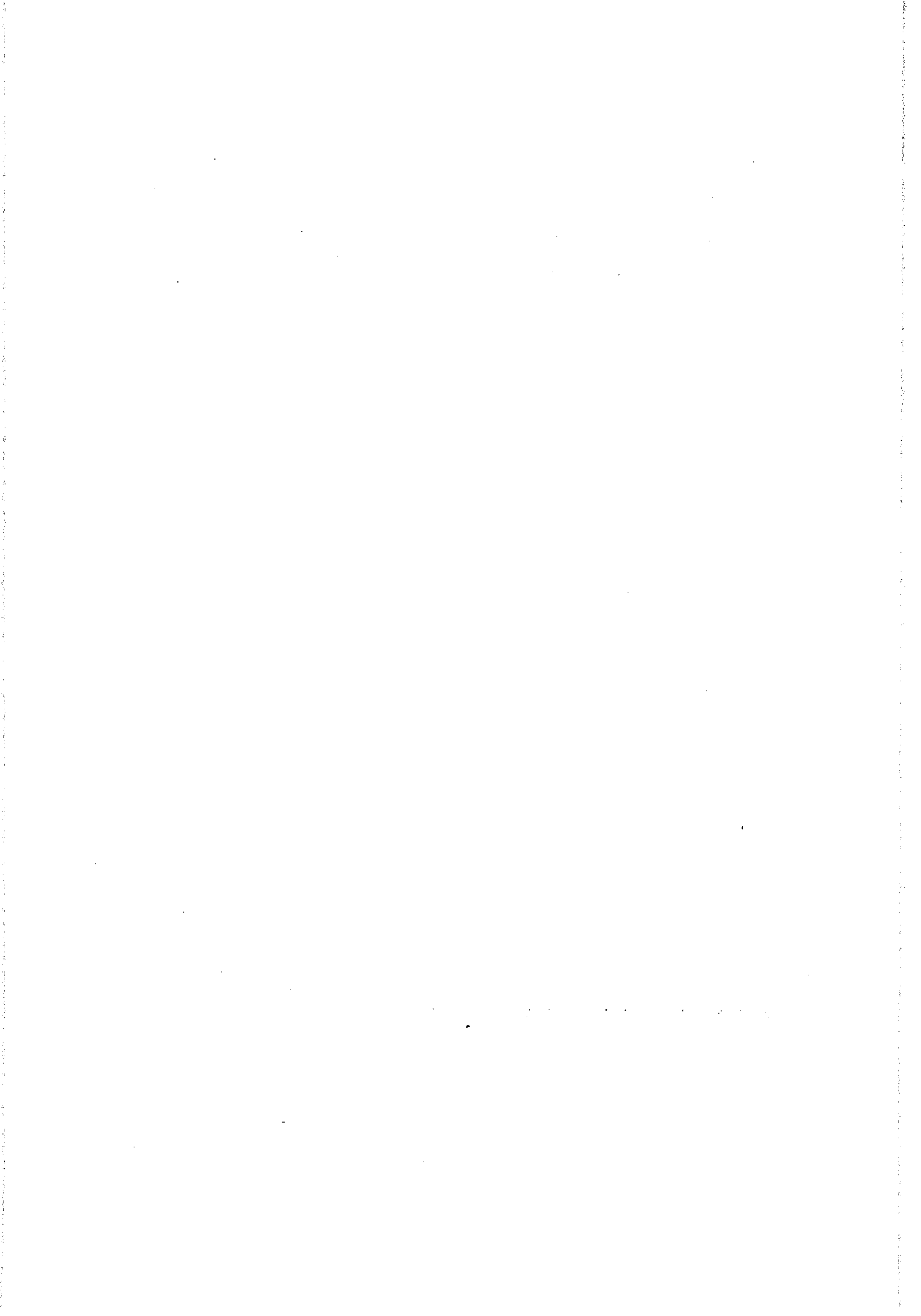
(١٧٧) الزمخشرى (جار الله محمود بن عمر) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل - ط دار المعرفة- بيروت- لبنان- (ج ٤ / ص ٣٩٦) وقد أفاد الرازي من كلام الزمخشري فذكر نحوه في تفسيره : (ج ١١ / ص ٢٩٥) ، وبنحو ما جاء عن المفسرين جاءت تفسيرات اللغويين لهذه الكلمة : انظر : مادة (أنس) على سبيل المثال في كل من : (ابن منظور - لسان العرب – ط دار المعارف– الأزهري - تهذيب اللغة – ط دار الكتب العلمية – بيروت –الزبيدى(السيد محمد مرتضى)تاج العروس- ط دار بيروت)

والمزور) وإلا فالأمر كما قال الله تعالى :" **فَلا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ" النور:(٢٨)**

ومعلوم أنه إذا التزم ألا يدخل حتى يستأنس لم يعرض نفسه لأن يقال له ارجع .

" إن الاستئناس في الآية الكريمة ليس مجرد الاستئذان كما وهم الذين فسروه ، وإنما هو حس الإيناس لأهل البيت قبل دخوله ، ولا يسوغ في ذوق العربية أن يقال مثلا : (استأنس الشرطيُّ ، أو جابي الضرائب ، أو الدائن) إنما هو الاستئذان ، ليس منه حسُّ إيناس ، كما لا يسوغ استعمال (أنس) في رؤية عدو أو نار حريق ، أو سماع هزيم رعد ، وزئير وحش .) (١٧٨)

(١٧٨) بنت الشاطئ – الإعجاز البياني للقرآن الكريم – ص ٢٠١



الفصل الثالث

الإعجاز الأسلوبي في الدلالة الصرفية

من خصائص العربية التى عدها العلماء لها ما تمتاز به من اتساع الأبنية، وكثرة الصيغ التى تستوعب المعانى التى يمكن أن تجيش بها نفس إنسان فى وقت من الأوقات ولما كان التصريف هو سبيل الوصول إلى تلك الصيغ فقد قالوا: " أما التصريف فإن من فاته علمه فاته المعظم"(١٧٩)

ويعلل ابن فارس لتلك المقولة بأمثلة كثيرة تكشف عن فائدة التصريف فى التمييز بين المعانى التى تتحول بتصريف صيغها من الضد إلى الضد: " يقال: القاسط للجائر، والمقسط للعادل، فتحول المعنى بالتصريف من الجور إلى العدل ..."(١٨٠).

وثمة قصة وقعت لعمرو بن عبيد المعتزلى مع أبى عمرو بن العلاء تكشف عن التفات علماء اللغة القدامى لخطورة أمر الصيغ، والخلط بين بعضها وعدم التفريق الدقيق بين دلالاتها، فقد أشارت المصادر إلى وفود أبى عثمان عمرو بن عبيد المعتزلى على أبى عمرو بن العلاء يسأله قائلا:" يا أبا عمرو: أيخلف الله وعده؟ قال أبو عمرو: لا. قال عمرو: أفرأيت من وعده الله على عمل عقابا، أيخلف الله وعده؟ فقال أبو عمرو: من العجمة أتيت أبا عثمان، إن الوعد غير الوعيد..."(١٨١)

فعمرو بن عبيد هنا- إن صحت الرواية- قد أخطأ هنا التفريق بين الصيغتين فالوعد مصدر (وعد) ، أما الوعيد فهو مصدر(أوعد) ، فالصيغة الأولى مصدر ثلاثى، والثانية صيغة مصدر رباعى.

والخلط بين الصيغتين ومصدريهما قد أدى إلى الانتقال من الضد إلى الضد، وهذا المعنى الضدى هو ما يستفاد من المعنى الصيغى للكلمة، وفى اللغة نظائر كثيرة تنقل الصيغة فيها الكلمة من الضد إلى الضد كما فى (قسط) و(أقسط)، و(حنث) و(تحنث)، و (أثم) و(تأثم)..الخ مع اختلاف أنواع الصيغ الممثل بها.

ويذكر السيوطى كذلك كلاما عن أبى حيان يدلنا على مدى الدور الذى تلعبه الصيغ فى التعبير عن المعانى التى لا تكاد تتناهى، والتى لولا الصيغ لضاقت اللغة عنها.

---

(١٧٩) السيوطى - المزهر ٣٣٠/١ نقلا عن ابن فارس. ويلاحظ أن التصريف الذى يعنيه ابن فارس هنا يدخل فيه الصياغة وغيرها من موضوعات الصرف.

(١٨٠) السابق.

(١٨١) الزبيدى - طبقات النحويين واللغويين ٣٩، والزجاجى - مجالس العلماء ٦٢.

يقول أبو حيان:" وأنواع المعانى المتفاهمة لا تكاد تتناهى؛ فخصوا كل تركيب بنوع منها؛ ليفيدوا بالتراكيب والهيئات أنواعا كثيرة، ولو اقتصروا على تغاير المواد، حتى لا يدلوا على معنى الإكرام والتعظيم إلا بما ليس فيه من حروف الإيلام والضرب؛ لمنافاتهما لهما؛ لضاق الأمر جدا، ولاحتاجوا إلى ألوف حروف لا يجدونها، بل فرقوا بين (معتق) و(معتق) بحركة واحدة حصل بها تميز بين ضدين"[١٨٢]

وهذا كله يدلنا على خطورة أمر الصيغ إذ إن الخطأ فيها يحول المعنى من الضد إلى الضد.

فضلا عن أن الصيغ لا تكلفنا مادة جديدة بل يأتى المعنى الوظيفى للصيغة محمولا على المادة متراكبا مع الدلالة المعجمية أو اللفظية على حد تعبير ابن جنى وذلك عن طريق صورة اللفظ التى تتلبس به لتعطى للكلمة صيغتها ومن ثم معناها الوظيفى. فضلا عن أن المعانى الوظيفية ذاتها تتعدد وتتراكب للصيغة الواحدة فى الوقت الواحد فى السياق الواحد كما سيكشف عنه البحث فى حينه.

بالإضافة إلى ذلك، فإن الصيغة الواحدة قد تشترك بين عدة معان وظيفية، تجعل للكلمة الواحدة وجوها متعددة من الدلالة، وظلالا إيحائية، تعمل على إثراء المعانى الفنية التى يريد المبدع أن يعبر عنها، وهذه ظاهرة أخرى غير الظاهرة السابقة كشف عنها البحث واصطلح على تسميتها بالاشتراك الصيغى أو تعدد المعنى الوظيفى للصيغة الواحدة.

فضلا عن هذا كله، فقد أشاد الباحثون بدور آخر تلعبه الصيغة لا يقل عما ذكرناه آنفا ألا وهو تمييز الكلم فى السياق، وتفصيله وإحكامه، ووضع الحدود الفاصلة بينها.

ولذا قرر الباحثون فى علم اللغة والصرف أن " اللغة العربية محظوظة جدا بوجود هذه الصيغ الصرفية؛ لأن هذه الصيغ تصلح لأن تستخدم أداة من أدوات الكشف عن الحدود بين الكلمات فى السياق، وتشكو معظم لغات العالم من عدم وجود مثل هذا الأساس الذى يمكن به أن تحدد الكلمات.

والباحثون فى لغات غير لغاتهم يعانون التعب والمشقة اللذين يجدونهما فى سبيل هذا التحديد، فيعمدون إلى كل الوسائل الممكنة يستخدمونها فى هذا الغرض، ويظهر القسر والعسف فى استخدامها واضحا، فأما اتخاذ الصيغة الصرفية أداة من أدوات

---

(١٨٢) انظر: المزهر ٣٤٧/١.

خلق الحدود بين الكلمات فى السياق، فميزة للغة العربية من كبريات ميزاتها التى تفاخر بها"(١٨٣).

ويقرر ذلك باحث آخر فيقول:" والميزة الحقة التى تذكر للغة العربية فى مقابل غيرها من اللغات ليست أفضليتها فى اعتمادها على القوالب للتعبير عن المعانى الوظيفية فى مقابل اعتماد غيرها على العناصر الصرفية غير القالبية، للتعبير عن تلك المعانى، وإنما الفضل الحق لتلك الظاهرة الصرفية يكمن فى اتخاذ العربية للقوالب والأبنية وسيلة حاسمة للحدود بين الكلمات فى السياق"(١٨٤).

وهذه الحقيقة قد فطن إليها علماؤنا القدامى فبينوا أن" كل لفظ له معنى لغوى يفهم من مادة تركيبه، ومعنى صيغى وهو ما يفهم من هيئته، أى: حركاته وسكناته وترتيب حروفه؛ لأن الصيغة اسم من المصوغ الذى يدل على التصرف فى الهيئة لا فى المادة؛ فالمفهوم من حروف (ضرب) استعمال آلة التأديب فى محل قابل له، ومن هيئته وقوع ذلك الفعل فى الزمان الماضى، وتوحيد المسند إليه وتذكيره وغير ذلك"(١٨٥).

ولعل هذا يؤكد ما ذكره الباحثون المحدثون من الميزة التى تمتاز بها اللغة العربية بتلك الصيغ التى تقوم بدور وضع الحدود بين الكلمات، وذلك لما يمتاز به كل لفظ من ألفاظ اللغة من استقلاليته بصيغته ومعناه الوظيفى فضلا عن معناه المعجمى.

وإذا كان الدور الذى تلعبه الصيغة على هذا القدر من الأهمية، فإننا نؤمل أن يكشف البحث فى صفحاته المقبلة عن الأسس الفنية للتوظيف البلاغى لصيغة الكلمة والتى يمكن أن تسهم فى خدمة البحوث البلاغية والنقدية للأدب العربى فى كافة عصوره.

"فلا شك أن الناقد المعاصر سوف يجد فى دراسة الألفاظ ضروبا من القيم الفنية التى تبنى على الفروق القائمة بينها فى البنية الصرفية، وطبيعة اللواحق والسوابق،

---

(١٨٣) د/ تمام حسان - مناهج البحث فى اللغة ص١٧٦ ط س ١٩٥٥، وانظر أيضًا فى أهمية الصيغ د/ محمود السعران - علم اللغة ص٢٤٩ - ٢٥٠ ط دار المعارف س١٩٦٢، د/ أحمد المتوكل من البنية الحملية إلى البنية المكونية - دار الثقافة - الدار البيضاء ص١٦٣.

(١٨٤) د/ أحمد عبد العظيم - الوحدات الصرفية ودورها فى بناء الكلمة العربية - دكتوراة - دار العلوم رقم ١٧٤، ص٢١٢.

(١٨٥) انظر: أبو البقاء الكفوى - الكليات ص٧١٥ - ٧١٦.

والظلال الدلالية السياقية والإيحائية والقيم الإيقاعية والموسيقية يقف بها على نتائج طريفة ومؤثرة فى صوغ الأحكام"(١٨٦).

وذلك أن الاختيار الفنى لتلك الصيغ من قبل المبدع، وكذلك ما يقوم به من تكرار لبعض الصيغ، أو عدول فنى مقصود عن صيغ يقتضيها السياق إلى صيغ أخر يراها أكثر مناسبة؛ كل ذلك يحدث بلا شك نوعا من الإثارة ولفت الذهن للمتلقى ناقدا كان أو غير ناقد.

وإذا كان التحليل اللغوى يهتم بتمييز تلك العناصر الثلاثة: الصوت واللفظة المفردة وعامل الصيغة(١٨٧)؛ فإننا نقرر أن ما يبحث عنه الناقد والبلاغى أمر وراء الخطأ والصواب.

فإذا كان اهتمام الصرفى يقف عند ما يجوز وما لا يجوز استخدامه من الصيغ للدلالة على معان بعينها، بمعنى أن وظيفة الصرفى تقف عند حدود بيان الصيغ الدالة على كل معنى من المعانى؛ بحيث يكون التعبير واقعا فى دائرة الصواب وفق ما تواضع عليه العرب- فلا شك أن اهتمام البلاغى والناقد وراء ذلك كله. فالمفاضلة بين تلك الصيغ، والتخير الفنى لإحدى الصيغ التى يصلح أن يعبر بها جميعا عن المعنى المراد مع وقوعها فى دائرة الصواب، إنما هو وظيفة البلاغى والناقد الفنى خاصة، ولذلك " لم يهتم البلاغيون بالصيغ أو القوالب الصرفية فى ذاتها، فتحديد تلك الصيغ، وبيان وظائفها، وتوضيح الفروق التى تميز بينها فى تأدية تلك الوظائف، كل أولئك أمور قد تكفل بها ونهض بأدائها علم النحو، وإنما اهتم البلاغيون بالمزايا التى تنبثق عن استثمار تلك الفروق وتوظيفها فى الأسلوب الفنى، فتأمل تحليلاتهم للأساليب يكشف بوضوح عن أن الصيغة لا تكتسب المزية فى نظرهم إلا إذا كانت هناك صيغة أخرى صالحة لأداء وظيفتها **(العامة)** من جهة، وقاصرة عن أداء ما تؤديه فى سياقها الخاص من جهة أخرى. ومن ثم كانت المقارنة بين الصيغتين الأصلية **(أو المنتقاة)** والبديلة **(أو المفترضة)** هى المنهج الذى سار عليه البلاغيون فى تحليل مزية الأولى(١٨٨).

فبالوقوف على الدلالات الدقيقة للصيغ نستطيع أن نقف على الفروق الفنية الدقيقة بين المعانى مما يفيد أكثر الإفادة فى التوظيف البلاغى لتلك الصيغ فى سياقاتها التى

---

(١٨٦) د/ صلاح رزق - أدبية النص ص٢١٧ - ٢١٨ - دار الثقافة العربية.

(١٨٧) لانسون - منهج البحث فى اللغة - ص٨٠ ت د/ محمد مندور - بيروت دار العلم للملايين.

(١٨٨) انظر د/ حسن طبل - المعنى فى البلاغة العربية ص٢٢٩ - ٢٣٠.

تطابق بها مقتضى الحال، أيا كان ذلك الحال- حال المخاطب أو حال المتكلم وفى رأيى أن هذا هو ما يحتاج منا بذل جهد كبير فى الوقوف على تلك الصيغ فى سياقاتها ونماذجها التطبيقية حتى نستطيع الوقوف على طبيعة الدور الذى تلعبه تلك الصيغ من الناحية الفنية، وهذا هو ما سوف يضطلع هذا البحث بأعبائه فى صفحاته التالية.

وقد تجاوزت مصادر هذا البحث حدود ما وقفت عنده كتب البلاغة النظرية فى هذا الباب من التفريق بين دلالة كل من الاسم والفعل على العموم إلى ما يندرج تحت هذين النوعين من أنواع عديدة من الصيغ تتميز بدلالاتها الفنية الرائعة والجديرة بتتبعها فى سياقاتها المختلفة ليتعمق إحساسنا بالقيمة الفنية لتلك الصيغ التى أهملتها كتب البلاغة النظرية، أو وقفت عند بعضها وقفة عابرة فى مبحث الفصاحة، أو فى بعض مباحث علم المعانى، جعلت بعض الدارسين المعاصرين يغمطون تلك الدراسات حقها حيث يقول: "وإذا أردنا آخر الأمر أن نصور موقف المتقدمين من فاعلية البناء الصرفى تصويرا موجزا فلنقل: إن هؤلاء لم يكن لديهم فى فهم جماليات البناء الصرفى مكان ملحوظ، ولم تكن لديهم فكرة واضحة أو مقنعة حول إقامة أصول متفق عليها للتذوق الأدبى أو الكشف الفنى العميق"(١٨٩). ومن ثم فقد حاول البحث أن يكشف عن الجهود السابقة فى هذا المجال، كما حاول كذلك رصد العديد من تلك الصيغ فى سياقات رفيعة متعددة من القرآن الكريم.

---

(١٨٩) د/ تامر سلوم - نظرية اللغة والجمال فى النقد العربى - دار الحوار - ط١ - ١٩٨٣م - ص٩٧.

المبحث الأول

الإعجاز الأسلوبي لصيغة الكلمة على أساس الاختيار

ينبنى البحث فى هذا الفصل على ما قمت بتأصيله من أن الصيغ قد تعدد أو تشترك فى الدلالة على المعنى الواحد مما يمكن أن يكون مفتاحا لفهم عملية الاختيار فى الصيغ[190].

وذلك أن الاختيار - كما سيتضح لنا - إنما يقع بين البدائل أو النظائر، وقد بين البحث فيما سبق أن الصيغ فى اللغة العربية تمتاز بظاهرة الاشتراك والتعدد.

ومن ثم يقع الاختيار بين تلك البدائل أو الأشباه والنظائر المتعددة والتى تشترك فيما بينها فى التعبير عن معنى واحد بطريقة متقاربة.

وحتى يزيد وعينا بطبيعة الاختيار ينبغى أن نكون واعين بأن ثمة مستويين متمايزين أساسيين للكلام عرفهما البلاغيون قديما وحديثا.

الأول: وهو ما يمثل الحد الأدنى لبلاغة الكلام، وهو ما تحقق فيه لزوم الجادة، وكان موافقا للصواب، موسوما بالصحة اللغوية.

ويعد الوقوف عند هذا الحد - حد الإفهام - أدنى مراتب البلاغة، التى إذا ما خرج المتكلم عنها لم يصح وصف نطقه بالكلام وإنما يوصف بالنعيق.

فالبلاغة - كما يقررها الطيبى- " لها طرفان: الإعجاز وحاكمه الذوق، وما خرج عن النعيق، وبينهما مراتب لا تكاد تنحصر"[191].

والثانى: هو ما اتصف بالصحة اللغوية، وزاد على ذلك بحسن التخير للفظ توخيا للمطابقة.

وهذا المستوى هو ما يتنافس فيه المتكلمون بغية التدرج فى سلم الفصاحة والبلاغة، ودرج البيان.

هذا التمايز الواضح بين هذين المستويين للكلام هو أمر يكاد يكون مستقرا فى الدراسات البلاغية منذ بدايات التأليف البلاغى، وما كتب حوله من كتابات متناثرة.

---

(١٩٠) انظر ذلك تفصيلا في رسالتي للدكتوراة بعنوان : الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم – المكتبة العصرية – بيروت.

(١٩١) الطيبى - التبيان فى المعانى والبيان بتحقيقى - ص١٤٥ - ط المكتبة التجارية بمكة المكرمة.

ولعل عبارة الجاحظ الشهيرة التى يقول فيها "المعانى مطروحة فى الطريق يعرفها العجمى والعربى، والبدوى والقروى، وإنما الشأن فى إقامة الوزن، وتخير اللفظ، وسهولة المخرج، وكثرة الماء، وفى صحة الطبع وجودة السبك، وإنما الشعر صياغة، وضرب من التصوير"(١٩٢) أقول لعل هذه العبارة تعد أول إشارة إلى التفريق بين مستويين من المعانى:

الأول: المعانى النمطية:

وهى ما عبر عنها الجاحظ بأنها مطروحة فى الطريق وهذه المعانى إنما هى وليدة الصياغة النمطية التى يوقف بها عند دائرة الصواب.

الثانى: المعانى الفنية:

وهى تلك المعانى التى تكون وليدة تخير اللفظ، وسهولة المخرج، وجودة السبك، وغيره مما نبه إليه الجاحظ فى عبارته السابقة.

هذا التفريق الواضح بين مستويى اللغة الذى عنى ببيانه والوقوف عليه نقادنا القدامى هو ما تهتم الدراسات الأسلوبية بالوقوف عليه.

فهذا الواقع اللغوى يعد بمثابة **(الأصل)** وهو ما تهتم تلك الدراسات برصد عملية الخروج عنه لواقع طارىء من شأنه أن يعيننا على تدبر أبعاده الدلالية والأصولبة"(١٩٣).

وقد تعددت عبارات هؤلاء الأسلوبيين ومصطلحاتهم فى التعبير عن هذين المستويين من اللغة.

فمن المصطلحات التى عبروا بها عن الأصل أو المستوى النمطى"

الأصل	النمط
العبارة البريئة	الخطاب الساذج
الاستعمال الدارج	الكلام الفردى
الاستعمال المألوف	الوضع الحيادى

(١٩٢) الحيوان/ الجاحظ/ ط الحلبى ٣١/٣.

(١٩٣) المسدى/ الأسلوبية/ص ٩٤.

الاستعمال العادى	الدرجة الصفر
الاستعمال النمط	التعبير الشائع. . .إلخ[١٩٤]

من المصطلحات المعبر بها عن المستوى الفنى:

الانزياح	الانتهاك
التجاوز	الانحراف.
اللحن	الاختلال. . .إلخ[١٩٥]

هذه المصطلحات العديدة المتقاربة فى معانيها تعبر عن معنيين أساسيين هما النمطية أو الثبات فى المستوى النمطى، والعدول أو المخالفة فى المستوى الفنى ومن ثم فالاختيار على هذا هو نوع من العدول؛ لأنه عدول عن المستوى النمطى إلى المستوى الفنى[١٩٦]، والعلاقة بين المستويين هى أقرب شىء للعلاقة بين اللغة والكلام فإذا كانت اللغة هى النظام الثابت".. . . المائل فى أذهان الجماعة اللغوية، فالأسلوب المنتمى إلى الكلام هو بطبيعة الحال – هو بحسب هذا الرأى – عدوان مستمر على ذلك النظام وانتهاك مطرد لسننه وأعرافه"[١٩٧].

ومن ثم ينشأ عن هذين المستويين من الاستعمال اللغوى مستويان من المعنى:

المستوى الأول: هو ما يعبر عن أصل المعنى أو المعنى المجرد وهو المعنى الذى يشترك فيه الناس جميعا عربهم وعجمهم.

أما المستوى الثانى: فهو الذى يتميز به المتكلم بقدر ما فى أسلوبه من حسن التخير، ومراعاة الغرض والمقصد من الكلام.

فالمعنى المجرد أو أصل المعنى يمكن أن يعبر عنه بأكثر من صياغة أو أسلوب تختلف فيما بينها فى إيحاءات المعنى الذى تشترك فيه تلك الأساليب جميعا.

---

(١٩٤) الهامش السابق ص٩٥-٩٦.

(١٩٥) السابق.

(١٩٦) سيأتى فى صفحات البحث التالية التفريق بين كل من الاختيار والعدول، وبيان المراد بكل فى هذا البحث.

(١٩٧) د/ حسن طبل - أسلوب الالتفات - ص ٤٤.

أما المعنى الفنى فهو الذى لا يمكن التعبير عنه بغير صيغته، لأن المفترض أن مبدعه قد اختار من الصيغ والألفاظ ما هو أنسب للتعبير عن تجربته ومعانيه الدقيقة.

وهذا مطرد واضح جدا فى جانب الصيغ، فأصل المعنى يشترك فى الدلالة عليه عدد من الصيغ التى تعبر عنه، أما الدلالة الفنية الدقيقة فهى التى لا يمكن التعبير عنها بغير صيغتها. ولننظر مثلا إلى قوله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾ (الملك: ١٩).

نجد أن لفظتى (**صافات - ويقبضن**) يمكن أن يعبر عن الحديث فيهما وهو أصل المعنى بأكثر من طريقة، ولذا اختير التعبير باسم الفاعل فى اللفظة الثانية، وكان يمكن التعبير عنها بغير اسم الفاعل كالفعل المضارع (**يصففن**).

وفى اللفظة الثانية كان يمكن التعبير عنها بغير الفعل المضارع؛ كأن يعبر عنها باسم الفاعل كسابقتها مثلا.

ولكن الآية قد اختارت اسم الفاعل للتعبير عن الحدث فى اللفظة الأولى واختارت الفعل المضارع للتعبير عن الحدث فى اللفظة الثانية، وما ذلك إلا رعاية للمعنى الفنى الدقيق الذى أرادت الآية أن ترمز إليه وتدل عليه.

قال الزمخشرى: "فإن قلت: لم قيل (**ويقبضن، ولم يقل قابضات**) (**قلت**) لأن الأصل فى الطيران هو صف الأجنحة؛ لأن الطيران فى الهواء كالسباحة فى الماء، والأصل فى السباحة مد الأطراف وبسطها، وأما القبض فطارئ على البسط للاستظهار به على التحرك فجيء بما هو طارئ غير أصل بلفظ الفعل على معنى أنهن صافات، ويكون منهن القبض تارة بعد تارة كما يكون من السابح"[١٩٨].

فكأن الآية قد رمزت بذلك - فضلا عن إثبات حدثى الصف والقبض - إلى أن الصف هو غالب فعل الطير فى جو السماء وأن القبض يكون عارضا، وهذا المعنى وإن لم يكن مقصودا بالأصالة من الكلام، فإن اختيار الآية لهاتين الصيغتين قد شمل هاتين الدلالتين دون أن يزيد فى لفظ الكلام بل عبر عن المعنى بهيئة اللفظ نفسه وليس بلفظ آخر، ولو خولفت تلك الصياغة، وأريد التعبير عن تلك المعانى، لقيل (**يصففن غالبا وأحيانا قابضات**) وفيه من الركاكة والتطويل ما فيه، فضلا عن أن المعنى المراد إضافته ليس مقصودا من الكلام بالأصالة؛ وإنما هو متمم لبيان القدرة

---

(١٩٨) الكشاف للزمخشرى ٤/١٢٤.

وتمام الحكمة، فكان تضمينه فى هيئة الكلمة وبنيتها أولى من الإتيان بلفظ جديد يخصه.

والمقصد هنا أن نبين أن أصل المعنى يمكن الدلالة عليه بأكثر من صيغة. فأصل المعنى فى الآية لفت الأنظار إلى قدرة الله فى حفظ الطير وتسخيره فى جو السماء فى حالتى القبض والبسط، وهذا يحصل بالتعبير باسم الفاعل أو المضارع لكن الآية قد اختارت للمعنى الأول اسم الفاعل، وللثانى صيغة المضارع للدلالة على معنى أخص وأدق من أصل المعنى.

ومما يجدر بيانه فى هذا الفصل أن نبين أن هذا الإحساس بتمايز هذين المستويين من المعنى كان شائعا فى الدرس البلاغى(١٩٩).

وقد ظل هذا الإحساس بتمايز هذين المستوين ظاهرا فى الدرس البلاغى حتى المرحلة الأخيرة التى اكتملت فيها مباحث البلاغة، وبلغت الغاية من التقنين والتنظير(٢٠٠).

وقد تساءل عبد القاهر عن سبب تنحية المستوى النمطى عن الوصف بالبلاغة رغم اطراده على الصواب مبينا أن ما يستحق الوصف بالبلاغة هو أمر وراء الصحة اللغوية، فيقول بعد ذكر نماذج لذلك المستوى النمطى: "اعلم أن من الكلام ما أنت تعلم إذا تدبرته أن لم يحتج واضعه إلى فكر وروية حتى انتظم. . . وذلك إذا كان معناك، معنى لا تحتاج أن تصنع فيه شيئا غير أن تعطف لفظا على مثله، كقول الجاحظ: "جنبك الله الشبهة، وعصمك من الحيرة، وجعل بينك وبين المعرفة نسبا، وبين الصدق سببا، وحبب إليك التثبت، وزين فى عينك الإنصاف. . .إلخ فما كان من هذا وشبهه لم يجب به فضل إذا وجب إلا بمعناه أو بمتون ألفاظه، دون نظمه وتأليفه، وذلك لأنه لا فضيلة حتى ترى فى الأمر مصنعا، وحتى تجد إلى التخير سبيلا، وحتى تكون قد استدركت صوابا.

فإن قلت: أفليس هو كلاما قد اطرد على الصواب، وسلم من العيب؟ أفما يكون فى كثرة الصواب فضيلة؟ قيل أما الصواب كما ترى فلا. لأنا لسنا فى ذكر تقويم اللسان، والتحرز من اللحن، وزيغ الإعراب، فنعد بمثل هذا الصواب. وإنما نحن فى أمور

---

(١٩٩) انظر فى الدلالة على ما ذكرنا د/ عبد الحكيم راضى/ نظرية اللغة / الفصل الثانى مستويان من اللغة ص٢٤ إلى آخر الفصل/ مكتبة الخانجى.

(٢٠٠) انظر الطيبى - التبيان فى المعانى والبيان - ص ١٤٥ - ط المكتبة التجارية بمكة المكرمة وانظر ما سبق نقله عن الطيبى فى بداية هذا المبحث، وانظر بدر الدين بن مالك - المصباح فى المعانى والبيان والبديع ت د / حسنى عبد الجليل ط مكتبة الآداب ص ٣ - ٤.

تدرك بالفكر اللطيفة، ودقائق يوصل إليها بثاقب الفهم"[٢٠١] فالوقوف على حد الصحة اللغوية ليس هو غاية البلاغة، وإنما هو غاية النحو والمعجم، لأننا - أى المختصين بأمر البلاغة - لسنا فى ذكر تقويم اللسان والتحرز من اللحن والإعراب مما هو غاية النحوى، وإنما نحن بصدد أمور ومعان تدرك بالفكر اللطيفة، ودقائق يوصل إليها بثاقب الفهم.

والحقيقة: أن عبد القاهر يفرق فى كلامه بين نوعين من الصواب فى الكلام والمعانى:

الأول: ما يمكن أن نصطلح على تسميته بالصواب النمطى أو الصواب النحوى.

والثانى: هو ما حقق ذلك الصواب وزاد عليه بحسن الصياغة، وهذا الثانى هو الجدير بأن يستدرك فى نظر عبد القاهر، وفى نظر البلاغيين قاطبة كذلك.

وهذان المستويان من المعنى كلاهما واقع فى إطار ما تسمح به اللغة إما حقيقة وإما مجازا فالمستوى الثانى البلاغى وإن كان قائما على قدر كبير من التوسع أو التسمح والأريحية فى الاستعمال اللغوى فإنه واقع كذلك فى إطار ما تسمح به اللغة بحيث لا يخرج إلى نوع ثالث من الاستعمال يعد مرفوضا فى العرف اللغوى بين أبناء اللغة الواحدة، وذلك لأن ما يقع فى المستوى البلاغى من العدول أو الخروج أو الانحراف غالبا ما يكون عدولا مقننا مضبوطا بقواعد لغوية تقنن هذا العدول، أو يكون هذا الابتكار والتوسع فى الاستخدام له ما يسوغه ويبرره بحيث لا يعدو كونه ضرورة لغوية مسموح بها بقيود عليها.

بالتالى نكون أمام ثلاثة مستويات من الاستعمال اللغوى ينتج عنها ثلاثة مستويات من المعنى:

الأول: المستوى النمطى النحوى.

الثانى: المستوى الفنى البلاغى.

الثالث: المستوى المرفوض (الخطأ).

ولعل هذا الذى استوحيناه من كلام عبد القاهر هو ما قصد إليه **(تودروف)** العالم اللغوى الشهير حيث يرى أن الاستعمال يكرس اللغة فى ثلاثة أضرب من

(٢٠١) دلائل الإعجاز بتحقيق شاكر ص٩٨.

الممارسات المستوى النحوى - والمستوى اللانحوى - والمستوى المرفوض، ويرى أن المستوى الثانى يمثل أريحية اللغة فيما يسع الإنسان أن يتصرف فيه.

وإذا كان الصواب النمطى: هو ما يوقف فيه عند تحرى قواعد اللغة، وتقويم اللسان، فإن هذا المستوى من المعنى يظهر فى جانب الصيغ - موضوع بحثنا - فى استعمالها على الجادة التى جرت عليها العرب فى لغتها، وذلك دون تخير لصيغة دون أخرى، أو عدول عن صيغة لأخرى أكثر موافقة، وأقوى مطابقة، مما تتميز به الأساليب، وتظهر فيه براعة المتكلمين، فى صورة عديدة من الأساليب، ومراتب من البراعة لا تكاد تنحصر.

وأما الصواب الفنى: فهو ما يظهر فيه ذلك التفاوت والاختلاف فى الأساليب، ولعمر الله إنه لقصب السبق، وغاية المضمار، وذلك لأن" المعانى البلاغية أو الفنية فى تصور البلاغيين هى مجموعة الإشعاعات والإيحاءات الدلالية الخاصة المتجسدة فى صياغاتها الفنية بأشكالها التعبيرية الخاصة"(٢٠٢) ومن ثم فإن استخدام الصيغ وتوظيفها إنما يتم على هذين المستويين:

١- مستوى الصحة اللغوية.

٢- مستوى الصحة الفنية.

وإذا كان المستوى الأول هو الحد الأدنى للبلاغة الذى يخرج عنه الكلام إلى حد النعيق، لذا فإنه يخرج من دائرة بحثنا إلى دائرة البحث النحوى ودارس اللغة بأصواتها ومعجمها وصرفها ونحوها ومن ثم فالذى يعنينا فى بحثنا هذا هو التوظيف البلاغى لتلك الصيغ وهو ما يعمد فيه إلى ضرب من التخير، أو عدول عن الجادة، أو تكرار لصيغة بعينها، أو نحو ذلك مما سنبين قريبا من أسس التوظيف البلاغى لصيغة الكلمة. ومما يتعلق بهذا المقام أن نبين أن هذا التمايز الواضح بين هذين المستويين السابقين، إنما هو مبنى فى الحقيقة على ما بين النحو - داخلا فيه علم الصرف - والبلاغة من تمايز واضح فى الدور والمقصد، أو يمكن أن نقول إن العلاقة بين المستويين كالعلاقة بين غاية هذين العلمين فقد حدد علماء اللغة القدامى وظيفة النحو بما لا يزيد عن توضيح المعانى المشكلة، ويدل به على الفاعل، والمفعول، والمضاف إليه، وسائر ذلك من المعانى التى تعتور الأسماء(٢٠٣).

---

(٢٠٢) د/ حسن طبل - المعنى فى البلاغة العربية - دكتوراة ص ١٥٠.

(٢٠٣) انظر الإيضاح فى علل النحو للزجاجى ص ٧٧.

ويعقد ابن فارس فى كتابه بابا يطلق عليه **(باب الخطاب الذى يقع بـه الإفهـام من القائل والفهـم مـن السـامع)**. ثـم يقـول "ذلـك بـين المتخـاطبين مـن وجهـين: أحـدهما الإعراب، والآخر: التصريف. فأما الإعراب فيه تميز المعانى. ويوقف على أغراض المتكلمين. . .وأما التصريف فإنه من فاته فاته المعظم"(٢٠٤).

"تلك هى الوظيفة غير الفنية للغة - سواء سميت بيانـا أو إفهامـا وتفهيمـا أو غيـر ذلك. فالمهم أنها تقوم علـى تيسير التعامل بين النـاس، وتعمـل علـى ربـط المجموعـة البشرية برباط من الفهم المشترك استنادا إلى حقيقة أن الإنسان هو الكائن الاجتماعى المحتاج إلى هذه الوسيلة، والقـادر علـى اسـتخدامها"(٢٠٥) أمـا وظيفـة البلاغـة وغايتهـا فهى أمر وراء ذلك كما سبق بيانه، فالكلام البليغ ليس هو الذى يقف عند حد الصحة اللغويـة بغايـة الإفهـام وبيـان أصـل المعنـى، فهـذا الكـلام لا يجـب بـه فـضيلة لـدى البلاغيين.

فوظيفة البلاغة إذا:

التعبير عن المعانى الدقيقة التى يبلغ بها صاحبها كنه ما فى نفسه ويبلغ بها مـراده إلى سامعه(٢٠٦).

وذلك بطريقة فنية تعمق حسن الاختيار، من إيجـاز لفظ وحسن نسق، وتـأنق فـى الصياغة، وروعة فى التصوير إلى غير ذلك مما يكسب الكلام حسنا ورونقا.

وفى رأيى أن المستوى البلاغى أو الفنى للمعنى هو الذى يراعـى تلـك الـوظيفتين الأساسيتين للبلاغة معا عند الصياغة.

وقد كشف عبد القاهر عن هاتين الوظيفتين الأساسيتين للبلاغة فى فصل أورده فى دلائل الإعجاز فى تحقيق القول على البلاغة والفصاحة، والبيان، والبراعة، وكـل مـا شاكل ذلك حيث يقول:

---

(٢٠٤) الصاحبى: ١٦٢،١٦١، وانظر المزهر١ / ٣٢٩ - ٣٣٠ حيث نقل كلام ابن فارس.

(٢٠٥) د/ عبد الحكيم راضى/ نظرية اللغة ص ٦٣/ مكتبة الخانجي- القاهرة.

(٢٠٦) وهذا هو ما يفيده تعريف البلاغة لدى بعض البلاغيين، فقد عرفها الرازى على سبيل المثال بأنها "بلوغ الرجل بعبارته كفه ما فى قلبه" نهاية الإيجاز ص ٨٩، وقد عرفها الطيبى كذلك بهذا التعريف ضمن ما ذكره من تعريفات للبلاغة فى كتابه لطائف التبيان ق٦، مخطوط بدار الكتب المصرية/٢٦ بلاغة م، وقد نشرته المكتبة التجارية بمكة المكرمة بتحقيقى.

"ومن المعلوم أن لا معنى لهذه العبارات.. غير وصف الكلام بحسن الدلالة وتمامها فيما له كانت دلالة، ثم تبرجها فى صورة هى أبهى وأزين وآنق وأعجب وأحق بأن تستولى على هوى النفوس، وتنال الحظ الأوفر من ميل القلوب. . ."[٢٠٧].

هذه الوظيفة الأساسية للبلاغة هى إذا أهمّ سمات المستوى الفنى.

وهذا أمر لم يزل جهابذة الأدب ونقاد الشعر يمتدحون به الشاعر، ويبرّزونه به على أقرانه، وذلك يزيد به على غيره من معنى دقيق، وفكرة لطيفة، ومرمى بعيد، وإن كان قد اشترك مع غيره فى أصل المعنى المراد، ولكنهم حكموا له بالتفرد فى المعنى الذى أتى به، لأنه وإن اشترك مع غيره فى أصله، إلا أنه قد انفرد بدقائقه التى لا يوصل إليها إلا بثاقب الفكر، مع تعبيره عن تلك المعانى والدقائق فى مثل لفظ الأول أو أوجز منه، وبطريقة فى الصياغة آنق منه وأعجب[٢٠٨].

ولك أن تتأمل كثرة ما أفاده البلاغيون من تحليل الصيغ فى قوله تعالى:**﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾**[٢٠٩] لترى ما فى التعبير بهذه الصيغ من الفوائد والدقائق التى ما كان يمكن التوصل إليها إلا بتلك الصياغة. ومن ذلك ما علق به عبد القاهر على قوله تعالى**﴿ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾** (فاطر:٣).

فلو قيل "هل من خالق غير الله رازق لكم" لكان المعنى غير ما أريد[٢١٠] وذلك أن المقصود فى الآية تقرير العباد برزق الله تعالى لهم، ويمكن أداء ذلك المعنى الأصلى باسم الفاعل "رازق" أو بالمضارع "يرزق" أو غير ذلك، إلا أن فى التعبير بالمضارع (يرزق) من الدلالة على تجدد الرزق وحصوله للعباد كل وقت، ووجدانهم إياه بعد حاجة إليه وافتقار - فيه من دقة المعنى ولطفه مالا يفيده التعبير باسم الفاعل.
و"من البين فى ذلك قول الأعشى:

لعمرى لقد لاحت عيون كثيرة إلى ضوء نار فى يفاع تحرق

---

(٢٠٧) عبد القاهر/ دلائل الإعجاز ص ٤٣، وانظر أيضا تعريف ابن وهب للبلاغة فى البرهان فى وجوه البيان ص ١٦٣، وسيأتى نقله قريبا فى الباب التالى فى الحديث عن الاختيار.

(٢٠٨) انظر عبد القاهر/ دلائل الإعجاز/ص ٤٨٩.

(٢٠٩) هود/ ٤٤، وانظر الكشاف٢/٤٠٥، ودلائل الإعجاز ص ٤٦ والمفتاح للسكاكى ص ١٧٧-١٧٨.

(٢١٠) دلائل الإعجاز ص ١٧٧.

تـــشب لمقـــرورين يـــصطليانها وبـات علـى النـار النـدى والمحلـــق

معلوم أنه لو قيل "إلى ضوء نار متحرقة" لنبا عنـه الطبـع وأنكرتـه النفس، ثم لا يكون ذاك النبو وذاك الإنكار من أجل القافية وأنها تفسد به، بل من جهـة أنـه لا يشبه الغرض ولا يليق بالحال. وكذلك قوله[٢١١]

أو كلمــــا وردت عكـــاظ قبيلـــة بعثـــوا إلـــى عـــريفهم يتوســـم.

وذاك لأن المعنى فى بيت الأعشى على أن هناك موقدا يتجدد منه الإلهاب والإشعال حالا فحال، وإذا قيل "متحرقة" كان المعنى أن هناك نارا قد ثبتت لها وفيها هذه الصفة، وجرى مجرى أن يقال "إلى ضوء نار عظيمة" فى أنه لا يفيد فعلا يفعل.

وكذلك الحال فى قولـه "بعثوا إلى عريفهم يتوسم" وذلك لأن المعنـى علـى توسم وتأمل ونظر يتجدد من العريـف هنـاك حـالا فحـالا، وتـصفح منـه الوجوه واحدا بعد واحد. ولو قيل (**بعثوا إلى عريفهم متوسما**) لم يفد ذلك حق الإفـادة[٢١٢] فـالفعلان (**تحرق، ويتوسم**) فى الأبيات السابقة فيهما من الدلالة على تجدد الحدث مما يناسب الحال المعبر عنه، مالا يفيده غير صيغتهما المستخدمة فى هذا الموضع، ولـذلك وقـع الاختيار عليهما.

والأمثلة على ذلك كثيرة ليس هذا محل استقصائها، وإنما قصدت فقط إلـى التأكيد على أمر هام، وهو أنه ليس غاية البلاغى هى مجرد التحسين اللفظـى؛ بل ينبغـى أن تكون غايـة بالمقـام الأول هـى تكثيـر الفائـدة، وجمـع دقـائق المعـانى المـراد بيانهـا، والحفـاظ علـى شـعبها أن ينـد منهـا شـىء عنـد التعبيـر والإبانـة فإنمـا مـدار الفصاحة والبلاغة على توفية المعانى حقها وبلوغ كنـه ما فى النفس من المعانى مع القدرة على إيصـالها للمخاطبين.

ومن ثم يأتى دور الاختيار للصيغ فى تحصيل تلك الغاية، وسنحاول توضيح ذلك بصورة أكبر فى الجانب التطبيقى من البحث. ومما يتصل بتلك النقطة أن ننبه إلى أن التأنق فى اختيار الصيغ والكلمات فى إطار ذلك المستوى الفنـى يؤدى حتمـا إلـى مـا يسمى بـ"التفـرد الأسلوبى" للمنشئ أو المبدع وذلك أن "لكل فـرد معجمـه اللغوى المتميز، فهو يميل إلى استعمال بعض الكلمات دون بعضها الآخر، وهنـاك كلمـات لا يستعملها على الإطلاق . . ولكل فرد طريقته الخاصة فى بنـاء الجمل والـربط بينهـا،

---

(٢١١) دلائل الإعجاز ص ١٧٦.

(٢١٢) دلائل الإعجاز ص ١٧٦-١٧٧.

فهو يستعمل بعض الصيغ دون بعضها الآخر، أو يستعمل أدوات معينة دون أخرى"[٢١٣].

وهذا التميز أو التفرد الأسلوبى - الذى يتميز به المستوى الفنى من الكلام - هو ما عبر عنه البلاغيون القدامى بحسن التخير للفظ، حتى إن بعضهم قد قصر البلاغة على حسن التخير.

وهذا ما انتهى إليه كلام عبد القاهر فى تحقيق القول على البلاغة والفصاحة والبيان والبراعة وكل ما شاكل ذلك، حيث ينتهى كلامه فى هذا المقام إلى أنه (**لا جهة لاستعمال هذه الخصال غير أن تأتى المعنى من الجهة التى هى أصح لتأديته، وتختار له اللفظ الذى هو أخص به...**)[٢١٤].

بل إنه ينفى الفضيلة عن الكلام "حتى ترى فى الأمر مصنعا وحتى تجد إلى التخير سبيلا"[٢١٥].

ويخص عبد القاهر الصيغ من بين معانى النحو بجانب كبير من اهتمامه بل إنه يبنى نظريته فى النظم على حسن التخير للصيغ ومعانى النحو فيقول: "لا نعلم شيئا يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر فى وجوه كل باب وفروقه، فينظر فى الخبر إلى الوجوه التى تراها فى قولك (**زيد منطلق**)، (**وزيد ينطلق**) و(**ينطلق زيد**) و(**منطلق زيد**) ، (**وزيد المنطلق**) و(**المنطلق زيد**) (**وزيد هو المنطلق**) وفى (**الشرط والجزاء**) إلى الوجوه التى تراها فى قولك (**إن تخرج أخرج**) و(**إن خرجت خرجت**) و(**إن تخرج فأنا خارج**). (**وأنا خارج إن خرجت**) وأنا إن خرجت (**خارج**) وفى (**الحال**) إلى الوجوه التى تراها فى قولك (**جاءنى زيد مسرعا**) و(**جاءنى يسرع**) و(**جاءنى وهو مسرع أو هو يسرع**) و(**جاءنى وقد أسرع**) فيعرف لكل من ذلك موضعه، ويجىء به حيث ينبغى له[٢١٦]. ثم يقول"... هذا هو السبيل، فلست بواجد شيئا يرجع صوابه إن كان صوابا، وخطؤه إن كان خطأ، إلى (**النظم**)، ويدخل تحت هذا الاسم، إلا وهو معنى من معانى النحو قد أصيب به موضعه، ووضع فى

---

(٢١٣) د/ شكرى عياد: مدخل إلى علم الأسلوب/ دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض ١٤هه - ١٩٨٢، ط ص ٢٨-٢٩، وانظر د/ البدراوى زهران: أسلوب طه حسين فى ضوء الدرس اللغوى الحديث. دار المعارف ١٩٧٧ ص ٢٢.

(٢١٤) دلائل الإعجاز/ بتحقيق محمود شاكر ص ٤٣.

(٢١٥) السابق ص ٩٨.

(٢١٦) دلائل الإعجاز بتحقيق محمود شاكر ص ٨١-٨٢.

حقه، أو عومل بخلاف هذه المعاملة، فأزيل عن موضعه، واستعمل فى غير ما ينبغى له، فلا ترى كلاما قد وصف بصحة نظم أو فساده، أو وصف بمزية وفضل فيه، إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد وتلك المزية وذلك الفضل، إلى معانى النحو وأحكامه، ووجدته يدخل فى أصل من أصوله، ويتصل بباب من أبوابه"(٢١٧).

وتعريف البلاغة بأنها حسن التخير للفظ قد قال به بلاغيون آخرون غير عبد القاهر كذلك حيث عرّفوها بأنها "تخير اللفظ فى حسن الإفهام"(٢١٨).

ويعرف ابن وهب البلاغة بأنها "القول المحيط بالمعنى المقصود، مع اختيار الكلام، وحسن النظام وفصاحة اللسان".

ثم يقول:

"وإنما أضيف إلى الإحاطة بالمعنى **(اختيار الكلام)** لأن العامىّ قد يحيط قوله بمعناه الذى يريد، إلا أنه بكلام مرذول من كلام أمثاله فلا يكون موصوفا بالبلاغة"(٢١٩) فابن وهب يجعل سمة الاختيار هى السمة المفرّقة بين الكلام البليغ وغيره.

ومن ثم نتبين من كلام عبد القاهر وغيره من البلاغين والنقاد أن المستوى الفنى أو البلاغى من المعانى التى تدل عليها الصيغ أساسه الأول هو حسن التخير للصِيغة وموافقتها موضعها من الكلام.

كما يتبين لنا من خلال كلام عبد القاهر السابق أن الأساس الذى تتم عملية الاختيار بناء عليه، هو مراعاة الفروق بين المعانى الوظيفية لتلك الصيغ التى تشترك فيما بينها فى الدلالة على معنى ما، وهذا هو ما يقصده عبد القاهر بالنظر فى وجوه كل باب وفروقه؛ فالوجوه هى البدائل التى يتم الاختيار بينها فى كل باب من أبواب المعانى بحسب الفروق الدلالية التى تمتاز بها كل صيغة عن الأخرى.

ويتقدم بنا عبد القاهر خطوة أخرى حيث يفاضل بين المعانى على أساس ما يقع من تخير لألفاظها، فيقول: "اعلم أنه إذا كان بينا فى الشىء أنه لا يحتمل إلا الوجه الذى هو عليه حتى لا يشكل - وحتى لا يحتاج فى العلم بأن ذلك حقه وأنه الصواب -

---

(٢١٧) السابق ص ٨٢ - ٨٣.

(٢١٨) انظر البيان والتبيين ٦٣/١.

(٢١٩) ابن وهب الكاتب - البرهان فى وجوه البيان - ١٦٣.

إلى فكر وروية؛ فلا مزية. وإنما تكون المزية ويجب الفضل إذا احتمل فى ظاهر الحال غير الوجه الذى جاء عليه وجها آخر، ثم رأيت النفس تنبو عن ذلك الوجه الآخر، ورأيت للذى جاء عليه حسنا وقبولا تعدمهما إذ أنت تركته إلى الثانى"(٢٢٠).

فعبد القاهر يفرق هنا بين نوعين من المعانى:

الأول: المعنى الإجبارى أو العادى.

الثانى: المعنى الاختيارى أو الفني.

فالمعنى الأول: هو ما يجبرك على لفظه، فلا ترى فى الأمر مصنعا، ولا تجد للتخير سبيلا، على حد عبارة عبد القاهر(٢٢١).

وذلك أن من المعانى ما هو سطحى ساذج، ومكشوف واضح، له صيغة واحدة لا تشترك مع غيرها فى الدلالة عليه، وذلك كما لو أردت أن تعبر عن حضور زيد فى الماضى فتقول **(حضر)**.

فمثل هذا ونحوه من المعانى الوظيفية قد لا يستطيع المبدع التعبير عنه إلا بصيغة واحدة لا يحتمل المعنى غيرها، أما المعنى الفنى أو البلاغى، فمداره على حسن الاختيار للصيغ والألفاظ، فالمعانى الفنية معان دقيقة اختيرت صيغها وألفاظها من بين بدائل عديدة يمكن أن تعبر عن أصل المعنى المراد أو عن المعنى فى أبهى صورة، وأحلى حلة، وما يكون أكثر مواءمة وموافقة للمعنى الفنى الدقيق الذى يريد أن يعبر عنه أو يبالغ فيه أو يعمقه أو يعرضه فى صورة طريفة لم يسبق إليها.

والأمثلة على ذلك كثيرة يأتى ذكرها، والمقصد أن نبين أن الأساس الأول الذى يبنى عليه المعنى الفنى والبلاغى وتوظف به الصيغ توظيفا بلاغيا إنما هو الاختيار بين البدائل وبين الأشباه والنظائر(٢٢٢).

وذلك نتيجة لما سبق أن رجحه البحث فى الفصل الخاص بالحديث عن تعدد المعنى من أن التطابق التام يكاد يكون منعدما أو نادرا بين الصيغ؛ فالصيغ التى تبدو وكأنها مترادفة - فى حالة الإفراد - لا بد أن يظهر بينها فى الغالب بعض الفروق الدلالية الدقيقة التى تميز بين تلك الصيغ المتشابهة أو المتقاربة عند

---

(٢٢٠) السابق ٢٨٦.

(٢٢١) دلائل الإعجاز ص ٩٨.

(٢٢٢) هذا النوع من الاختيار يعرف فى الدراسات الأسلوبية الحديثة بالاختيار الاستبدالى انظر د/ علم الأسلوب ص ١٠٢.

التركيب بحيث لا تكاد تتشابه تلك الصيغ إلا فى حالة الإفراد فقط؛ بينما يظهر تميزها واستقلالها الدلالى واضحا فى حالة التركيب؛ ومن ثم يأتى دور المبدع فى ضرورة التأنى والوقوف للموازنة بين تلك الصيغ التى تبدو مترادفة أو متقاربة لاختيار الصيغة الأكثر مناسبة لسياقها.

ومن ثم فهو يراعى فى اختياره تلك الأسس التى سبق الإشارة إليها فى الباب الأول من المناسبة بين المبنى والمعنى من حيث الزيادة والنقصان، ومن حيث اختلاف السياقات والتراكيب.

وذلك أن غاية المشتغل بالبيان أن يفصح عن دقيق المعنى بدقيق اللفظ المطابق له الفارق له عن معنى سوى ما أراده وقصد إليه، فعامة المتكلمين باللغة من غير البيانيين لا يكادون يفرقون فى كلامهم بين دلالة الاسم ودلالة الفعل، ولذا يهتم عبد القاهر بتأكيد الفارق بينهما فيقول:

"وبيانه أن موضوع الاسم على أن يثبت به المعنى للشيء من غير أن يقتضى تجدده شيئا بعد شيء.

وأما الفعل فموضوعه على أنه يقتضى تجدد المعنى المثبت به شيئا بعد شيء"[٢٢٣].

ويوضح ذلك عبد القاهر بضرب أمثلة له فيقول: فإذا قلت: (**زيد منطلق**)، فقد أثبت الانطلاق فعلا له، من غير أن تجعله يتجدد ويحدث منه شيئا فشيئا، بل يكون المعنى فيه كالمعنى فى قولك: (**زيد طويل**) و(**عمرو قصير**): فكما لا تقصد هنا إلى أن تجعل الطول أو القصر يتجدد ويحدث، بل توجبهما فقط، وتقضى بوجودهما على الإطلاق، كذلك لا تتعرض فى قولك: (**زيد منطلق**) لأكثر من إثباته لزيد. وأما الفعل، فإنه يقصد فيه إلى ذلك فإذا قلت: (**زيد ها هو ذا ينطلق**) فقد زعمت أن الانطلاق يقع منه جزءا، وجعلته يزاوله ويزجيه"[٢٢٤].

إذا، كل من الاسم والفعل هنا يشتركان فى الدلالة على الانطلاق، ولكن المبدع الواعى بدلالة الألفاظ التى يقتضيها النظام اللغوى هو الذى يختار الصيغة المناسبة للمعنى الدقيق الذى يريده، وهذا المعنى الدقيق لا يعبر إلا صيغة واحدة، وهذا بناء على القول بمنع الترادف الصيغى.

---

(٢٢٣) دلائل الإعجاز ص ١٧٤.

(٢٢٤) دلائل الإعجاز ص ١٧٤.

ويستشهد عبد القاهر لما قرره بشاهدين، أحدهما يلطف فيه إدراك الفرق بين الاسم والفعل، والثانى الفرق فيه واضح بحيث لا يخفى. فاستشهد لما يلطف بقول الشاعر:

لا يألفُ الدرهمُ المضروبُ صرَّتنا   لكن يمرُّ عليها وهو منطلقُ

ثم يعلق عليه بقوله:

"هذا هو الحسن اللائق بالمعنى، ولو قلته بالفعل: "لكن يمر عليها وهو ينطلق "لم يحسن".

ثم يمثل لما لا يخفى بقوله تعالى: **﴿وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾** (الكهف: ١٨) ثم يعلق عليه قائلا: "فإن أحدا لا يشك فى امتناع الفعل ههنا، وأن قولنا: **﴿كَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ﴾** لا يؤدى الغرض، وليس ذلك إلا لأن الفعل يقتضى مزاولة وتجدد الصفة فى الوقت، ويقتضى الاسم ثبوت الصفة وحصولها من غير أن يكون هناك مزاولة وتزجية فعل، ومعنى يحدث شيئا فشيئا، ولا فرق بين "وكلبهم باسط" وبين أن يقول: "وكلبهم واحد" مثلا فى إنك لا تثبت مزاولة، ولا تجعل الكلب يفعل شيئا، بل تثبته بصفة هو عليها. فالغرض إذن تأدية هيئة الكلب"[٢٢٥].

فتأمل تلك التحليلات للأساليب يكشف بوضوح عن أن الصيغة لا تكتسب المزية فى نظر البلاغيين إلا إذا كانت هناك صيغة أخرى صالحة لأداء وظيفتها العامة من جهة، وقاصرة عن أداء ما تؤديه فى سياقها الخاص من جهة أخرى. ومن ثم كانت المقارنة بين الصيغتين الأصلية أو المنتقاة والبديلة أو المفترضة هى المنهج الذى سار عليه البلاغيون فى تحليل مزية الأولى[٢٢٦]. فعبد القاهر يقف أمام الصيغة التى أتى بها المبدع فى كلامه ويقارنها بما يشترك معها فى أداء أصل المعنى أو إن شئت قلت: إنه يبحث عن البدائل أو الإمكانات التى يتيحها نظام اللغة فى مثل هذا المقام والتى يصح بها كلام المتكلم إذا ما أراد مجرد الصحة اللغوية المعبرة عن أصول المعانى دون دقيقها وخاصيّها.

فقول الشاعر: (**لكن يمر عليها وهو منطلق**) يصح فيه - من جهة الوضع اللغوى المعبر عن إثبات الانطلاق فى هذا البيت -، أن نعبر عنه مثلا بصيغة الفعل المصارع (**ينطلق**)؛ هذا إذا ما أردنا مجرد الصحة اللغوية، أو الدلالة النمطية؛ أما

---

(٢٢٥) دلائل الإعجاز ص ١٧٥.

(٢٢٦) د/ حسن طبل/ المعنى فى البلاغة العربية ص ٢٣٠.

من جهة الدلالة الفنية فلا شك أن صيغة اسم الفاعل التى اختارها الشاعر هى أكثر صوابا من الناحية الفنية.

ولذا ينظر عبد القاهر فى اللفظ المختار ويقارن بينه وبين بديله أو شبيهه فى هذا الموضع بناء على المعانى الوظيفية المستقرة لتلك الصيغ.

ولما كان المراد فى البيت هو المبالغة فى الإنفاق حتى لا يكون للدرهم قرار بصرة المثنى عليه كذلك، كان الأنسب أن يعبر بالاسم **(منطلق)** الذى يفيد ثبوت المعنى من غير أن يقتضى تجدده شيئا بعد شىء؛ لأنه لو اقتضى ذلك بدلالة الفعل لكان فيه دليل على أن القرار غير دائم ولكنه ينقطع ويتجدد مما ينافى تمام المبالغة فى نفى القرار عن الدرهم بصرة الممدوح، وهذه الطريقة هى أكثر مبالغة فى تأدية المعنى وأوفى بحق البلاغة من الطريق الأخرى، فكان الحكم لها، والقضاء برجحانها على غيرها.

وعلى نحو ذلك مضى عبد القاهر فى المقارنة بين التعبير بالاسم والتعبير بالفعل فى قوله تعالى: **﴿وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾** (الكهف:١٨)

ويرى عبد القاهر أن الفرق هنا بين التعبير بالاسم والفعل واضح بين؛ فإن أحدا لا يشك فى امتناع الفعل ههنا، وإن قولنا: "كلبهم يبسط ذراعيه" لا يؤدى الغرض.

ويعلل ذلك بما للاسم والفعل من وظيفة محددة، لدى العارفين باللغة.

ولقد حظى التفريق بين دلالتى الاسم والفعل باهتمام كثير من البلاغين[٢٢٧].

كما يدخل فى الاختيار كذلك وقوف البلاغيين على المناسبة بين المبنى والمعنى من حيث الزيادة والنقصان، وقد سبق أن بينت ذلك بالتفضيل فى المبحث الخاص بالعلاقة بين الصيغة والمعنى.

وثمة إشارات تأتى بعد ذلك متناثرة من نحو وقوف السكاكى وغيره من البلاغيين حول الاستغراق فى المفرد والجمع ليقرر أن استغراق المفرد يكون أشمل من استغراق الجمع، ثم يقول "ومن هذا يعرف لطف ما يحكيه تعالى عن زكريا عليه

(٢٢٧) وذلك عند حديثهم عن الحالة التى تقتضى كون المسند اسما أو فعلا. وسيأتى التعرض لبعض ما ذكروه من الأمثلة عند تطبيق أسس التوظيف البلاغى للصيغة على الأسماء والأفعال والصفات. انظر على سبيل المثال: المفتاح/ المطبعة الأدبية ص ١١٢ الإيضاح بتعليق د/ خفاجى ص ١٧٧، ٢٤١- ٢٤٥، الإشارات والتنبيهات ص ٦٥، شروح التلخيص٢/١٩-٢٠-٢٥-٣٠، شرح عقود الجمان١/١٠٦ مفتاح العلوم ص ١٢٢-ط٢ مصطفى الحلبى-١٤١١هـ ١٩٩٠م، وانظر التبيان للطيبى١/١٦٠.

السلام: ﴿ ربِّ إني وهن العظمُ مني﴾ (مريم: ٤). دون وهنت العظام، حيث توصل باختيار اللفظ إلى الإطناب فى معناه[1].

وهذا - إن دل على شيء - فإنما يدل على مدى وعى هؤلاء البلاغيين بما بين الصيغ من فروق دلالية، حيث استطاعوا أن يفيدوا من تلك الفروق فى تحليلاتهم البلاغية لتلك الصيغ القائمة على اعتبار الاختيار بين تلك الصيغ - بما تحمله من تلك الفروق الدلالية - هو الأساس الأول للتوظيف الفنى أو البلاغى لصيغة الكلمة.

وعلى أساس الوعى بهذا التمايز الدلالى بين البدائل المتشابهة فى جانب الصيغ تتلاقى الدراسات الأسلوبية الحديثة مع الدراسات البلاغية القديمة فى تراثنا البلاغى فى هذه النقطة.

وقد سبق أن عرضنا لإسهام الدراسات الأسلوبية الحديثة في ذلك في بداية كتابنا هذا ، بما يغني عن إعادة الكلام فيه.

النماذج التفصيلية للاختيار فى الصيغ

تمهيد

يقوم البحث هنا بعرض عدد من النماذج التى تم توظيف الصيغ فيها توظيفا بلاغيا على أساس الاختيار، وذلك بغية الوقوف على الإعجاز الأسلوبي لتلك الصيغ فى سياقاتها القرآنية الرفيعة ، مراعيا فى تحليلها ما انتهى إليه البحث فى فصوله السابقة، ومنتفعا بتحليلات البلاغيين فى مباحث البلاغة النظرية، وتحليلات المفسرين وشراح الحديث والدواوين الشعرية التى كانت أوسع أفقا- وأكثر تناولا للعديد من الصيغ المتنوعة التى وردت فى سياقات مختلفة- من تلك الدراسة النظرية التى اقتصرت - غالبا - على عدد محدود من النماذج، فضلا عن عدم تجاوزها - غالبا - صيغتى الاسم والفعل إلى ما يندرج تحت كل منهما من صيغ عديدة حفلت بها كثير من النماذج الأدبية الرفيعة مع توظيفها توظيفا فنيا وبلاغيا يصل إلى حد الإعجاز فى نماذجه القرآنية، وإلى درجات عالية من البلاغة فى ما عداه من النماذج، مما سيعرض البحث أمثلته فيما يلى.

١ - اختيار صيغ الاسم:

أحب أن أشير هنا إلى أمر يتعلق بطبيعة المعالجة للأمثلة التى يتعرض لها البحث فى هذا الموضع، وهى أن البحث قد عنى بعرض أمثلة الاختيار للصيغة المختارة دون تقيد بالبديل المطروح لها فى تلك السياقات؛ وذلك لأن البدائل للصيغة الواحدة قد تتعدد، وتتنوع؛ فالمصدر مثلا قد يحل محله الفعل أو اسم الفاعل، أو اسم المفعول، أو غير ذلك على نحو ما سبق بيانه فى مبحث الدلالة بين تعدد الصيغة وتعدد المعنى.

ومن ثم سيكون العنوان لتلك المعالجة مثلا (**اختيار صيغة المصدر**) دون أن نقيد ذلك بالبديل، وذلك تفاديا للتكرار، وكثرة التقسيمات والعناوين، ولكيلا يتشتت بحث الظاهرة الواحدة فى أكثر من موضع.

كما أشير هنا إلى أن هذا المنهج هو ما سوف نتبعه كذلك عند عرض أمثلة العدول، والتكرار.

وقد استغنيت بالإشارة هنا عن إعادة ذلك فى موضعه.

اختيار صيغة المصدر (**فعلان**)

فمن ذلك ما جاء فى قوله تعالى: **﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾** (العنكبوت: ٦٤).

حيث جاء اختيار صيغة (**الفعلان**) للتعبير عن الحياة فى الدار الآخرة بما تشتمل عليه من حركة ونشاط وابتهاج وخفة النفس واهتزازها مع دوام ذلك واستمراره وتجدد ألوانه، وذلك فى مقابل الحياة الدنيا - حياة اللهو واللعب - بما تشتمل عليه من انكسار وسأم من رتابة صور الحياة وتكرارها بلا تجدد، مع سرعة انقطاع لذاتها، وزوال نعيمها، وتحول عافيتها.

ولذا قال الزمخشرى "وفى بناء الحيوان زيادة معنى ليس فى بناء الحياة وهى ما فى بناء فعلان من معنى الحركة والاضطراب كالنزوان والنغصان واللهبان وما أشبه ذلك، والحياة حركة كما أن الموت سكون فمجيؤه على بناء دال على معنى الحركة مبالغة فى معنى الحياة ولذلك اختيرت على الحياة فى هذا الموضع المقتضى للمبالغة(٢٢٨).

من أمثلة اختيار المصدر فى الشعر

ومما جاء فى الشعر من أمثلة اختيار المصدر، قول الخنساء:

ترتع ما رتعت، حتى إذا ذكرت فإنما هى إقبال وإدبار

قال الإمام عبد القاهر "جعلها لكثرة ما تقبل وتدبر، ولغلبة ذاك عليها، واتصاله منها، وأنه لم يكن لها حال غيرها، كأنها قد تجسمت من الإقبال والإدبار"(٢٢٩).

ومن ثم فقد جعلتها حقيقة الإقبال والإدبار وكأنها قد تمحضت إقبالا وإدبارا، وقد حسن وصفها بذلك للدلالة على تكرار هذا الفعل منها وغلبته عليها، وملازمتها له، وثبوتها عليه؛ حتى لم يكن لها شغل غيره؛ ومن ثم حسن اختيار صيغة المصدر هنا على ما عداها كصيغة الفعل، كما لو قالت: فإذا هى تقبل وتدبر.

ومن ذلك قول النابغة:

فعد عما ترى، إذ لا ارتجاع له وانم القتود على عيرانه أجد(٢٣٠)

حيث استخدم الشاعر صيغة المصدر (**ارتجاع**) وهى من الفعل (**افتعل**) الذى يأتى لمعان منها المبالغة كما فى هذا السياق، وقد زاد هذه المبالغة اختيار صيغة المصدر منفية لنفى الارتجاع فى حقيقته وأصله، وجاء به على صيغة الافتعال ليدل على المبالغة فى نفى رجوع هذا الشىء حتى مع الاجتهاد والمبالغة فى

---

(٢٢٨) انظر الكشاف ١٥٩/٣ وانظر أبو السعود ٤٧/٧، والنظر ما سبق نقله عن سيبويه فى معنى الفعلان فى الفصل الخاص بالمناسبة بين الصيغة والمعنى.

(٢٢٩) دلائل الإعجاز ص ٣٠٠ بتحقيق الشيخ محمود شاكر.

(٢٣٠) ديوان النابغة ص ١٠.

إرجاعه. ومن ثم تميز يظهر تلك الصيغة على غيرها من الصيغ كالرجوع أو الإرجاع.

اختيار صيغة اسم المرة

من المواضع التى وظفت فيها صيغة اسم المرة توظيفا بليغا قول الله تعالى فى سورة الدخان:﴿ **كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ**﴾ (الدخان ٢٥-٢٧ وفى سورة المزمل: ﴿**وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً * إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيماً * وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ وَعَذَاباً أَلِيماً**﴾ (المزمل ١١:-١٣) حيث جاء بناء النعمة فى الآيتين بناء اسم المرة، وكان يمكن مجيؤه على غيرها من المصادر كالتنعم أو الإنعام أو النعمة بالكسر أو غير ذلك، إلا أن الآية قد آثرت هذه الصيغة، قال الرازى "والنعمة والتنعم وبناؤها بناء المرة من الفعل كالضربة والشتمة" ولم يزد الزمخشرى فى هذا الموضع على أن بين أن "النعمة بالفتح التنعم، وبالكسر الإنعام، وبالضم المسرة" وتابعه على ذلك أغلب المفسرين بعده، ناقلين كلامه بنصه(٢٣١).

وزاد الألوسى فى موضع آخر(٢٣٢) على كلام الزمخشرى فى قوله تعالى:﴿ **كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ**﴾ (الدخان: ٢٥-٢٧) فقال "واختير ههنا تفسير النعمة بالشىء المنعم به لأنه أنسب للترك، وهى كثيرا ما تكون بهذا المعنى" وذلك بعد نقله لكلام الراغب فى مجيئها على بناء المرة.

وهذا التعليل ليس تعليلا لمجىء بنائها على صيغة المرة، كما أشار إليه الراغب، وإن كان هو الآخر لم يعلل كذلك كجملة المفسرين: لم جاءت الكلمة على هذه الصيغة دون غيرها من صيغ المصادر؟.

والذى أراه فى تعليل ذلك – والله أعلم أن وجه الإفراد فى سورة الدخان شبيه بما وجه به الزمخشرى الإفراد فى قوله تعالى:﴿ **عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ**﴾ (التكوير:١٤)

---

(٢٣١) انظر المفردات ص٤٩٩، الكشاف١٥٥/٤، وانظر ٤٣٢/٣، وانظر مفاتيح الغيب ١٤٩/١٤، ٨٠٩/١٥، روح المعانى ١٠٧/٢٩، المحرر الوجيز٧٢/٥، ٣٨٩، الدر المصون ١١٤/٦، ٤٠٧، بصائر ذوى التمييز ص ٩٠.

(٢٣٢) انظر روح المعانى ١٢٣/٢٥.

وحاصله أنه "من عكس كلامهم الذى يقصدون به الإفراط فيما يعكس عنه... إلخ كلامه"(٢٣٣).

فكأن المتكلم هنا سبحانه يتبرأ من التزيد عليهم وأنه يستقل كثير نعمه على عباده فضلا أن يتزيد، فكأن قال **(ورب نعمة كانوا فيها فاكهين)**، فيقول السامع **(بل كانوا فى نعم كثيرة)**، فيكون من باب تقرير المخاطب بالحجة وإلزامه بها بطريق غير مباشر، وهو من البلاغة بمكان.

فضلا عما فى الإفراد بصيغة المرة من الدلالة على كونها نعمة محتقرة لدى الرب لا وزن لها عنده لأنها نعمة الدنيا لا نعمة الآخرة، وإن كانت عند المخاطب بمكان عظيم.

وقد يقال إن المقام هنا مقام تكثير النعم لا تقليلها لابتدائه بكم الخبرية المفيدة للكثرة؛ فنقول لذا فإن النكتة فى الإفراد هى احتقار تلك النعم على كثرتها وتوحيدها يدل على أنها فى مجموعها لا تكاد توازى نعمة مفردة من نعم الآخرة.

ولعل هذا هو الوجه فى مجيئها على بناء المرة كذلك فى الموضع الثانى فى قوله تعالى فى سورة المزمل: **﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً﴾** (المزمل :١١) فكأنه قال "ذرنى وهولاء المكذبين أصحاب تلك النعمة المحتقرة نعمة الدنيا ومهلهم قليلا حيث تزول عنهم تلك النعمة فى الآخرة، فإنما هى نعمة واحدة يتنعمون بها فى الدنيا ولذا فقد قرر رسول الله ﷺأن لهم الدنيا، وأن لنا الآخرة" ويزداد الإحساس بجمال صيغة المرة فى هذا الموضع بمقابلتها بما أعده الله تعالى لهؤلاء المكذبين من العذاب فى الدار الآخرة مجموعا لا مفردا مما يدل على أنهم يضاعف لهم العذاب فى الآخرة جزاء إعراضهم عن شكر نعمة المنعم فى الدنيا، ولذا عقب الله تعالى تلك الآية بقوله تعالى: **﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيماً *وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ وَعَذَاباً أَلِيماً﴾** ومن ثم يظهر التقابل بين هذه النعمة الحقيرة المفردة، وما جلبته عليهم من صنوف العذاب وألوانه المتعددة.

كما يظهر جليا فى هذين الموضعين دور صيغة المرة فى الدلالة على التحقير، وعكسه وهو المبالغة والتكثير كما فى الموضع الأول.

ومن أمثلة ذلك فى الشعر قول ابن المعتز:

وإنى على إشفاق عينى من العدى   لتجمح منى نظرة ثم

٢٠١

---

(٢٣٣) انظر الكشاف ١٨٩/٤ وسيأتى بتمامه فى اختيار صيغة المفرد.

قال عبد القاهر معلقا عليه: "فترى أن هذه الطلاوة وهذا الظرف، إنما هو لأن جعل النظر "يجمح" وليس هو لذلك. بل لأن قال أول البيت "وإنى حتى اللام فى قوله "التجمح" ثم قوله: "منى" ثم لأن قال "نظرة" ولم يقل "النظر" مثلا ثم لمكان "ثم" فى قوله: "ثم أطرق" وللطيفة أخرى نصرت هذه اللطائف وهى اعتراضه بين اسم "إن" وخبرها بقوله: "على إشفاق عينى من العدى"[٢٣٤].

فاختيار الشاعر لصيغة اسم المرة(**نظرة**) دون المصدر(**نظر**) جاء مناسبا لمقام الخوف والإشفاق من العدى، حيث يسترق النظر، فناسب ذلك التعبير باسم المرة (**نظرة**)

وبنحوه كذلك قول المجنون:

وإنى لأستغشى وما بى نعسة لعل خيالا منك يلقى خياليا[٢٣٥]

حيث جاء التعبير فيه باسم المرة منفيا متجاوبا مع مقام المبالغة فى الأرق والسهاد لكثرة الوجد والشوق؛ ومن ثم يكون استغشاء الشاعر وطلبه للنوم واجتهاده فى تحصيله مجرد محاولة فاشلة منه لا للرغبة فى النوم بل لتمنى أن يطوف خيال محبوبته بخياله؛ ومن ثم يبدو تميز تلك الصيغة على نظائرها كـ (**نعاس**) مثلا.

اختيار صيغة اسم الفاعل

من أمثلة اختيار اسم الفاعل ما سبق بيانه في قوله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾ (الملك: ١٩).

ومنه في أشعار العرب قول النابغة فى اعتذاره إلى النعمان:

فإنك كالليل الذى هو مدركى وإن خلت أن المنتأى عنك واسع[٢٣٦]

آثر النابغة فى هذا البيت صيغة اسم الفاعل (**مدرك**) على صيغة المضارع (**يدرك**) مثلا، وذلك لأنه ليس بصدد مجرد إثبات الحدث (**الإدراك**)، وإنما هو بصدد إثبات وقوع ذلك الإدراك لا محالة، ومن ثم فالتعبير عهنا باسم الفاعل قد دل على زيادة وقوع الحدث ودل على ثبات هذا الوصف أيضا وعدم تحوله.

---

(٢٣٤) دلائل الإعجاز بتحقيق شاكر ص ٩٨-٩٩.

(٢٣٥) انظر أسرار البلاغة لعبد القاهر ص ٢٧٦ بتحقيق رينر/ استانبول مطبعة المعارف س ١٩٥٤.

(٢٣٦) ديوان النابغة/ شرح وتقديم عباس عبد الساتر ط دار الكتب العلمية ص ٥٦.

وقد ناسب ذلك السياق أتم مناسبة حيث يقول النابغة فى الأبيات قبله:

لكلفتنى ذنب امرىء، وتركته كذى العر يكوى غيره وهو راتع

فإن كنت لا ذو الضغن عنى مكذب ولا حلفى على البراءة نافع

ولا أنا مأمون بشىء أقوله وأنت بأمر لا محالة واقع

فإنك كالليل الذى هو مدركى ....

أى كأنه يقول له لئن كان الأمر كذلك ولا ينفعنى اعتذارى ولا حلفى لديك، فإنك سوف تدركنى بعقابك لا محالة، فإدراكك لى ثمة ثابت ثبوت الليل فى مجيئه بلا تخلف. وقد حسن التعبير هنا اسم الفاعل فى قوله (**مدركى**) بعد تعبيره باسم الفاعل.

فى الأبيات السابقة، حيث رتب ثبوت إدراكه له بعقوبته على ثبوت وقوع أمر النعمان فيه، وعدم انتفاعه بحلفه واعتذاره.

ومن ذلك قوله فى قصيدة أخرى:

ولست بمستبق أخا لا تلمّه على شعث أى الرجال المهذب[٢٣٧]

حيث اختار صيغة اسم الفاعل (**مستبق**) على غيرها من الصيغ كالمضارع مثلا؛ وذلك للغرض السابق نفسه، وهو الدلالة على الاتصاف بهذا الفعل على جهة الثبات، وقد سبقه بأداة النفى (**لست**) ليدل على عدم ثبات ذلك واطراده. وقد جاء متسقا مع غرض الاعتذار فى القصيدة ليقرر للنعمان أن المودة الصادقة لا تذهب بها الهنات، ولا تمنع من دوامها، وفيه ترقيق لقلب النعمان وتهوين عليه ما ساءه منه.

من أمثلة الاختيار المتكلف لاسم الفاعل قول البستى:

إذا ملك لم يكن ذا هبه فدعه فدولته ذاهبه[٢٣٨].

حيث تعمد الشاعر الإتيان بصيغة اسم الفاعل (**ذاهبة**) لإحداث إيقاع متكلف، وليس هذا تكرار للصيغة لأن (**ذاهبة**) الأولى بمعنى صاحب هبة.

---

(٢٣٧) السابق ص ٢٨.

(٢٣٨) انظر نهاية الإيجاز ص ١٣٢.

أو كقول البستى أيضا:

كلكم قد أخذ الجام ولا جام لنا   ما الذى ضر مدير الجام لو جاملنا(٢٣٩)

حيث أتى بصيغة الماضى (**جاملنا**) ليجانس قافية البيت الأول (**جام لنا**) متكلفا لأجل الإيقاع. ولا يحسن ذلك بغير استكراه ولا تكلف.

اختيار صيغة المبالغة

فمن ذلك صيغة (**فعّال**):

ومن أمثلتها ما ورد فى سورة الشعراء فى قصة موسى على لسان فرعون: **﴿قَالَ لِلْمَلأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ * قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾** (الشعراء: ٣٤-٣٧)

حيث جاء التعبير بصيغة المبالغة سحّار فى هذا الموضع دالا على مقابلة الملأ وصف فرعون لموسى بالسحر وتأكيده على أنه يريد أن يخرجهم من أرضهم (**بسحره**) فناسب ذلك أن يقابلوا ذلك بالوصية بالإتيان بكل سحار عليم يفوق سحره سحر موسى.

وتتضح هذه النكتة حينما نقف على سياق القصة المشابه فى سورة الأعراف حيث يقول الله تعالى على لسان الملأ من قوم فرعون: **﴿قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ* قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ* يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾** (الأعراف: ١٠٩-١١٢).

وقد علل بعضهم مجيء صيغة المبالغة فى الشعراء دون الأعراف بان المبالغة فى الشعراء مناسبة لقول فرعون (**إن هذا لساحر عليم**)(٢٤٠).

ولكن يضعف من هذا التعليل أن الملأ قد وصف موسى كذلك فى الشعراء بأنه (**ساحر عليم**) وأرى أنه لم تأت المبالغة (**سحار**) فى سورة الأعراف؛ لأنه لم ينص على أن المحذور - وهو إخراج موسى لهم من أرضهم - إنما يقع (**بسحره**) فلم تذكر هذه الكلمة فى سورة الأعراف، ومن ثم لم تقابل بصيغة المبالغة (**سحار**) فى وصف السحرة، فكأن الملأفى هذا الموضع لم يتصور أن ما جاء به موسى - وهو ما

---

(٢٣٩) انظر نهاية الإيجاز ص ١٣٢.

(٢٤٠) انظر تفسير الرازى ١٢٠/١٢ والكرمانى ص ٨١.

وصفوه بكونه سحرا - يكون له من القوة والتأثير أن يخرجهم من أرضهم، فمن لا يحتاج إبطال سحره إلى الإتيان بمهرة السحرة. أما فى سورة الشعراء فإن الكلام فيها على لسان فرعون - لا الملأ - وهو يؤكد لهم أن معجزة موسى - عليه السلام - والتى سماها فرعون سحرا - تبلغ من القوة والتأثير أن يخرجهم موسى من أرضهم بها.

ومن ثم بالغوا له فى وصف السحرة الذين يوتى بهم لإبطال معجزة موسى عليه السلام.

ويمكن أن يقال إنه لما كان الواصف لموسى عليه السلام فى هذا الموضع بالسحر هو فرعون؛ لذا "جاءوا بكلمة الإحاطة وبصيغة المبالغة ليطيبوا قلبه، وليسكنوا بعض قلقه"[٢٤١].

ومن أمثلة الاختيار فى صيغ المبالغة أيضا اختيار صيغة المبالغة **(فُعّال)**:

من ذلك ما جاء فى قوله تعالى على لسان نوح عليه السلام فى وصف حال قومه **﴿وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً﴾** (نوح: ٢٢)

و**(كُبَّاراً)** بناء مبالغة أبلغ من كبار بالضم والتخفيف"[٢٤٢]

قال الألوسى "**مَكْراً كُبَّاراً**" أى كبيرا فى الغاية فهو من صيغ المبالغة... وقد سمع بعض الأعراب الجفاة رسول الله ﷺ يقرأ هذه الآية فقال "ما أفصح ربك يا محمد"[٢٤٣].

وقد كان مكر قوم نوح من" الروءساء ومكرهم احتيالهم فى الدين وكيدهم لنوح، وتحريش الناس على أذاه، وصدّهم عن الميل إليه والاستماع منه"[٢٤٤].

---

(٢٤١) الرازى ١٢٠/١٢، وأحب أن أنبه إلى أن أكثر المفسرين قد انشغلوا فى هذا الموضع بمجيء الكلام المذكور على لسان فعون فى سورة الشعراء؛ وعلى لسان الملأ فى سورة الأعراف، فانشغلوا بذلك عن تأمل ما ذكرت، وقد التفت بعضهم إلى اختلاف الصيغة فى السورتين ولكنه لم يحسن توجيه ذلك الاختلاف. (انظر على سبيل المثال الكشاف٨١/٢، الألوسى ٢٢/٩-٢٣، مفاتيح الغيب ٢٢٨/٧، مسائل الرازى ص ٩٧.

(٢٤٢) انظر الدر المصون٣٨٥/٦، وانظر الكشاف ١٤٣/٤، والمحرر الوجيز ٣٧٥/٥ ٣٧٦، روح المعانى ٧٦/٢٩ ٧٧.

(٢٤٣) انظر الألوسى٧٦/٢٩.

(٢٤٤) انظر الكشاف١٤٣/٤.

وإذا كان هذا هو مكرهم فلا جرم كان هذا المكر مكرا كبارا، ولذا آثر القرآن هذه الصيغة المشددة دون الصيغة المخففة كبارا أو كبيرا للدلالة على شدة هذا المكر وقوته.

فإذا أضفنا إلى ذلك مجيء تلك الصيغة موافقة للفاصلة التى قبلها وأغلب الفواصل بعدها، فلا جرم كانت تلك الصيغة قد وظفت توظيف بليغا حسن به الشكل والمعنى فضلا عما دلت عليه من تلك النكتة البليغة.

اختيار الصفة المشبهة

من ذلك ما جاء فى قول الله تعالى فى وصف قوم نوح **﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً عَمِينَ﴾** (الأعراف:٦٤)

حيث آثرت الآية التعبير عن وصف هؤلاء المكذبين بالصفة المشبهة على غيرها من الصيغ كاسم الفاعل مثلا (**عامين**).

ونستطيع أن نتبين سر اختيار هذه الصيغة إذا ما راجعنا سياق الآية من أوله، قال تعالى: **﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾** (الأعراف: ٥٩-٦٠)

حيث نجد أن الملأ من قوم نوح قد برروا تكذيبهم لنبيهم بادعائهم ضلاله، وكان طريق إثبات هذه الدعوى الكاذبة هو افتراؤهم عليه بإثبات رؤيتهم له فى ضلال مبين، ولما كان أساس تلك الدعوى الكاذبة هو ادعاء الرؤية المبالغ فى إثباتها بإن واللام، واستخدم حرف الجر(**فى**) الدال على انغماسه فى الضلال وإحاطته به، فضلا عن ادعاء كون ذلك الضلال بينا واضحا - أقول لما كان أساس تلك الدعوى هو تلك الرؤية الكاذبة المبالغ فيها على هذا النحو؛ ناسب هذا السياق أن يبالغ فى وصف هؤلاء المكذبين بوصف مقابل لذلك بطريقة أبلغ مما يقتضى إثبات العمى لهم بصيغة دالة على الثبات واللزوم تناسب ما هم عليه من انطماس بصائرهم.

ولذا قال الزمخشرى: "(**عمين**) عمى القلوب غير مستبصرين، وقرئ (عامين)، والفرق بين العمى والعامى أن العمى يدل على عمى ثابت والعمى على عمى حادث"[٢٤٥].

---

(٢٤٥) الكشاف ٦٨/٢وانظر الألوسى ١٥٤/٨، الدر المصون ٢٨٩/٣.

ويوضح الطيبى ذلك ويعلله بقول: "الدلالة الصفة المشبهة على الثبوت... ولأن اسم الفاعل دونها فى الدلالة على الثبوت"[٢٤٦].

اختيار صيغة (فعيل) بمعنى (مفعول)

من المعانى التى تأتى لها صيغة فعيل أن تكون بمعنى اسم المفعول[٢٤٧].

ومن المواضع التى اختيرت فيها صيغة فعيل على اسم المفعول: قوله تعالى: **﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾** (يس :٣٢)

وقوله تعالى **﴿إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾** (يس :٥٣)

وقوله تعالى **﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾** (القمر: ٤٤)

فلفظ (**جميع**) فى هذه الآيات هو فعيل بمعنى مفعول فهو بمعنى (**مجموع**)[٢٤٨].

وقال الرازى فى قوله تعالى**﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾** فيه فائدتان: إحداهما الكثرة والأخرى الاتفاق. كأنه قال نحن كثير متفقون فلنا الانتصار. ولا يقوم غير هذه اللفظة مقامها من الألفاظ المفردة. إنما قلنا فيه فائدتان لأن الجمع يدل على الجماعة بحروفه الأصلية من"ج م ع" وبوزنه وهو فعيل بمعنى مفعول على أنهم جمعوا جمعيتهم العصبية"[٢٤٩].

ولعل فيما ذكره د/ محمود ياقوت فى التفرقة بين فعيل ومفعول ما ييسر الطريق إلى فهم سر الاختيار فى هذه الآيات حيث يقول "ولقد رأينا أن صيغة (**فعيل**) تأتى بمعنى (**مفعول**)، وبين الصيغتين فرق من حيث المعنى، وهو أن فعيلا أبلغ.. فإنه يقال لمن جرح فى أنملته (**مجروح**) ولا يقال (**جريح**) فعلى هذا (**كحيل**) أبلغ من (**مكحول**) [٢٥٠].

---

(٢٤٦) فتوح الغيب للطيبى تحقيق د/ جميل الحسين المحمود/١/٥٧٥.

(٢٤٧) انظر د/ على طلب/ صيغة فعيل واستعمالاتها ص ١٣.

(٢٤٨) انظر الكشاف ٣/٢٨٥، الدر المصون ٥/٤٨٣، روح المعانى ٦/٢٣.

(٢٤٩) انظر الرازى ٦/٢٣.

(٢٥٠) انظر د/ محمود سليمان ياقوت - ظاهرة التحويل ص ٧٨ ٧٩ - دار المعرفة الإسكندرية.

وهذا يعنى أن (**كحيلا**) وإن كانت بمعنى اسم المفعول إلا أن مجيئها على صيغة من صيغ المبالغة قد أفاد معنى المبالغة مع معنى المفعولية وهو ما سميناه من قبل بالتراكب الصيغى.

وفى رأيى أن السر فى ذلك هو - والله أعلم - أن صيغة فعيل لها ظلال وإيحاءات متعددة فهى تأتى للمبالغة، وتأتى صفة مشبهة وتأتى مصدرا وغير ذلك، فقد يكون السر فى اختيارها هو الإفادة من ظلال تلك الصيغة المتعددة المعنى، حيث يتسلل إلى المعنى الأصلى فى هذا الموضع - وهو دلالتها على معنى اسم المفعول (**مجموع**) - يتسلل معنى المبالغة، كما يتسلل معنى الصفة المشبهة الدالة على الثبات واللزوم.

فأقول إن هذه المعانى تتسلل إلى الصيغة وإن كانت هى فى نفسها ليست صيغة مبالغة ولا صفة مشبهة، ولكنها قد جاءت على وزن شبيه بأوزانهما ومن ثم توحى صيغتها بمعانى تلك الصيغ أيضا من المبالغة وثبات صفة الاجتماع لهم وغير ذلك.

وثمّة علة أخرى أراها لهذا الاختيار، وهى أن اسم المفعول يوحى بمعنى الحدث أكثر من الصفة المشبهة الدالة على ثبات الحدث وتأصله، فالصفات: عظيم كريم شريف، لا تدل على الحدوث بقدر ما تدل على تأصل الصفة فى صاحبها.

ولما كان المعنى المقصود فى تلك الآيات ونظائرها هو صفة الجمع نفسها لا حدث الجمع، لذا اختارت الآيات عن صيغة (**فعيل**) التى توحى بثبات الصفة وتأصلها أكثر من إيحائها بمعنى الحدث.

من ذلك أيضا قوله تعالى: ﴿**فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ* وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ**﴾(الشعراء: ٥٣-٥٦).

حيث قرىء (**حذرون وحاذرون**) بالصفة المشبهة واسم الفاعل- قال الرازى: "أما الذى وصف فرعون به قومه فهو قوله (**وإنا لجميع حاذرون**) وفيه ثلاث قراءات حذرون، وحاذرون، وحادرون بالدال غير المعجمة.

- واعلم أن الصفة إذا كانت جارية على الفعل وهى اسم الفاعل واسم المفعول - كالضارب والمضروب - أفادت الحدوث - وإذا لم تك كذلك - وهى المشبهة - أفادت الثبوت.

فمن قرأ (**حذرون**) ذهب إلى أنا قوم من عادتنا الحذر واستعمال الحزم.

ومن قرأ (**حاذرون**) فكأنه ذهب إلى معنى إنا قوم ما عهدنا أن نحذر إلا فى عصرنا هذا"[٢٥١].

فكأن قراءة الصفة المشبهة إنما جاءت لتعبر عن كون الحذر عادة لآل فرعون، أو هكذا يدعى فرعون ليكون ذلك عذرا يعتذر به إلى أهل المدائن عن ذلك الاحتشاد الهائل من فرعون وجنده لموسى ومن معه من المؤمنين. قال الزمخشرى: (**ونحن قوم من عادتنا التيقظ والحذر واستعمال الحزم فى الأمور فإذا خرج علينا خارج سارعنا إلى حسم فساده. وهذه معاذير اعتذر بها إلى أهل المدائن لئلا يظن به ما يكسر من قهره وسلطان**)[٢٥٢].

فعلى قراءة (**حذرون**) أفادت الآية كون الحذر صفة ثابتة لفرعون وآله، أو هكذا يدعى.

أما على قراءة (**حاذرون**) فإنها تدل على حدوث الحذر وتجدده لديهم وأن ثمة ما يقتضى تجدد هذا الحذر لديهم وهو ظهور شوكة موسى ومن معه[٢٥٣].

اختيار اسم المفعول:

من ذلك ما جاء فى قوله تعالى: ﴿**وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ**﴾ (البقرة:٢٥) حيث اختير اسم المفعول (**مطهرة**) على اسم الفاعل (**طاهرة**)، وقد بحث الزمخشرى سر الاختيار لتلك الصيغة فقال: "فإن قلت هلا قيل طاهرة! (**قلت**) فى مطهرة فخامة لصفتهن ليست فى (**طاهرة**) وهى الإشعار بأن مطهرا طهرهن، وليس ذلك إلا الله عز وجل المريد بعباده الصالحين أن يخولهم كل مزية فيما أعد لهم"[٢٥٤] سبب اختيار صيغة المفعول إذا؛ أن صيغة الفاعل هنا تثبت صفة الطهر للأزواج، أما صيغة المفعول فتثبت تلك الصيغة وزيادة، إذ تدل كذلك على أن ثمة فاعلا لها، وليس ذلك إلا الله عز وجل فكان فى ذلك مزيد تفخيم وتشريف لتلك الأزواج الموصوفة.

---

(٢٥١) الرازى ١٢٦/١٢- الكشاف/١١٥/٣ وانظر الألوسى ٨٢/١٩- فتح القدير١٠١/٤.

(٢٥٢) الكشاف/١١٥/٣ وانظر الألوسى ٨٢/١٩.

(٢٥٣) اكتفينا بتوجيه الآية على القراءتين المشهورتين (حاذرون) و(حذرون) دون القراءة الثالثة (حادرون) فهى قراءة ابن السميفع وابن أبى عمار، قال الطبرى عن القراءتين الأوليين: "والصواب من القول فى ذلك أنهما قراءتان مستفيضتان فى قراء الأمصار". انظر تفاسير: الطبرى ٤٨/١٩- أبى حيان ١٨/٧- ابن عطية ٢٣٢/٤- السمين الحلبى٢٧٤/٥- الرازى ١٢٦/١٢- الشوكانى١٠١/٤.

(٢٥٤) الكشاف/٥٣/١.

اختيار صيغة المفرد:

من أمثلته البليغة قوله تعالى:﴿ **إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ... عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ**﴾ (التكوير:١، ٢، ١٤) اختلفت أقوال العلماء فى هذا الموضع، وأطالوا الوقوف عنده: قال الزمخشرى" فإن قلت كل نفس تعلم ما أحضرت كقوله يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا لا نفس واحدة فما معنى قوله (**علمت نفس**) (**قلت**) هو من عكس كلامهم الذى يقصدون به الإفراط فيما يعكس عنه، ومنه قوله عز وجل: ﴿**رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ**﴾ (الحجر:٣) ومعناه معنى كم وأبلغ منه، وقول القائل:

قد أترك القرن مصفرا أنامله

وتقول لبعض قواد العساكر كم عندك من الفرسان فيقول (**رب فارس عندى**) أو (**لا تعدم عندى فارسا**) وعنده (**المقانب**)[٢٥٥]، وقصده بذلك التمادى فى تكثير فرسانه؛ ولكنه أراد إظهار براءته من التزيد، وأنه ممن يقلل كثير ما عنده فضلا أن يتزيد فجاء بلفظ التقليل ففهم منه معنى الكثرة على الصحة واليقين[٢٥٦]. ومعنى هذا أن اللفظ فى هذا الموضع قد استعير لضد معناه للدلالة على المبالغة وهو ما يقرره صاحب الكشف فيما نقله الألوسى عنه من أن "الأصل فى هذا الباب أن استعارة أحد الضدين للآخر تفيد المبالغة للتعكيس"[٢٥٧] وقال ابن عطية فى المحرر" نفس : هنا اسم جنس، أى علمت النفوس، ووقع الإفراد لتنبيه الذهن على حقارة المرء الواحد وقلة دفاعه عن نفسه"[٢٥٨] وذهب الشهاب إلى أنه" تهويل لذلك اليوم وإظهار لكبرياء الله وعظمته، حتى كأن جميع النفوس البشرية فى جنب ما خلقه من الأجرام العظام أمور قليلة، ونفوس حقيرة[٢٥٩] "ويرى باحث معاصر التعبير بالمفرد هنا دون الجمع واستعارته لعكس معناه" يتجاوب مع الانقلاب الهائل الذى يحدث فى جميع ظواهر الكون والانعكاس فى حركة الخلق"[٢٦٠].

---

(٢٥٥) المقانب: جمع مِقْنَب، والمقنب من الخيل ما بين الثلاثين إلى الأربعين؛ وقيل زهاء ثلثمائة . اللسان (قنب)

(٢٥٦) الكشاف٤/١٨٩.

(٢٥٧) انظر روح المعانى ١٤/٨ و٣٠/٥٧، مفاتيح الغيب ١٦/٢٤١.

(٢٥٨) المحرر الوجيز٥/٤٤٣.

(٢٥٩) انظر حاشية الشهاب على البيضاوى ٨/٣٢٨.

(٢٦٠) د/ محمود أمين الخضرى - الإعجاز البيانى ص ٦٧.

والذى أذهب إليه أن إعجاز القرآن فى هذه اللفظة يحتمل هذه الأقوال جميعا. فما ذهب إليه الزمخشرى ومن تابعه يدل على أن المتكلم "أراد إظهار براءته من التزيد وأنه ممن يقلل كثير ما عنده فضلا أن يتزيد... الخ" فكأنه ترك تقدير الأمر لوضوحه لسامعه، فكأن المرء إذا سمع "علمت نفس" قال فى نفسه: (**سنعلم جميعا**) ففيه من البلاغة تقرير المخاطب بما عليه وإلزامه بإقامة الحجة على نفسه.

وأما ما ذهب إليه ابن عطية من دلالة المفرد فى هذا الموضع على الجنس، فيفيد اتحاد الجنس البشرى جميعا فى هذه الحقيقة الثابتة فى هذا اليوم حيث يجنى كل امرئ ما كسبت يداه، مع ما يقترن بذلك من شعور عام بالخوف والقلق والترقب لنتيجة تلك الأعمال ومعرفة عاقبتها ومآلها.

وكذلك تعليل ابن عطية والشهاب أن الإفراد للتحقير مما يدل على حقارة المرء الواحد وقلة دفاعه عن نفسه كما ذهب إليه ابن عطية، فكأن الآية تلمح إلى مجيء هذا المرء إلى المحشر وحيدا ليس معه أعوان ولا شفعاء كما قرره الله تعالى فى أكثر من موضع كقوله تعالى: ﴿**وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْداً**﴾ (مريم ٨٠) وقوله: ﴿**وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً**﴾ (مريم: ٩٥).

فكأن قوله تعالى ﴿**عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ**﴾ (التكوير: ٤) أى علمت نفس متجردة وحيدة منفردة ما أحضرت، فما قلة دفاعها عن نفسها، وما قلة أعوانها وحينئذ يقال للمجرمين المحضرين فى هذا الموقف ﴿**وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ**﴾ (الأنعام: ٩٤).

يقول الأستاذ سيد قطب "كل نفس تعلم فى هذا اليوم الهائل ما معها وما لها وما عليها.. تعلم وهذا الهول يحيط بها ويغمرها.. تعلم وهى لا تملك أن تغير شيئا مما أحضرت، ولا أن تزيد عليه ولا أن تنقص منه.. تعلم وقد انفصلت عن كل ما هو مألوف لها، معهود فى حياتها أو تصورها. قد انقطعت عن عالمها وانقطع عنها عالمها[٢٦١].

وكأن القرطبى قد أراد الإشارة إلى هذا المعنى كذلك حيث أورد فى هذا الموضع حديث عدى بن حاتم فى الصحيحين قال، قال رسول الله ﷺ: "ما منكم من أحد إلا وسيكلمه الله ما بينه وبينه ترجمان، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر أشأم

(٢٦١) انظر الظلال٦/٣٨٤١.

منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر بين يديه فتستقبله النار، فمن استطاع أن يتقى النار ولو بشق تمرة فليفعل"[٢٦٢].

وأما إشارة الشهاب إلى ان التحقير للنفوس جميعا فى مقابل عظم مخلوقات الله تعالى حيث تتضاءل هذه النفوس فى ذلك المشهد أما الملك فتصير كأنها نفس واحدة، وهذا ما يعبر عنه رب العزة جل وعلا فى قوله: ﴿ **مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ** ﴾ (لقمان: ٢٨) فهذه النفوس جميعا هى أمام عين الله تعالى سواء، فلا يلتبس عليه رؤيتهم، ولا تختلط عليه أصواتهم فهم أمامه كنفس واحدة، حيث " يجمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد فيسمعهم الداعى، وينفذهم البصر" كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ[٢٦٣] من ثم يتخرج هذا الوجه على رعاية حال المتكلم، وذلك أن الحق سبحانه قد عبر عن كثرة النفوس فى ذلك المشهد بالوحدة لأنها كذلك بالنسبة له سبحانه، وفيه من رعاية حال المخاطب كذلك تهويل الأمر له وتخويفه حيث يعلم أنه لا يخفى على الله: ﴿**يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ** ﴾ (غافر: ١٦) أو كما قال تعالى: ﴿ **يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ** ﴾ (الحاقة: ١٨) وعندى أنه يجوز فى الآية وجه آخر، وهو أن يكون المقصود بنفس؛ نفس مهملة مغيبة من الخطاب محتقرة، ويعرض بها رب العزة جل وعلا، كأنه قال: علمت نفس مفرطة معرضة مقصرة فيما كلفت به ما أحضرت من العمل حينما توقف للحساب.

والذى أراه أن الآية تحتمل بصيغتها تلك الوجوه جميعا، ولا مانع من أن تكون تلك المعانى مراده جميعا لا سيما وأن لكل منها وجها صحيحا غير معارض، مع اتساقها جميعا مع مشهد هذا اليوم.

وقد تكرر ذلك الاختيار لتلك الصيغة بنفس الأسلوب فى سورة الانفطار التالية لتلك السورة فى قوله تعالى: ﴿**إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ... عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ**﴾ وما قيل فى الموضع الأول يمكن أن يقال فى هذا الموضع كذلك؛ ومن ثم تتعدد دلالات المفرد فى هذا الموضع ما بين الدلالة على التكثير أو التحقير أو التقليل أو التعريض إلى غير ذلك من المعانى.

من الأمثلة البليغة التى تحققت فيها المزاوجة بين صيغتى الإفراد والجمع: قول الله تعالى فى سورة النساء: ﴿**تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي**

---

(٢٦٢) القرطبى ٧٠٢٧/١٠ ط الريان.

(٢٦٣) الحديث أخرجه البخارى١٠٥/١٦٤،٦/٣ ط الشعب، مسلم فى الإيمان٤٦٩/١ بشرح النووى ط الشعب.

مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَمَن يَعْصِ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ (النساء:١٣-١٤) فقد جمع "**خالدين**" فى وصف ثواب الطائعين، وأفرده فى وصف عقاب "**العاصين**"(٢٦٤) وهنا لا يكاد يشك صاحب الذوق الرفيع أن لإفراد العاصى هنا فيه من معانى الإذلال والتعذيب بالوحشة والإنفراد ما فيه.

وقد التفت إلى هذا المعنى العلامة أبو السعود حيث قال "ولعل إيثار الإفراد ههنا نظرا إلى ظاهر اللفظ، واختيار الجمع هناك نظرا إلى المعنى للإيذان بأن الخلود فى دار الثواب بصفة الاجتماع أجلب للأنس كما أن الخلود فى دار العذاب بصفة الانفراد أشد فى استجلاب الوحشة"(٢٦٥).

وجدير بالذكر أن هذه المزاوجة المذكورة فى هذا الموضع هى طريقة القرآن ونهجه فى التعبير عن عذاب الكافر، ونعيم المتقين، حيث يطرد الإفراد بالنسبة للكافر والجمع بالنسبة للمؤمن للغرض نفسه، وهذا ما نلمحه فى المثال التالى فى قوله تعالى: ﴿**إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ * طَعَامُ الأَثِيمِ * كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ * كَغَلْيِ الْحَمِيمِ * خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ* ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ* ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ**﴾ (الدخان: ٤٣-٤٩) حيث نلمح فى هذه الآيات إفراد الأثيم فى مقابل جمع المتقين فى الآيات التالية فى المشهد التالى من السورة نفسها: ﴿**إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ *كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ * يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ** ﴾ (الدخان:٥١-٥٥) وهنا تؤدى صيغة الفرد دورها فى إحداث ذلك التقابل البديع بين انفراد الكافر ومعاناته عذاب الوحشة والوحدة فوق عذاب الجحيم فى مقابل ائتناس المؤمن بصحبته ورفاقه فى جنات النعيم، فنرى التقابل بين ذلك العذاب المضاعف، وذلك النعيم المضاعف.

وبهذا تؤدى صيغة المفرد فى مثل هذا السياق معنى الوحشة والوحدة ومعاناة ألم الغربة والافتراق.

ومن الأمثلة البليغة أيضا فى اختيار صيغة المفرد قوله تعالى على لسان زكريا عليه السلام ﴿**قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي**﴾ (مريم: ٤) قال الزمخشرى فى بيان سر اختيار المفرد دون الجمع (عظام) فى هذه الآية" وإنما ذكر العظم...، ووحده لأنه هو

---

(٢٦٤) سورة النساء/١٣/١٤.

(٢٦٥) تفسير أبى السعود٢/١٥٤.

الدال على معنى الجنسية وقصده إلى أن هذا الجنس الذى هو العمود والقوام وأشد ما تركب منه الجسد قد أصابه الوهن ولو جمع لكان قصدا إلى معنى آخر وهو أنه لم يهن منه بعض عظامه ولكن كلها[٢٦٦].

ومن ثم كان لصيغة المفرد دورها فى إبراز معنى الجنسية بخلاف صيغة الجمع التى قد تصرف الذهن إلى إرادة معنى الشمول، وهو غير مراد فى هذا المقام.

اختيار صيغة الجمع

قد يأتى اختيار صيغة الجمع وإيثارها على المفرد لمعنى المبالغة أو التكثير، فمن ذلك قوله تعالى فى تمثيل حال المنافقين: ﴿**مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ**﴾ (البقرة:١٧) ففى هذا الموضع يمثل الله تعالى لتكاثر الشبهات على المنافقين بتخليهم عن الإيمان، بمن انطفأ نوره فصار فى ظلمة حالكة ولكنه جمع هذه الظلمة ليناسب بها كثرة الشبهات التى تعرض للمنافق وتحيط به حتى ينخلع عن ربقة الإيمان والإسلام. أو يكون تكثير الظلمات باعتبار محالها فى القلب والبصر والحال، قال البقاعى: "وتركهم فى ظلمات: "أى بالضلالة من قلوبهم وأبصارهم وليلهم أى ظلمات لا ينفذ فيها بصر، فلذا كانت نتيجته "لا يبصرون" أى لا إبصار لهم أصلا ببصر ولا بصيرة"[٢٦٧] وقد يكون تكثير الظلمات هنا إنما هو باعتبار عظم ما هم فيه من الكفر والضلال، فهى" وإن كانت ظلمة واحدة لكنها لشدتها استعير لها صيغة الجمع مبالغة"[٢٦٨] تكثير الظلمات هنا إنما هو إما باعتبار قوتها وإما باعتبار كثرتها، وعلى النحو من ذلك يمكن أن يفسر أيضا جمع الظلمات دون الرعد والبرق فى قوله تعالى:﴿**أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ**﴾ (البقرة: ١٩) ومن الأمثلة كذلك: قوله تعالى ﴿**وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا**﴾ (الطور: ٤٨)، فبينما آثر التعبير القرآنى صيغة المفرد فى قوله تعالى:﴿ **وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي**﴾ (طه: ٣٩) نراه يؤثر هنا صيغة الجمع فى مقام تسلية النبى ﷺ وتثبيته إزاء إيذاء المشركين له.

---

(٢٦٦) انظر الكشاف٢/٤٠٥.

(٢٦٧) البقاعى ص ١١٩/١٢٠ نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور لبرهان الدين أبى الحسن إبراهيم بن عمر البقاع ط مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن.

(٢٦٨) انظر روح المعانى١/١٩٧.

كما نجد إيثار صيغة الجمع كذلك فى خطابه تعالى لنوح عليه السلام فى مثل هذا المقام أيضا مقام التثبيت فى قوله تعالى: **﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾** (هود:٣٧).

ومن ذلك قول المهلهل بن ربيعة فى رثاء أخيه كليب:

على أن ليس عدلا من كليب   إذا برزت مخبأة الخدور[٢٦٩]

حيث اختار الجمع (الخدور) على التعبير بالمفرد (**الخدر**) وذلك دلالة على المبالغة فى استتارها، ولذا اختار صيغة اسم المفعول (**مخبأة**) مشتقة من الفعل (**خبأ**) المضعف الدال على المبالغة فى الفعل كذلك، وصيغة المفعول تدل على أن ثمة أهلا قد خبأوها وأخفوها وبالغوا فى سترها ومن كانت، بمثل هذا الوصف فى تخبيئها وتخديرها وإخفائها لفرط حسنها وجمالها فإنها إذا برزت يوما فإن الرجال لا يتطلعون إلى اجتلاء محاسنها، والنظر إلى مفاتنها المخبأة خلف الخدور، وهذا كله يعمق ما فى الشاعر بصدده من المبالغة فى وصف أخيه كليب بصفات المروءة ومن بينها صفة العفة التى قصد إلى المبالغة فى وصفه بها فى هذا البيت.

اختيار صيغة الجمع بين القلة والكثرة

ثمة مواضع يوظف فيها جمع القلة لأغراض ومعان لا يعبر عنها جمع الكثرة، فمن أمثلة ذلك، قوله تعالى: **﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾** (سبأ: ٣٧) حيث جاءت الآية هنا على صيغة القلة غرفات، بينما اختيرت صيغة الكثرة فى قوله تعالى **﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾** (العنكبوت: ٥٨) وقوله **﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴾** (الزمر: ٢٠) وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن جمع القلة فى الآية الأولى قد أريد به الكثرة وذلك حتى يمكن الجمع بين هذه الآية والآيتين الأخريين اللتين جاء التعبير فيهما بصيغة الكثرة، بل أنهم يرون أنه لا فارق بين هذه الآيات التى جاءت بصيغة الجمع، وبين ما جاء بصيغة المفرد فى قوله تعالى **﴿أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا﴾** (الفرقان : ٧٥)؛ إذ الجميع فى الدلالة على الكثرة سواء، إذ الشأن ألا تفاوت[٢٧٠]. والحق أن هذا القول قد وقف فى التسوية بين

---

(٢٦٩) انظر موسوعة الشعر العربى ١٩٥/١.

(٢٧٠) انظر تفسير البيضاوى وحاشية الشهاب ٤٣٨/٦، وانظر د/ محمد الأمين الخضرى - الإعجاز البيانى فى صيغ الألفاظ ص ١٤٥.

معانى تلك الصيغ (**جمع القلة – جمع الكثرة – المفرد**) عند المستوى اللغوى دون المستوى الكلامى؛ إذ إن المفرد يصح التعبير به لإرادة الجنس فيدل على الكثرة، وجمع القلة ينوب عن المفرد كذلك فى الدلالة على الجنس[٢٧١] ومن ثم فهذه الصيغ من جهة المستوى اللغوى سواء لاشتراكها جميعا فى الدلالة على الكثرة.

أما البحث فى الخصوصية الدلالية لكل صيغة من تلك الصيغ، فهذا هو ما يتميز به المستوى الفنى الكلامى لدلالة الصيغة ولكى ندرك الخصوصية الدلالية لكل صيغة من تلك الصيغ لا بد لنا من مراجعة سياقها الذى وردت فيه. ففى الموضع الأول جاء سبب الجزاء مقتصرا على الإيمان والعمل الصالح مما يشعر أن أصحاب هذه المنزلة هم المقتصدون أصحاب منزلة الوسط فى العمل فهم فى المنزلة الثانية من منازل العابدين التى بينها الله تعالى فى قوله: **﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ * جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾** (فاطر ٣٢-٣٣). ومن ثم جاء جزؤهم محدودا كما أن عملهم كان محدودا كذلك فهى منزلة من أدى الواجبات وترك المحرمات، فهؤلاء هم أصحاب اليمين.

وأما الموصوفون فى الآيات الأخرى فهم السابقون (على نحو تفرقة سورة الواقعة بين الفريقين، انظر الآيات الأولى من سورة الواقعة) وإذا راجعنا سياق آية العنكبوت نجد أن قول الله تعالى **﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾** (العنكبوت/٥٦) يشعر بوصفهم بالهجرة، وقوله تعالى: **﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾** (العنكبوت: ٥٩) صريح فى وصفهم بصفة الصابرين، وقد قال تعالى فى جزاء هولاء المهاجرين الصابرين: **﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾** (الزمر:١٠) حيث جاءت الإشارة كذلك إلى وصفهم بالهجرة والتصريح بوصفهم بالصبر، وكأن ذلك إشارة إلى تلازم الأمرين. وينتهى سياق النداء لهؤلاء المتقين فى سورة الزمر ببيان حسن جزائهم بقوله **﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ﴾** ... الآية، وبهذا يتناسب تكثير الغرف، ومجيؤه بصيغة الكثرة مع جزاء هولاء الصابرين الذى جعله الله تعالى لهم بغير حساب ولا حد، أما حينما كان العمل محدودا، جاء الجزاء محدودا بالضعف، وجاءت الغرفات موصوفة بصيغة الجمع الدال على عدد محدود، لا على كثرة غير متناهية. وإن كان القارئ يظل مغتبطا على كل حال بجزاء الضعف وبتلك الغرفاتبقوله **﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ**

---

(٢٧١) انظر المحتسب لابن جنى ١٨٧/١ ١٨٨ وسيأتى نقله تقريبا.

﴿الْمِيعَادَ﴾ حقا إنه وعد الله للسابقين المهاجرين والمومنين الصابرين أن يوفيهم أجرهم بغير حساب.

وينحو هذا الإعجاز القرآنى الذى يغبط المقتصد، ويبهج السابق على ما بينهما من بون شاسع فى الجزاء يأتى الإعجاز النبوى بنحو هذا الأسلوب كذلك فى تعبيره ص عن جزاء قارىء القرآن حيث يقول:

"من يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق فله أجران" فانظر كيف رغب النبىﷺ ذلك المتتعتع حتى ظن أنه أفضل من الماهر بالقراءة فى الأجر، ولكن إن لهولاء المهرة أجرا بغير حساب، فمن ثم ناسب التعبير بالغرفات حيث كان العمل والجزاء محدودا، وناسب التعبير بالغرف حيث كان العمل والجزاء بغير حدود.

أما أصحاب الغرفة فهم سابقو السابقين، ومقربو المقربين، فهم أصحاب الغرفة الفريدة بما لهم من صفات فريدة، ولم لا وهم صفوة الصفوة، ومن ثم فقد امتازوا بتلك الغرفة وكأنها غرفة عجيبة فريدة قد وعدوها فى الدنيا، فاللام فيها للعهد، وقد جاء فى بعض الأخبار أنها من زمرد وياقوت وأنها مبنية لبنة ذهب ولبنة فضة ونحو ذلك

قال ابن كثير "وفى الصحيح" إن فى الجنة لغرفا يرى بطونها من ظهورها وظهورها من بطونها "فقال أعرابى: لمن هى يا رسول الله؟ قالﷺ " لمن أطاب الكلام، وأطعم الطعام، وصلى بالليل والناس نيام"، وروى الإمام أحمد عن سهل بن سعد رضى الله عنه أن رسول الله قال:" إن أهل الجنة ليتراءون الغرفة فى الجنة كما تراءون الكوكب فى أفق السماء" ومن ثم فاختيار التعبير بالمفرد فى هذا الموضع دليل على الخصوصية والتميز وإن كان ذلك لا ينفى مجىء المفرد فى هذا الموضع دالا على الجنسية كذلك.

هذه الخصوصية فى الجزاء تناسبها تلك الخصوصية فى العمل الذى كان عليه عباد الرحمن الذين وعدهم الله تلك الغرفة فى الدنيا، حيث قال الله تعالى فى وصفهم: **﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً * وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً *وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً * إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَراً وَمُقَاماً * ... أوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاماً﴾** (الفرقان ٦٣-٧٥) ومن ذلك أيضا امتنان الله تعالى على المؤمنين بنصر بدر إذ يقول **﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾** (آل عمران:١٢٣) والمؤمنون المخاطبون بذلك كثير، فلماذا اختار الله تعالى صيغة جمع القلة (**أذلة**) على صيغة الكثرة (**أذلاء**) أو (**ذلان**)؟

قال الزمخشرى" والأذلة جمع قلة والذلان جمع الكثرة وجاء بجمع القلة ليدل على أنهم على ذلتهم كانوا قليلا وذلتهم ما كان بهم من ضعف الحال وقلة السلاح والمال والمركوب وذلك أنهم خرجوا على النواضح يعتقب النفر منهم على البعير الواحد وما كان معهم إلا فرس واحد، وقلتهم أنهم كانوا ثلاثمائة وبضعة عشر وكان عدوهم فى حال كثرة زهاء ألف مقاتل ومعهم مائة فرس"[٢٧٢].

وقال الألوسى: **(وأذلة)** جمع قلة لذليل، واختير على ذلائل ليدل على قلتهم مع ذلتهم، والمراد بها عدم العدة لا الذل المعروف فلا يشكل دخول النبى ﷺ فى هذا الخطاب إن قلنا به، وقيل لا مانع من أن يراد المعنى المعروف ويكون المراد **(وأنتم أذلة)** فى أعين غيركم وإن كنتم أعزة فى أنفسكم[٢٧٣] من ثم جاء اختيار صيغة القلة هنا مناسبا لقلة العدد فعددهم وإن كان كثيرا فى نفسه، فإنه قليل بالنسبة لعدد أعدائه وكذلك قلة العتاد والسلاح ورثاثة الحال.

٢- اختيار صيغة الفعل

اختيار صيغة الماضى

فمن ذلك قوله تعالى مخاطبا اليهود: **﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ﴾** (البقرة : ٨٧).

حيث انشغل المفسرون ببيان سر العدول إلى المضارع **(تقتلون)**، ولكنى لم أجد فيما اطلعت عليه من التفت إلى سر اختيار صيغة الماضى فى قوله تعالى**(كذبتم)** والسر فيه فيما أرى - والله أعلم - أن النبوة قد ختمت بمحمدﷺ، وقد كان تكذيبهم له وقت الخطاب حاصلا فالتكذيب حصل قبل الخطاب ومن ثم فالمضى فى التكذيب على حقيقته ولا رسول بعد محمدﷺ يكذبونه فلا معنى للمضارع إذا.

أما فعل القتل فإنه لم يكن قد انتهى منهم بعد، وذلك لشروعهم فى قتل محمدﷺ على تقدير أن الآية قد نزلت قبل فعلتهم الخبيثة؛ أما على تقدير نزولها بعد تلك الفعلة فهى تقرير للحال الحاضر وخير ما يدل على الحقيقة هو المضارع، فلا جرم جاء الخطاب بصيغة المضارع التى تدل على أنهم لم ينتهوا بعد من عادتهم فى قتل الأنبياء، بشروعهم فى قتل محمد ﷺ؛ ومن ثم دسوا له السم فى الشاة التى دعوه إليها بخيبر. وعلى هذا النحو أيضا ورد قوله تعالى فى سورة المائدة **﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ**

---

(٢٧٢) انظر الألوسى ٥٣/١٩، ابن كثير ٢١٦/٤.

(٢٧٣) انظر الكشاف ٢١٥/١، وانظر الرازى ٤٣٤/٤ فقد تابعه على ذلك ونقل كلامه.

بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّما جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُوا وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ﴾ (المائدة: ٧٠).

اختيار صيغة المضارع

من أمثلة اختيار صيغة المضارع ما جاء في قوله تعالى في وصف المنافقين **﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾** (البقرة: ١٤) فأجابهم الله تعالى بقوله **﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾** (البقرة: ١٥) حيث جاء التعبير في جواب الله تعالى بصيغة المضارع دون اسم الفاعل مستهزئ مثلا قال الزمخشري "فإن قلت فهلا قيل الله يستهزئ بهم ليكون طبقا لقوله "**إنما نحن مستهزئون**" **(قلت)** لأن يستهزئ يفيد حدوث الاستهزاء وتجدده وقتا بعد وقت وهكذا كانت نكايات الله فيهم وبلاياه النازلة بهم "**أولا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين**" وما كانوا يخلون في أكثر أوقاتهم من تهتك أستار وتكشف أسرار، ونزول في شأنهم، واستشعار حذر من أن ينزل فيهم **﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾**[٢٧٤] (التوبة: ٦٤). وقال الزمخشري في قوله تعالى **﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾** (سورة ص: ١٨-١٩) "ويسبحن في معنى ومسبحات على الحال **(فإن قلت)** هل من فرق بين يسبحن ومسبحات **(قلت)** نعم وما اختير يسبحن على مسبحات إلا لذلك وهو الدلالة على حدوث التسبيح من الجبال شيئا بعد شيء وحالاً وكأن السامع محاضر تلك الحال يسمعها تسبح مثله قول الأعشى:" إلى ضوء نار في يفاع تحرق" ولو قال محرقة لم يكن شيئا[٢٧٥] وقد علق ابن المنيّر على الموضع السابق ذكره عن الزمخشري في آية البقرة مقررا كلام الزمخشري في هذا الموضع ومؤيده بأمثلة أخر فقال" ولهذا الفرق بين الفعل والاسم ورد قوله تعالى **﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ**

---

(٢٧٤) انظر الكشاف ص ٣٥/١ قلت والذي ذكره الزمخشري في غاية الجودة ولكنه ترك الكلام على اختيار صيغة المضارع في الفعل التالي" ويمدهم في طغيانهم يعمهون" وهو يدل على عقاب الله تعالى لأولئك المنافقين الذين أعرضوا عن قبول الهدى مرارا فعاقبهم الله على ذلك بأن صرف قلوبهم عن الحق، وطبع عليها، وأمدهم في طغيانهم يعمهون، والآيات الدالة على ذلك كثيرة: فمنها قوله تعالى:" قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدا" مريم: ٧٥ وقوله: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (الأنعام: ١١٠) وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ (الأنفال: ٢٤) وقوله: ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (النور: ٦٣) إلخ ما ورد في ذلك من الآيات ولعل الزمخشري قد فر من التعرض لهذه النقطة لما فيها من المخالفة لعقيدة الاعتزال.

(٢٧٥) انظر الكشاف ص٣/٣٢٠.

﴿يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ﴾ (سورة ص: ١٨-١٩) لما كان التسبيح من الطوائر متكررا متجددا شيئا فشيئا، وحشر الطير معه أمر دائم؛ ذكر التسبيح بصيغة الفعل والحشر بصيغة الاسم[٢٧٦] ويناسب ما قيل أن التسبيح إنما يكون غالبا بتكرار جملة أو أكثر يراد بها تنزيه الله تعالى وتمجيده، ومعنى ذلك أن تلك الجملة ينتهى ترتيلها ثم يتجدد، وهذا هو الواقع من داود عليه السلام فناسب ذلك أن يكون تسبيح الجبال والطير بصيغة تدل على التجدد كذلك.

اختيار صيغة المبنى للمجهول

من أمثلته فى القرآن، قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ (ق:٣٠) ، وذلك بالبناء للمجهول على قراءة ابن مسعود والحسن والأعمش[٢٧٧] قال ابن جنى: "هذا يدل على أن قولنا : ضرب زيد ونحوه لم يترك ذكر الفاعل للجهل به، بل لأن العناية انصرفت إلى ذكر وقوع الفعل بزيد،عرف الفاعل به أو جهل لقراءة الجماعة: (يوم نقول) وهذا يؤكد عندك قوة العناية بالمفعول به" فالغرض البلاغى من اختيار صيغة المبنى للمجهول فى هذه الآية على غيرها من الصيغ هو - كما ذكر ابن جنى - لفت الأنظار إلى جهنم وامتلائها بصرف النظر عن قائل ذلك لها. ومن ثم ففائدة البناء للمجهول غالبا هى تغييب الفاعل إلى هامش الشعور لغرض بلاغى هو إفساح الاهتمام بالمفعول. ومن ثم يأتى مناسب لجو الترهيب الذى يقتضيه مقام الآيات وسياقها. وعلى هذا النحو جاء التعبير بصيغة البناء للمجهول فى قوله تعالى ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ (آل عمران: ١٨٥) وذلك للغرض السابق وهو تركيز الاهتمام على ما هو أهم وهو هنا نجاة هذا العبد من تلك النار، ودخوله الجنة، بصرف النظر عن فاعل ذلك له.

فضلا عما يفيده البناء للمجهول من فائدة تعميم الفاعل وهذا يناسب حال العبد فى هذا الموقف ورغبته فى النجاة بأى وسيلة، من مغفرة الله عز وجل أو شفاعة النبى ﷺ، أو عمل صالح يكون قد ادخره لهذا اليوم.

ومن الأمثلة كذلك قوله تعالى ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ* وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ (الغاشية: ١٧-٢٠) والنكتة هنا فى البناء للمجهول هى تغييب الفاعل الذى يجحده هؤلاء الكافرون، ليفسح مجال النظر إلى دلائل قدرته التى لا يدعيها أحد غيره سبحانه، فإذا سلم هؤلاء الجاحدون بما فى هذه المخلوقات من حكمة وقدرة وإبداع لا يدعيها أحد غيره سبحانه

(٢٧٦) انظر الكشاف ص ٣٥/١.

(٢٧٧) انظر المحتسب٢/٢٨٤.

ولا يصح نسبتها إلى أحد سواه، فقد سلموا بأنه لا خالق غيره ولا رب سواه. ومن ثم جاء اختيار البناء للمجهول لإفساح المجال للنظر فى الأدلة الدالة على الفاعل الصانع ليتوصل إليه المشركون ويقروا به بأنفسهم فيكون هذا الطريق أقوى فى إقامة الحجة عليهم من طريق التصريح بالفاعل.

ومن الأمثلة القرآنية أيضا: قول الله تعالى: **﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾** (البقرة: ٢١٢) وقوله تعالى**﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾** (آل عمران: ١٤) حيث يطيل المفسرون والمتكلمون الوقوف فى البحث عن فاعل التزيين هل هو الله أم الشيطان؟[٢٧٨] وتأتى الآيات بالبناء للمجهول فى تلك المواضع لتفسح المجال لتأمل حقيقة أمر هذه الحياة الدنيا وهو أنه مجرد تزيين وتغرير**﴿ وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا إلاَّ مَتَاعُ الغُرُورِ﴾** (آل عمران: ١٨٥) ويدع القرآن أولئك المتكلمين فيما يخوضون فيه فلا يبالى بإجابتهم عن المزين هل هو الله أم الشيطان.

اختيار صيغة أفعل

تأتى صيغة (**أفعل**) لأغراض ودلالات بلغ بها "أبو حيان" عشرين ونيفا، أشهرها التعدية ومنها الدلالة على الصيرورة والسلب والتمكين والتعريض. وغير ذلك[٢٧٩].

قال ابن الحاجب" وأفعل للتعدية غالبا نحو أجلسته، وللتعريض نحو أبعته ... ولوجوده على صفة نحو أحمدته وأبخلته..."[٢٨٠] فمما جاء للتعدية قوله تعالى عن مريم عليها السلام **﴿فَأَجَاءَهَا المَخَاضُ إلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾** (مريم: ٢٣)، حيث جاءت صيغة أفعل للتعدية لتعبر عن معنى الاضطرار والإلجاء، وهذا يناسب حالة الضيق والكراهية لهذا الأمر من مريم عليها السلام حيث عبرت عن ذلك بقـولها**﴿ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْياً مَّنسِياً﴾**[٢٨١] (مريم: ٢٣)

وقد انفردت صيغة أفعل من بين صيغ الفعل المزيد بالدلالة على معنى التعريض، والمراد به: جعل ما كان مفعولا للثلاثى معرضا لأن يكون مفعولا لأصل الحدث

---

(٢٧٨) انظر الكشاف ١/١٢٨ ١٧٨.

(٢٧٩) انظر البحر المحيط ١/٢٦.

(٢٨٠) انظر شرح الشافية ١/٨٣.

(٢٨١) انظر أبنية الأفعال/ نجاة الكوفى ص ١٠٢،٣٢، وانظر الدر المصون٤/ص ٤٩٧/٤٩٨، المحرر الوجيز٤/ص ١٠، روح المعانى٦/ص ٨١، البصائر ٢/٤١٣، مفاتيح الغيب١٠/ص ٤١٣، القرطبى ٦/٤١٣١.

كقولهم أسقيته بمعنى: وفرت له ما يشربه، أو عرضت له الشراب، شرب أم لم يشرب ومثله أقبرته: أى جعلت له قبرا يقبر فيه فى الحال أو الاستقبال.

والملاحظ فى مثل هذه الأفعال: **(سقى وأسقى) (قبر وأقبر)** أنها كانت متعدية قبل دخول الهمزة وظلت على حالها من التعدى بعد زيادتها، بمعنى أن الهمزة لم تؤثر فى عمل الفعل كما هو الشأن فى همزة التعدية لكنها أثرت على حكم المفعول به، لأن الحدث مع الثلاثى واقع على المفعول، فإذا دخلت الهمزة صار وقوع الفعل محتملا بعد أن كان محققا. فقولنا مثلا: **(باع التاجر تجارته)** يفيد إتمام البيع، وأما: **(أباع التاجر تجارته)** فإنما يفيد أنه عرضها للبيع. واستشهد" الزجاج" على ذلك بقول الشاعر:

ورضيت آلاء الكميت فمن يبع فرسا فليس جوادنا بمباع

والمعنى: فليس جوادنا بمعرض للبيع

ومن مجىء الهمزة للتعريض قولهم: أقتلت الرجل عرضته للقتل، وأحبسه إذا فعل به فعلا عرضه به لأن يحبس، قال ثعلب:"(حبست الرجل عن حاجته... إذا منعته من التصرف فى أموره وأحبست فرسا فى سبيل الله... إذا جعلته وقفا على الغزاة يجاهدون عليه ومنعت من بيعه وهبته) وقد اختلفت الأقوال فى قولهم: سقاه، بمعنى قدم له الشراب فتناوله، وأسقاه بمعنى وفر الشراب وجعله معرضا للشاربين، فقيل: هما لغتان أى أن الفعل المزيد استعمل فى معنى مجرده فى بعض اللغات[٢٨٢]. وقال سيبويه:" وتجىء أفعلته على أن تعرضه لأمر وذلك قولك أقتلته أى عرضته للقتل وتجىء مثل قبرته وأقبرته فقبرته دفنته وأقبرته جعلت له قبرا وتقول سقيته فشرب وأسقيته جعلت له ماء وسقيا ألا ترى أنك تقول أسقيته نهرا[٢٨٣] وقال الفيروزابادى" والسقى والسُقيا: أن تعطيه ما يشرب والإسقاء: أن تجعل له ذلك حتى يتناوله كيف شاء. والإسقاء أبلغ من السقى لأن الإسقاء: هو أن تجعل له ما يستقى منه ويشرب، تقول: أسقيته نهرا. قال تعالى: **﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً﴾** (الإنسان: ٣١) وقال **﴿فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾** (الحجر: ٢٢)

وقال**﴿نُسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ﴾** (النحل: ٦٦) أى جعلناه سقيا لكم وقيل: سقاه لشفته، وأسقاه لدابته[٢٨٤].

---

(٢٨٢) انظر د/ نجاة الكوفى- أبنية الأفعال ص ٣٦/٣٥.

(٢٨٣) انظر سيبويه ٢٣٥/٢.

(٢٨٤) انظر بصائر ذوى التمييز ص٢٣١-٢٣٢.

وقد ورد الفعل المجرد والمزيد فى القرآن الكريم فى عدّة مواضع.

أما المجرد فجاء مسندا لله تعالى ولغيره نحو **﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾**، وفى قصة موسى عليه السلام**﴿ فَسَقَى لَهُمَا﴾** وأما المزيد فجاء فى جميع المواضع مسندا إلى ضمير لفظ الجلالة مرادا به توفير الشراب فى الحياة الدنيا، وكونه معروضا لطالبه، مبذولا لحاجته، لا فرق بين ما كان من بطون الأنعام أو من النهر أو ماء السماء، ولا فرق أيضا بين شراب الحيوان أو الإنسان، قال تعالى: **﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتاً﴾** (المرسلات: ٢٧) **﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾** (الحجر:٢٢) وقوله تعالى**﴿ وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقاً﴾** (الجن:١٦)**﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَناً خَالِصاً سَائِغاً لِّلشَّارِبِينَ ﴾** (النحل:٦٦) **﴿لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَاماً وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً﴾** (الفرقان: ٤٩) والمعنى فى هذه الآيات الكريمة أن الله سبحانه وفر للإنسان والحيوان ما يستقى منه فى الحياة الدنيا، وجعله معروضا لحاجته، معرضا للنيل منه، فكأن المقصود هنا ليس هو مجرد الامتنان بالماء بل الامتنان هنا يجعله مهيأ للشرب والتناول، وذلك على نحو امتنانه سبحانه على عباده فى سورة الواقعة فى قوله **﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾** (الواقعة: ٦٨-٧٠).

وما ذكرته هنا إنما هو استناد إلى أن من معانى**(أفعل)** التعريض، كما يقال **(أبعته)** أى عرضته للبيع.

أما الثلاثى المجرد فقد جاء مسندا إلى الخالق عز وجل فى موضعين: قال تعالى: **﴿ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً﴾** (الإنسان:٢١)**﴿ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾** (الشعراء: ٧٩).

والفعل فى الآية الأولى جاء فى موضع الامتنان على الأبرار فى الآخرة، وجاء فى الآية الثانية فى مقام شكر النعمة فى الحياة الدنيا، وربما كان الغرض من مجيء الفعل مجردا، الدلالة على أن المقصود هنا هو الامتنان بنعمة الماء نفسها، ويؤيد ذلك وصفه بالطهور فى الآية الأولى، وورود مقرونا بالطعام الذى هو قوام الحياة فى الآية الثانية[٢٨٥].

وجاء الثلاثى المجرد فى بقية المواضع مسندا إلى المخلوقين، مرادا به تقديم الشراب للإنسان أو الحيوان فى الحياة الدنيا نحو**﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا**

(٢٨٥) انظر أبنية الأفعال ص ٣٦ ٣٧.

﴿فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا﴾ (يوسف: ٤١)،[٢٨٦] ولا شك أن ثمة فارقا بين تقديم الشىء وبين جعله معروضا لمن أراده ورغب فيه؛ ولذا جاء التعبير بالفعل المجرد فى وصف حال أهل الجنة منسوبا إلى رب العزة جل وعلا تكريما منه سبحانه وتشريفا لأصحاب النعيم.

ومما جاءت فيع أفعل للدلالة على وجدان الشىء على صفة قوله تعالى فى وصف النسوة اللاتى رأين يوسف عليه السلام: **﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾** (يوسف:٣١) قال ابن عطية: أكبرنه معناه: أعظمنه واستهولن جماله" ونسبه إلى الجمهور.

وثمة قوله آخر أن أكبرنه بمعنى حضن، والهاء للسكت وقد ضعفه الطبرى وابن عطية وغيرهما من المحققين[٢٨٧].

وقال الزمخشرى: (**أكبرنه**) أعظمنه وهبن ذلك الحسن الرائع والجمال الفائق"[٢٨٨] قال الرازى إنما أكبرنه لأنهن رأين عليه نور النبوة وسِيْما الرسالة، وآثار الخضوع والاحتشام، وشاهدن منه مهابة النبوة وهيئة الملكية، وهى عدم الالتفات إلى المطعوم والمنكوح، وعدم الاعتداد بهن، وكان الجمال العظيم مقرونا بتلك الهيبة والهيئة فتعجبن من تلك الحالة فلا جرم أكبرنه وعظمنه، ووقع الرعب والمهابة منه فى قلوبهن، وعندى أن حمل الآية على هذا الوجه أولى[٢٨٩]. ومعنى ذلك أن النسوة توسمن فى يوسف العظمة، وصادفنه ملكا فى صورة البشر، فكأن المعنى أنهن وجدنه كبيرا فى الهيبة والوقار والجمال والملكية وغير ذلك من الصفات فوق ما كن يتصورنه فى مخيلتهن ومن ثم أصابتهن الدهشة فقطعن أيديهن لما فوجئن به وصادفنه من هذا الجمال الباهر، والخلق الوافر.

ومن ثم جاءت صيغة (**أفعل**) فى هذا السياق أكثر مناسبة من نظائرها كصيغة (**فعّل**) على سبيل المثال، التى تدل على وجود الشىء ومصادفته على صفة ما.

---

(٢٨٦) انظر أبنية الأفعال ص ٣٧.

(٢٨٧) انظر الطبرى٦/٧٧ والمحرر الوجيز ٣/٢٣٩، الدر المصون ٤/١٧٥ والرازى ٩/٤١، القرطبى ٥/٣٤٠٩.

(٢٨٨) الكشاف ٢/٢٥٣.

(٢٨٩) الرازى ٩/٤٢.

اختيار صيغة (فَاعَلَ)

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (البقرة:٩) حيث جاء وصف المنافقين بأنهم (**يخادعون الله**) بصيغة المفاعلة وهذه الصيغة تأتى لمعان منها التشارك بين اثنين فأكثر، وهو أن يفعل أحدهما بصاحبه فعلا، فيقابله الآخر بمثله، وحينئذ فينسب للبادى نسبة الفاعلية، وللمقابل نسبة المفعولية. فإذا كان أصل الفعل لازما صار بهذه الصيغة متعديا نحو ماشيته، والأصل: مشيت ومشى.

وتأتى هذه الصيغة لمعان منها: المغالبة.

والموالاة: فيكون بمعنى أفعل المتعدى، كواليت الصوم وتابعته بمعنى أوليت وأتبعت وأتبعت بعضه بعضا[٢٩٠] وقد استشكل حمل الآية على هذه المعانى، ومن ثم قيل" ربما كانت المفاعلة بتنزيل غير الفعل منزلته كيخادعون الله، جعلت معاملتهم لله بما انطوت عليه نفوسهم من إخفاء الكفر وإظهار الإسلام، وسجازاته لهم، مخادعة.

وقد أطال الزمخشرى فى هذا الموضع فقال" الخدع أن يوهم صاحبه خلاف ما يريد به من المكروه من قولهم ضب خادع وخدع إذا أمر الحارس يده على باب حجره أو همه إقباله عليه ثم خرج من باب آخر (**فإن قلت**) كيف ذلك ومخادعة الله والمؤمنون لا تصح؛ لأن العالم الذى لا تخفى عليه خافية لا يخدع والحكيم الذى لا يفعل القبيح لا يخدع والمؤمنين وإن جاز أن ينخدعوا لم يجز أن يخدعوا" ثم ذكر فى جواب ذلك وجوها أربعة: أحدها: أن يقال: كانت صورة صنعهم مع الله حيث يتظاهرون بالإيمان وهم كافرون صورة صنع الخادعين وصورة صنع الله معهم حيث أمر بإجراء أحكام المسلمين عليهم وهم عنده فى عداد شرارة الكفرة.. صورة صنع الخادع، وكذلك صورة صنع المؤمنين معهم حيث امتثلوا أمر الله فيهم فأجروا أحكامهم عليهم.

والثانى: أن يكون ذلك ترجمة عن معتقداتهم وظنهم أن الله ممن يصح خداعه لأن من كان ادعاؤه الإيمان بالله نفاقا لم يكن عارفا بالله ولا بصفاته...

والثالث: أن يذكر الله تعالى ويراد الرسول ﷺ لأنه خليفته فى أرضه والناطق عن عنه بأوامره...

---

(٢٩٠) انظر شذا العرف ص ٤٢ــ٤٣.

والرابع: أن يكون من قولهم (**أعجبنى زيد وكرمه**) فيكون المعنى (يخادعون الذين آمنوا بالله، وفائدة هذه الطريقة قوة الاختصاص، ولما كان المؤمنون من الله بمكان سلك بهم ذلك المسلك...) [٢٩١]

هذه الوجوه التى ذكرها الزمخشرى فى هذا الموضع - فى رأيى - أن المقام يحتملها جميعا، وأرى ألا تنافى بينها، بل أنها تمثل نوعا من الثراء الدلالى لتلك الصيغة ويعد ذلك دليلا على جمال توظيفها الفنى فى هذا السياق.

ومن ثم كان للتعبير بهذه الصيغة فى هذا الموضع أثره فى الكشف عن سوء طوية هؤلاء المنافقين.

وإذا كان لا بد لنا من ترجيح فأرى أن الوجه الأول الذى ذكره الزمخشرى هو أرجح تلك الوجوه التى تعلل لاختيار تلك الصيغة فى هذا الموضع؛ وذلك لأنه أوضحها وأسلمها عن المعارضة، وإن كان ذلك لا يمنعنا من الإفادة من الظلال الأخرى لتلك الصيغة.

وقد تأتى هذه الصيغة دالة على الكثرة، ومن أمثلتها فى الشعر : قول النابغة:

وقفت فيها أصيلانا (أسائلها)   عيت جوابا وما بالربع من أحد[٢٩٢]

وكذا قول المهلهل بن ربيعة:

(تسائلنى) أميمة عن أبيها   وما تدرى أميمة عن ضمير![٢٩٣]

ومن الشعر الحديث، قول نجيب الكيلانى فى ديوانه مهاجر:

(تسائلنى) عن القلب المعنّى   وعن قلبى المعذّب وانتمائى[٢٩٤]

حيث اختيرت صيغة (**فاعل**) للدلالة على كثرة السؤال والإلحاح فيها، ففى البيت الأول وقف الشاعر يلح على الديار بالسؤال ويكرره عليها علها تعيره جوابا، وما ذلك إلا لتعلق قلبه بتلك المعاهد وأهلها الذين ارتحلوا عنها وفى بيت المهلهل، وكذا بيت نجيب الكيلانى يدل التعبير بصيغة المفاعلة على كثرة المساءلة الدالة على

---

(٢٩١) انظر الكشاف ٣٠/١.

(٢٩٢) ديوان النابغة ص ٩.

(٢٩٣) موسوعة الشعر العربى ١٩٤/١.

(٢٩٤) نجيب الكيلانى/ديوان مهاجر/مؤسسة الرسالة ص ٥.

إشفاق السائل وتحنانه على الشاعر، وذلك ليصور الشاعر مدى معاناته التى ترق لها القلوب.

اختيار صيغة (فعَّل)

من ذلك ما جاء فى القرآن فى قوله تعالى﴿ **وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ**﴾ (يوسف: ٢٣)

حيث جاء التعبير بصيغة (**فعَّل**) دون (**أفعل**) ، والسر فى اختيار تلك الصيغة دون غيرها أن (**فعّـل**) إنما تأتى للتكثير غالبا(٢٩٥) ومن ثم ناسب ذلك الدلالة على كثرة الأبواب التى غلقتها امرأة العزيز لتحول دون تفلت يوسف منها، وكذا على إحكام التغليق.

ولذا قال بعضهم: "التشديد فى (غلقت) للتكثير لتعدد المحال"(٢٩٦) فقد قيل كانت سبعة أبواب.

ومعنى ذلك أنها قد تتبعت أبواب القصر تغلقها بابا بابا حتى بلغت باب الحجرة، وذلك لكى تأمن إذا استطاع يوسف أن يفتح بعض الأبواب أن يأتى على جميعها إلا بعد أن تنال حاجتها منه بالمراودة. ويمكن حمل المعنى على المبالغة فى الغلق قال صاحب المحرر" وقوله (**غلّـقت**) تضعيف مبالغة لا تعدية"(٢٩٧).

وجاء كلام الألوسى معبرا عن المعنيين فقال" وغلقت الأبواب" أى أبواب البيت، وتشديد الفعل للتكثير فى المفعول إن قلنا: إن الأبواب كانت سبعة كما قيل، فإن لم نقل به فهو لتكثير الفعل فكأنه غلق مرة بعد مرة أو بمغلاق بعد مغلاق وجمع (**الأبواب**) حينئذ إما لجعل كل جزء منه كأنه باب أو لجعل تعدد إغلاقه بمنزلة تعدده، وزعم بعضهم أنه لم يغلق إلا بابان: باب الدار وباب الحجرة التى هما فيها، وادعى بعض المتأخرين أن التشديد للتعدية وأن كونه للتكثير وهم، معللا ذلك بأن (**غلقت الأبواب**) غلقا لغة رديئة متروكة حسبما ذكره الجوهرى، ورد بأن إفادة التعدية لا تنافى إفادة التكثير معها فإن مجرد التعدية يحصل بباب الأفعال فاختيار التفعيل عليه لأحد الأمرين، ولذا قال الجوهرى أيضا (**غلّقت الأبواب**) شُدِّد للتكثير(٢٩٨).

---

(٢٩٥) شرح الشافية ٩٢/١.

(٢٩٦) الدر المصون ١٦٧/٤.

(٢٩٧) المحرر الوجيز ٢٣٢/٣.

(٢٩٨) روح المعانى ٢١١/١٢.

ومن ثم جاءت هذه الصيغة معبرة عن كثرة الأبواب التى غلقت، وكثرة التغليق وإحكامه والمبالغة فيه" والسبب أن ذلك العمل لا يؤتى به إلا فى الموضع المستور لا سيما إذا كان حراما ومع قيام الخوف الشديد"(٢٩٩).

قلت ومن ثم كان الحرص على إحكامه التغليق والمبالغة فيه.

وعلى هذا النحو أيضا جاء قول الله تعالى فى وصف الطوفان الذى أهلك قوم نوح **﴿وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى المَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾** (القمر: ١٢) حيث جاءت صيغة (**فعّل**) لتتلاقى مع ظلال التكثير فى هذا البيت الناشئة من العناصر الأخرى، قال الألوسى:" جعلنا الأرض كلها كأنها عيون متفجرة وأصله فجرنا عيون الأرض، فغير إلى التمييز للمبالغة بجعل الأرض كلها متفجرة مع الإبهام والتفسير"(٣٠٠) فناسب تلك المبالغة وذلك التكثير مجيء الفعل على صيغة (فعل) الدالة على التكثير والمبالغة كذلك.

ومن ذلك فى الشعر قول اليزيدى:

مَلَّكْتُه حبلــــى، ولكنـــه   ألقاه من زهد على غاربى(٣٠١)

حيث اختار الشاعر صيغة (**فعّل**) فى قوله (**ملّكْتُه**) للدلالة على إفراط تمكينه إياه من قلبه حتى استولى عليه وامتلكه تمام الامتلاك، ليقابل ذلك بتخليه عنه تمام التخلى وإلقاء حبل مودته زاهدا فى وصله غير حريص على ما ملكه إياه(٣٠٢).

اختيار صيغة (انفعل)

تأتى هذه الصيغة لمعنى واحد هو المطاوعة، ويختص بما كان فيه علاج وتأثير والمطاوعة عند علماء التصريف هى قبول الأثر، وذلك فيما يظهر للعيون كالكسر والقطع والجذب(٣٠٣).

ومن ثم جاءت هذه الصيغة دالة على ذلك المعنى فى جميع سياقاتها، فمما جاء من ذلك فى القرآن قول الله تعالى:**﴿ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ﴾** (التكوير: ٢) وقوله:**﴿ إِذَا**

---

(٢٩٩) انظر الرازى ٢١/٩.

(٣٠٠) انظر روح المعانى ٨٢/٢٧.

(٣٠١) انظر دلائل الإعجاز ص ٢٣٧.

(٣٠٢) انظر اختيار اسم المكان حيث وردت هذه الصيغة فى أبيات للمتنبى علقت عليها هنالك.

(٣٠٣) انظر شرح الشافية ١٠٨/١.

السَّمَاءُ انفَطَرَتْ﴾ (الانفطار:١) وقوله:﴿ وَإِذَا الكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ﴾ (الانفطار:٢) وقوله:﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ (الانشقاق: ١) حيث جاءت هذه الصيغة الدالة على المطاوعة مناسبة أتم المناسبة لسياقها حيث دلت على استجابة ذلك الكون وطواعيته وتأثره بكلمة الله تعالى له (كن) فإذا السماء انفطرت وانشقت، وإذا الكواكب انتثرت، وإذا النجوم انكدرت، وإذا عقد الكون كله قد انفرط فى لحظة واحدة طواعية لأمر الله تعالى فصدق الله تعالى إذ يقول:﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ (القمر: ٥٠) ويوكد هذا المعنى أن استقراء هذه الصيغة فى مواقعها يدل على" أن هذه الصيغة إنما تسند للفاعل الذى ينفعل للحدث بسرعة وطواعية لحظة البدء فيه فلا يصح أن نقول: فتحته فانفتح فيما أحكم إغلاقه"[٣٠٤].

اختيار صيغة (افتعل)

يأتى التعبير بصيغة افتعل لأغراض ومعان فنية، منها من ذلك ما جاء فى القرآن فى قوله تعالى: **﴿لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾** (البقرة: ٢٨٦) حيث نلحظ أن الآية اختارت (**اكتسبت**) على (**كسبت**) فى الدلالة على فعل الشر، فاختارت صيغة افتعل عل صيغة (فعل) وهذه الصيغة افتعل تأتى لعدة معان، منها مما يناسب السياق: الاجتهاد والطلب والتصرف والمبالغة فى معنى الفعل[٣٠٥].

قال سيبويه "وأما كسب فإنه يقول أصاب، وأما اكتسب فهو التصرف والطلب والاجتهاد بمنزلة الاضطراب"[٣٠٦] ومن ثم فقد عدلت الآية فى التعبير عن الشر إلى الاكتساب للدلالة على التكلف والاجتهاد والتعمل والاضطراب والتصرف لأجل تحصيل المعصية ويناسب ذلك ما فى المعصية من مخالفة للأعراف والفِطَر السليمة، مما يدعو العاصى إلى الاحتيال فيها. قال جماعة من العلماء" افتعل يدل على شدة

---

(٣٠٤) انظر أبنية الأفعال دراسة لغوية قرآنية دار الثقافة ص ٦١ د/ نجاة الكوفى. وعلى هذا النحو جاءت الآيات التالية الدالة على سرعة التأثر والاستجابة والمطاوعة لأمر الله تعالى وفعله:﴿ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً﴾ (البقرة ٦٠) ﴿ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً﴾ (الأعراف: ١٦٠) ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ (الشعراء٦٣) ﴿ فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ﴾ (الكهف ٧٧) ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا* إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴾ (الشمس: ١٢).

(٣٠٥) انظر الكتاب لسيبويه ٢٤١/٢ وانظر شرح الشافية ١٠٨/١ وانظر الحملاوى شذا العرف ص ٤٤.

(٣٠٦) انظر سيبويه ٢٤١/٢.

الكلفة، وفعل السيئة شديد لما يؤول إليه"[٣٠٧] وقال الزمخشرى" فإن قلت لم خص الخير بالكسب والشر بالاكتساب قلت فى الاكتساب اعتمال فلما كان الشر مما تشتهيه النفس وهى منجذبة إليه وأمارة به كانت فى تحصيله أعمل وأجد فجعلت لذلك مكتسبة فيه ولما لم تكن فى باب الخير وصفت بما لا دلالة فيه على الاعتمال[٣٠٨].

فالتفت الزمخشرى هنا إلى ما تدل عليه الصيغة من المبالغة فى الفعل ومناسبة ذلك لغلبة الشر على الطباع، واجتهاد الإنسان فيما فيه هواه، ومضيه قدما فى سبيل الفجور، كما قال تعالى **﴿بَلْ يُرِيدُ الإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾** (القيامة:٥) قال الطبرى" يريد أن يمضى أمامه قدما فى معاصى الله لا يثنيه عنها شىء"[٣٠٩] وقال ابن عطية: وقوله تعالى **﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾** يريد من الحسنات**﴿وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾** يريد من السيئات، قاله السدى وجماعة من المفسرين لا خلاف فى ذلك والخواطر ونحوها ليس من كسب الإنسان. وجاءت العبارة فى الحسنات بـ (**لها**) من حيث هى مما يفرح الإنسان بكسبه ويسر بها فتضاف إلى ملكه، وجاءت فى السيئات بـ (**عليها**) من حيث هى أوزار وأثقال ومتحملات صعبة. وهذا كما تقول لى مال وعلى دين، وكما قال المتصدق باللقطة: (**اللهم عن فلان فإن أبى فلى وعلىّ**) وكرر فعل الكسب فخالف بين التصريف حسنا لنمط الكلام. كما قال**﴿ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً﴾** (الطلاق: ١٧) هذا وجه، والذى يظهر لى فى هذا أن الحسنات هى مما يكسب دون تكلف، إذ كاسبها على جادة أمر الله ورسم شرعه والسيئات تكتسب ببناء المبالغة إذ كسبها يتكلف فى أمرها خرق حجاب نهى الله تعالى ويتخطاه إليها فيحسن فى الآية مجىء التصريفين إحرازا لهذا المعنى[٣١٠].

وهذا الذى استظهره ابن عطية هو قول حسن، ولا يعترض عليه إلا بما قيل من أنه لا فرق، وقد جاء القرآن بالكسب والاكتساب فى مورد واحد. قال تعالى**﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾** وقال تعالى**﴿ وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا﴾** وقال تعالى**﴿ بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾** وقال تعالى**﴿ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا﴾** فقد استعمل الكسب والاكتساب فى الشر" وقال أبو البقاء" وقال قوم: لا فرق بينهما... وذكر نحوا مما

---

(٣٠٧) انظر الدر المصون ٦٩٧/١.

(٣٠٨) انظر الكشاف ١٧٢/١ وانظر الرازى ٥٢/٥١/٤.

(٣٠٩) انظر الطبرى ١١١/٢٩.

(٣١٠) انظر المحرر الوجيز ٣٩٣/١، وقد نقل كلامه كل من القرطبى ١٢٣٨/٢، ١٢٣٩، والسمين الحلبى ٦٩٧/٦٩٦/١.

تقدم" وقال الواحدى الصحيح عند أهل اللغة أن الكسب والاكتساب واحد لا فرق بينهما قال ذو الرمة:

..... ألفى أباه بذاك الكسب يكتسب

قلت إنما أتى فى الكسب باللام وفى الاكتساب بـ "علـى" لأن اللام تقتضى الملك، والخير يحب ويسر به فجىء معه بما يقتضى الملك، ولما كان الشر يحذر وهو ثقل ووزر على صاحبه جىء معه بـ "على" المقتضية لاستعلائه عليه وقال بعضهم" فيه إيذان أن أدنى فعل الخير يكون للإنسان تكرما من الله على عبده حتى يصل إليه ما يفعله معه ابنه من غير علمه به، لأنه من كسبه فى الجملة، بخلاف العقوبة فإنه لا يؤاخذ إلا من وجد فيها واجتهد وهذا مبنى على القول بالفرق بين البنائين وهو الأظهر"[٣١١]. ويمكن التوفيق بين ما ذكر بحمل الفعل المجرد كسب فى حق العاصى على معنى إلفه لارتكاب تلك المعاصى فلم يعد يتكلفها[٣١٢]. أما اكتسب فقد تتبعت مواضعها فى القرآن فلم أجدها قد جاءت بمعنى كسب الحسنات. ومن ثم لم يعبر القرآن عن كسب الطاعة إلا بصيغة **(فعل)** أما فى المعصية فقد عبر بفعل وافتعل ليشمل كل معصية سواء ما كان باعتمال وتكلف واجتهاد ومبالغة، أو ما كان بلا مبالاة ولا تكلف فيها.

ويؤيد ذلك أنى تتبعت ما ورد فيه الفعل **(كسب)** المجرد فوجدت أن أغلبه يأتى فى وصف الكافرين أو الفاسقين الذين تجرأوا على المعصية فصاروا لا يبالون بها أما الفعل **(اكتسب)** فلم يأت فى القرآن إلا فى أربعة مواضع اثنان منهما فى آية واحدة يتحدثان عن اكتساب المال، وهما قوله تعالى **﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾** (النساء: ٣٢) وواضح أن اختيار صيغة افتعل فى هذا الموضع مناسب لاكتساب المال وما يلزم له من تصرف واجتهاد وكلفة.

أما الموضعان الآخران فهما آية البقرة التى معنا**﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾** وهى التى نحتج لها والحديث فيها فى حق من يفترض فيه امتثاله للشرع واستجابته لتكليفه بدليل ما قبلها**﴿ لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا﴾** فهى فى حق المومن بهذا التكليف، وهو لا يقدم على المعصية إلا بتكلف ومراودة لنفسه التى تتأبى على العصيان، ولا يحملها عليه إلا غلبة الشهوة والهوى، فكأن نفس المؤمن لا تقدم على

---

(٣١١) انظر الدر المصون ٦٩٧/١.

(٣١٢) انظر د/ نجاة الكوفى/ أبنية الأفعال ص ٥٩.

المعصية إلا بنوع تردد وتكلف، بخلاف نفس الكافر والفاجر الذى جروء على المعاصى.

وأما الموضع الثانى فهو قوله تعالى فى جزاء من خاض فى عرض عائشة (رضى الله عنها) **﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ﴾** (النور: ١١) وهؤلاء الذين خاضوا فى عرض عائشة ليسوا كفارا بل هم من المسلمين بدلالة قوله تعالى **﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ﴾** (النور: ١١). وإن كان الذى تولى كبره منافق، وإن كان منافقا فإنه مسلم فى الظاهر كذلك والخطاب إنما يراعى فيه الأغلب وهم جماعة المؤمنين، ومن ثم جاء التعبير عن اكتساب المعصية هنا بصيغة افتعل مناسبة لحال هؤلاء المسلمين الذين ضعف إيمانهم وزلت ألسنتهم فخاضوا مع ذلك المنافق فى عرض أم المؤمنين فهم لم يقدموا على تلك القولة الشنيعة مع ما عندهم من إسلام وتعظيم لبيت النبوة إلا بقدر كبير من التكلف والتحرج والاعتمال، أما ذلك المنافق فقد أقدم عليها بملء فيه ملتويا فى قيلها متصرفا فيه، مبالغا فيه أشد المبالغة، ومن ثم فقد ناسب صيغة افتعل بدلالتها على التكلف والاعتمال والمبالغة والاجتهاد حال الفريقين من المسلمين والمنافقين الخائضين فى عرض أم المؤمنين أتم المناسبة.

ومن ذلك ما جاء فى قوله تعالى **﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾** (الأعراف:٣)

وسياق الآية هنا فى أمر المؤمنين باتباع ما أنزل إليهم من الله ونهيهم عن اتباع الأولياء من دونه سبحانه[٣١٣].

حيث يأتى التعبير بصيغة افتعل الدالة على الاجتهاد والكلفة والتحرى[٣١٤].

وهذا يعنى تحرى شرع الله عز وجل والاجتهاد فى اتباعه والالتزام بأوامره. وأما التعبير بصيغة **(افتعل)** فى النهى عن اتخاذ شركاء يشرعون من دون الله تعالى فالنكتة فيه أنه إنما نهى عما تكلفه صاحبه وقصد إليه دون ما وقع بغير كلفة ولا قصد.

فلعله عبر بالافتعال إيماء إلى ما كان دون علاج بل هفوة وبنوع غفلة فى محل العفو"[٣١٥]

---

(٣١٣) انظر الكشاف ٥٢/٢، روح المعانى ٧٧/٨، نظم الدرر ٣٥٥/٧.

(٣١٤) انظر العدول إلى صيغة افتعل وانظر الكتاب سيبويه ٢٤١/٢، شرح الشافية ١٠٨/١، شذا العرف ص ٤٤.

وشبيه بذلك أيضا التعبير بصيغة (**افتعل**) فى قوله تعالى:﴿ **يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾ (ص:٢٦) أى لا تتبع هوى النفس فى الحكومات[٣١٦].

ويفيد كلام البقاعى فى هذا الموضع أن التعبير بصيغة الافتعال أفاد أنه سبحانه وتعالى عفا عن الخطرات وما بادر الإنسان الرجوع عنه والخلاص منه توبة إلى الله"[٣١٧].

ومن ذلك أيضا ما جاء فى رد الرسول ﷺ على الكافرين حينما طلبوا منه أن يأتيهم بآية فأجابهم بأنه إنما يتبع ما يوحى إليه[٣١٨] حيث قال عز وجل﴿**وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِن رَّبِّي** ﴾ (الأعراف: ٢٠٣).

قال الزمخشرى" اجتبى الشيء معنى جباه لنفسه أى جمعه كقولك أى جمعه أو جبى إليه فاجتباه أى أخذه كقولك جليت إليه العروس فاجتلاها ومعنى (**لولا اجتبيتها**) هلا اجتمعتها افتعال من عند نفسك لأنهم كانوا يقولون إن هذا إلا إفك مفترى أو هلا أخذتها منزلة عليك مقترحة (**قل إنما يوحى إلى من ربى**) ولست بمفتعل للآيات أو لست بمقترح لها[٣١٩].

فالمشركون قد طلبوا من النبى ﷺأن يفتعل الآيات سخرية منهم ﷺ أو يتكلف طلبها لهم ويتعمده لأجلهم فناسب ذلك أن يقابل القرآن هذا التكلف والتعمد المقترح فى الاقتراح على الله تعالى والتقدم بين يديه بقوله" **قل إنما أتبع ما يوحى إلى من ربى**" أى أتعمد وأتكلف الاتباع[٣٢٠].

---

(٣١٥) انظر نظم الدرر ٣٥٥/٧.

(٣١٦) انظر روح المعانى ١٨٧/٢٣.

(٣١٧) انظر نظم الدرر ٣٦/١٦.

(٣١٨) انظر الكشاف ١١١/٢.

(٣١٩) انظر الكشاف ١١١/٢.

(٣٢٠) انظر صيغة افتعل فى القرآن الكريم فى المجالات الدلالية د/ زين الخويلى دار المعارف ص ٧٦.

اختيار صيغة (تَفعَّل)

من ذلك قوله تعالى: ﴿**يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ**﴾ (يوسف: ٨٧) تأتى هذه الصيغة لمعان، مما يناسب السياق التكلف كتصبر وتحلم: أى تكلف الصبر والحلم، والتدرج فى الشيء وللعمل المتكرر فى مهلة، وتأتى بمعنى استفعل دالة على الطلب[٣٢١] والمتأمل فى سياق الآية السابقة على لسان يعقوب عليه السلام يجد أن الصيغة قد وظفت بتلك المعانى السابقة لتطابق مقتضى الحال الذى سيقت لأجله، فيعقوب عليه السلام قد أحدس بفطنته، ونور بصيرته أن وراء الأمر شيئا لذا فهو يوصى بنيه وأخيه، وتأتى هذه الصيغة (**التفعل**) هنا لتعبر عن معنى الحيطة والحذر والتمهل فى تحسس الخير وتجسسه، كما تأتى بمعنى الطلب، إذا التحسس (**طلب الشيء بالحواس من البصر والسمع**)[٣٢٢] كما عبرت الصيغة كذلك عن تكرر الحدث، مما يدل على الاجتهاد فى استقصاء خبر يوسف وأخيه، وتكرار المحاولة مرة بعد مرة وهذا ما يدل عليه قوله تعالى بعد ذلك ﴿**وَلاَ تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الكَافِرُونَ**﴾ (يوسف:٨٧). ومن ثم جاءت تلك الصيغة معبرة تماما عن الأمر المطلوب وهو تقصى الخبر مع الحيطة والحذر، وتكرار المحاولة مع عدم اليأس. وانظر أيضا ما جاء منها على صيغة المصدر (**تَـفَعَّل**).

اختيار صيغة (استفعل)

من المعانى التى تأتى لها صيغة استفعل:

١- الطلب حقيقة كاستغفرت الله: أى طلبت مغفرته، أو مجازا كاستخرجت الذهب من المعدن، سميت الممارسة فى إخراجه، والاجتهاد فى الحصول عليه طلبا حيث لا يمكن الطلب الحقيقى[٣٢٣].

٢- القوة كاستهتر واستكبر: أى قوى هتره وكبره[٣٢٤].

---

(٣٢١) انظر شرح الشافية ١/١٠٤-١٠٦، وشذا العرف ص ٤٥.

(٣٢٢) انظر المحرر الوجيز ٣/ ٢٧٤، وانظر مفاتيح الغيب ٩/١٣٥-١٣٦، روح المعانى ١٣/٤٤، الدر المصون ٤/٢١٠.

(٣٢٣) انظر شذا العرف ص ٤٦.

(٣٢٤) انظر شذا العرف ص ٤٧.

فمن ذلك قول الله تعالى على لسان نوح عليه السلام: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ (نوح:٧) والمقام هنا مقام تصوير مدى مبالغة هؤلاء الكافرين المعاندين فى الإعراض عن دعوة نوح عليه السلام، وصدودهم عنها، وتأتى صيغة استفعل فى تصوير اجتهادهم ومبالغتهم فى تغشية وجوهم وتغطيتها لئلا يراهم نوح عليه السلام مع تصويره قوة استكبارهم واستنكافهم كذلك عن قبول دعوته، جاء ذلك متجاوبا مع مقام الإعراض ومع تلك الصورة المجازية التى تصور القوم وقد جعلوا أصابعهم جميعها فى آذانهم دون الأنامل مبالغة فى الصدد والإعراض، كما يأتى ذلك متجاوبا مع ذلك الإصرار على الكفر والإعراض الذى وصفتهم به الآية الكريمة.

٣- اختيار صيغة ذات معنى متعدد

يعد هذا المبحث تطبيقا لظاهرة المشترك الصيغى أو تعدد المعنى الواحد للصيغة الواحدة، التى سبق أن تعرضنا لتأصيلها فى مبحث الدلالة بين تعدد الصيغة وتعدد المعنى.

وقد أحببت أن أفرد نماذج تلك الظاهرة فى مبحث خاص بها؛ لأنى رأيت أن أمثلة ونماذج تلك الظاهرة من الكثرة بحيث تكاد تمثل ظاهرة أسلوبية يتميز بها التوظيف البلاغى لصيغة الكلمة فى القرآن الكريم خاصة؛ بل رأيت أن هذه الظاهرة من أوضح البراهين الدالة على الإعجاز البيانى لكتاب الله المعجز.

فمن أمثلتها: قوله تعالى﴿ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكاً وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ (المؤمنون: ٢٩) عبرت الآية بصيغة **(مفعل)** فى **(منزلا)** وهذه الصيغة صالحة لكى تكون اسم مفعول من الفعل (أنزل) ومصدرا منه واسم مكان[٣٢٥].

وهى هنا فى الآية تحتمل أن تكون مصدرا أى: أنزلنى إنزالا مباركا، وتحتمل أن تكون اسم مكان أى أنزلنى مكانا مباركا[٣٢٦]. ويصعب فى مثل هذا الموضع أن نجزم بأحد المعنيين، والذى نرجحه والله أعلم بمراده أن كلا المعنيين مراد فالسياق لا يأبى أحدهما، فالحمل على المصدر يجعل المراد طلب البركة من الله فى الحدث نفسه فيكون هبوطه ونزوله مباركا من الله تعالى، والحمل على المكان يجعل المراد طلب البركة من الله تعالى فى المكان الجديد الذى رست عليه سفينة نوح عليه السلام، ولا شك أن كلا الأمرين كانا مطلوبين لنوح عليه السلام أن يبارك الله له فى إنزاله وفى

---

(٣٢٥) انظر نزهة الطرف لابن هشام ص ١٠٦.

(٣٢٦) انظر نزهة الطرف لابن هشام ص ١٠٦، وانظر الكشاف ٤٦/٣، ٤٧، والمحرر الوجيز ١٤٢/٤، والدر المصون ٥ ١٨٠، والألوسى ٢٨/١٧.

مكان نزوله، ومن ثم فلا مانع هنا فى هذا السياق من حمل الصيغة على كلا معنييها ويكون ذلك من بلاغة القرآن وإعجازه وحسن إيجازه ومن ثم يكون اختيار تلك الصيغة هنا فى غاية الجودة لما تشتمل عليه من إيحاءات وظلال معنوية تغطى كافة المعانى المحتملة فى ذلك الموقف.

وعلى كل نقول: إن كان لا بد لنا من ترجيح أحد معانى تلك الصيغة هنا، فنحن نرجح إرادة المكان على المصدر وذلك لأن هذا الموقف فيما نرى يعبر عن جانب نفسى لدى نوح عليه السلام وهو تلك المشاعر التى يمكن أن تستولى عليه عند رسو السفينة فى ذلك المكان الجديد الموحش حيث أهلك الله تعالى قوم نوح عليه السلام، وغدت الأرض بعدهم بلاقع لا حياة فيها ولا أنيس حتى من الوحش أو الطير، فلا شك أن يكون ذلك المكان الجديد مصدرًا للخوف والقلق يدعوا المرء أن يتوجه إلى ربه بطلب بركته على هذا المكان حتى يستطيع نوح ومن معه من المؤمنين أن يستأنفوا فيه حياة جديدة وهذا بلا شك موقوف على أن يأذن الله تعالى لتلك الأرض الجديدة أن تخرج خيرها، وأن يبارك فيها.

ومع هذه المحاولة منا لترجيح أحد معنيى الصيغة، فإن الصيغة تظل بعد ذلك محتملة كلا المعنيين أو نقول إنها تدل على أحد المعنيين بالأصالة وتفيد فى الوقت نفسه من ظلال المعنى الآخر مما يودى إلى إثراء المعنى.

وهذه الصيغة لها نظائر فى قول الله تعالى:

﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيماً﴾ (النساء: ٣١) هى تحتمل كسابقتها كذلك أن تكون مصدرا أو اسم مكان[٣٢٧] والمصدر له وجه وهو أن يكون الإدخال نفسه كريما، ألا ترى كيف غاير الله تعالى فى التعبير عن إدخال كل من الفريقين إلى مستقره فى سورة الزمر فقال: **﴿وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها﴾** ...، **﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾** ... (الزمر: ٧١-٧٣) فأتى بواو الحال مع أهل الجنة كأنه قيل حتى إذا جاءوها وقد فتحت أبوابها[٣٢٨] فهذا يدل على أن الحمل على المصدر فى قوله تعالى**﴿ مُّدْخَلاً كَرِيماً﴾** ليس بعيدا، وكذلك الحمل على المكان وهو الجنة وحسبك به مدخلا كريما. فالحمل على المعنيين فى مثل هذا الموضع من الإعجاز القرآنى بمكان كذلك لما فيه من تناغم المعانى واتساقها وتآزرها على توفية المقام حقه، وهو الترغيب فى اجتناب مناهيه وزواجره سبحانه وتعالى.

---

(٣٢٧) انظر الدر المصون ٣٥٣/٢.

(٣٢٨) انظر الكشاف ٣٥٨/٣، وانظر الجلالين ص ٦١٦.

ومن نظائر ذلك الموضع كذلك قوله تعالى فى سورة الحج فى وصف الشهداء والمهاجرين فى سبيل الله ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾ (الحج: ٥٩) تحتمل المعنيين كذلك: المصدر أو اسم المكان[٣٢٩] وفيما ذكره الألوسى ترشيح لكلا المعنيين قال:" مدخلا إما اسم مكان أريد به الجنة كما قال السدى وغيره أو درجات فيها مخصوصة بأولئك المهاجرين كما قيل، وقيل هو خيمة من درة بيضاء لا فصم فيها ولا وصم لها سبعون ألف مصراع، أو مصدر ميمى وهو على الاحتمال الأول مفعول ثان للإدخال وعلى الثانى مفعول مطلق، ووصفه بيرضونه على الاحتمالين لما أنهم يرون إذا أدخلوا مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وقيل على الثانى : إن رضاهم لما أن إدخالهم من غير مشقة تنالهم بل براحة واحترام[٣٣٠].

وأرى والله أعلى وأعلم أن هذه المواضع السابقة كلها يجوز فيها الحمل على المعنيين جميعا أو ترجيح الحمل على المكان مع إفادة الصيغة بظلال معنى المصدر.

وبينما يترجح هنا فى هذه المواضع السابقة معنى الحمل على المكان، فثمة موضع آخر يترجح فيها الحمل على المصدر، وذلك كما فى قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَاناً نَّصِيراً﴾ (الإسراء: ٨٠)

قال ابن جرير" واختلف أهل التاويل فى معنى مدخل الصدق الذى أمر الله نبيهﷺ أن يدخله إياه وفى مخرج الصدق الذى أمره أن يرغب إليه فى أن يخرجه اياه"[٣٣١].

ثم حكى هذه الأقوال وعقب عليها بقوله: وأشبه هذه الأقوال بالصواب فى تأويل ذلك قول من قال معنى ذلك وأدخلنى المدينة مدخل صدق وأخرجنى من مكة مخرج صدق وإنما قلنا ذلك أولى بتأويل الآية لآن ذلك عقيب قوله﴿ وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذاً لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ وقد دللنا فيما مضى على أنه عنى بذلك أهل مكة فإذا كان ذلك عقيب خبر الله عما كان المشركون أرادوا من استفزازهم رسول الله ﷺ ليخرجوه عن مكة كان بينا إذا كان الله قد أخرجه منها أن قوله وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق أمر منه له بالرغبة إليه

(٣٢٩) انظر الألوسى ١٨٩/١٧، والجلالين ٤٤١.

(٣٣٠) انظر الألوسى ١٨٩/١٧.

(٣٣١) انظر الطبرى ١٠٠/١٥.

في أن يخرجه من البلدة التي هم المشركون بإخراجه منها مخرج صدق وأن يدخله البلدة التي نقله الله إليها مدخل صدق[٣٣٢].

والراجح من أقوال المفسرين في الآية هو ما رجحه الطبري وهو ترجيح الجلالين[٣٣٣] وهو ما يدل عليه السياق كما بينه إمام المفسرين الطبري (رحمه الله) والذي يرجح لدينا معنى الحمل على المصدرية في الآية هو الوصف بالصدق، فحمله على المصدر أولى وأليق من حمله على المكان، لأن المعنى كما قال في الجلالين (أدخلني) المدينة (مدخل صدق) إدخالا مرضيا لا أرى فيه ما أكره (وأخرجني) من مكة (مخرج صدق) إخراجا لا ألتفت بقلبي إليها"[٣٣٤] ومن ثم جاء الوصف للإدخال والإخراج نفسه بالصدق لأنه منظور فيه إلى حال المدخل والمخرج وهو محمد ﷺ ومدى انقياده لأمر الله تعالى واستسلامه له، وعدم تعلق قلبه بوطنه ومهده الأول، والتفاته عن ذلك كله بهجرة صادقة إلى الله تعالى.

ومن ثم يترجح المصدر مع الإفادة بظلال وصف المكان الذى سيدخله النبي ﷺ وهو المدينة بكونه مدخل صدق وحق، ويصدقه الله فيه ما وعده من النصر والفتح والظهور.

وقد يحتمل السياق - والله أعلم - جواز حمل (مخرج) على المكان أيضا مرادا به المكان الذي سيخرج إليه النبي ﷺكذلك ويكون ذلك من باب التوكيد المعنوى، وإن كان [illegible] جح الواضح وعليه كلام المفسرين هو الحمل على المصدر وهو ....

ومن أمثلة اختيار صيغة ذات معنى متعددة كذلك: قوله تعالى:﴿بَلِ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ (القيامة: ١٤)

حيث ذكروا فيه ثلاثة أقوال:

الأول: أن البصيرة اسم مصدر، وهو قول الأخفش: جعله هو البصيرة كما تقول للرجل: أنت حجة على نفسك"[٣٣٥].

---

(٣٣٢) انظر الطبرى ١٠١/١٥، وانظر الكشاف ٣٧٢/٢.

(٣٣٣) انظر الجلالين ص ٣٧٥.

(٣٣٤) انظر الجلالين ص ٣٧٥.

(٣٣٥) انظر عانى القرآن ٥٧١/٢.

والثانى: أنه وصف مبالغة، وهو قول أبى عبيدة" جاءت هذه الهاء فى صفة الذكر كما جاءت فى رواية وعلامة وطاغية"(٣٣٦).

الثالث: أن البصيرة هى" جوارحه تشهد عليه بما عمل"(٣٣٧).

وهذه الأقوال الثلاثة مما يحتملها سياق الآية، ولا مانع من حمل المعنى عليها جميعا، فالسياق لا يأباه بل يأتلف معها أتم الائتلاف؛ فالإنسان فى هذا اليوم بصير على نفسه أتم البصر فقد انكشف عنه غطاء الغفلة والشهوات حيث قال له **﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾** (ق: ٢٢) حيث جاء البصر موصوفا بحديد على سبيل المبالغة، مما يشعر بقوة البصر والبصيرة فى هذا اليوم وله من جوارحه بصيرة تشهد له وعليه(٣٣٨) وهو نفسه بصيرة أى حجة على نفسه، ومن ثم تتلاقى ظلال تلك المعانى جميعا لإثراء المعنى(٣٣٩).

ومن ذلك أيضا الاشتراك الواقع فى صيغة (فعيل) فى قوله تعالى: **﴿وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾** (ق: ٤) صيغة فعيل هنا (**حفيظ**) هى إما بمعنى (**حافظ**) أو بمعنى (**محفوظ**) وهاتان الصفتان ليستا لشيئين مختلفين وليستا متناقضتين معا؛ بل يصح وصف الشيء الواحد بهما معا، فلا يمتنع أن يوصف الكتاب وهو اللوح المحفوظ بأنه" محفوظ من الشياطين ومن التغير، أو حافظ لما أودعه وكتب فيه"(٣٤٠). كما قال الزمخشرى.

ويصعب الترجيح فى مثل هذا الموضع كذلك؛ وإن كانت قرينة السياق يمكن أن تعيننا فى ترجيح المعنى الثانى دون الأول.

قال تعالى: **﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ * بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ * أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ * قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ *بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾**

---

(٣٣٦) انظر مجاز القرآن٢/٢٧٧.

(٣٣٧) انظر الرازى ٢٧/١٦ وقد ذكر هذه الأقوال الثلاثة بشيء من التفصيل، وانظر بصائر ذوى التمييز، وأحب أن أشير إلى أن المعنى الثالث: ليس من المعانى الوظيفية للصيغة ولكنه داخل فيما تحتمله الصيغة.

(٣٣٨) انظر المفردات للراغب ص ٤٩.

(٣٣٩) انظر الفيروزآبادى ٢/ ٢٢٢.

(٣٤٠) الكشاف ٤/٨.

(ق: ١-٥) فسياق الآيات يدل على أنهم يستبعدون إحصاء الله تعالى لذرات أجسادهم بعد أن تغيب فى الأرض، وذلك كما ذكر الله تعالى عنهـم:﴿ **وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ** ﴾ (السجدة: ١٠) أى أئذا" غبنا فيها بأن صرنا ترابا مختلطا بترابها"[٣٤١] فكأن مثار الشك أو الجدل لذى هؤلاء الكافرين هو فى كون الكتاب حافظا لذرات أجسادهم؛ لا فى كونه محفوظا؛ ولكن آثرا التعبير القرآنى المعجز صيغة (**فعيل**) لكى يثبت كلا المعنيين: كونه حافظا، وكونه محفوظا؛ وذلك لأنه إذا كان المراد هو إثبات كونه حافظا؛ فإن مما يتم به المعنى أن يكون الكتاب محفوظا كذلك من التغيير والتبديل؛ إذ لا يتم الحفظ إلا بذلك.

ومن ثم نرى أن اختيار القرآن الكريم للصيغة ذات المعنى المتعدد على بدائلها ذات المعنى الواحد يعد من الأدلة الواضحة على الإعجاز البيانى لهذا الكتاب الخالد.

---

(٣٤١) تفسير الجلالين ص ٥٤٦.

الأساس الثانى

العـدول

ثمة أساس آخر للإعجاز الأسلوبي لصيغة الكلمة نستطيع أن نلمح وقوف البلاغيين عليه واعتماده لديهم أساسا للكشف عن الدور البلاغى لصيغة الكلمة وهذا الأساس الثانى هو ما أطلق عليه فى تراثنا البلاغى مصطلح العدول. فإذا كانت البلاغة ترجع فى سائر تعريفات البلاغيين التى سبق ذكرها إلى حسن تخير اللفظ، فإنه مما يجدر بنا التنبيه إليه أن هذا التخير أو الاختيار للفظ يمثل فى غالب الأحيان أنواعا من العدول.

فالاختيار فى حقيقته إنما هو عدول عن المستوى النمطى أو العادى من اللغة إلى المستوى الفنى من الكلام وقد يمثل تخير اللفظ نوعا من العدول عن النظام اللغوى أو عن الاستخدام الشائع، أو عدولا داخليا وهو ما يسميه ريفاتير بالعدول السياقى ، وهو العدول المعتبر لدينا بخلاف تلك النظرة الأخرى التي تكاد تفرق في النظر للأسلوب بين كونه اختيارا أو عدولا ؛ ولذلك ترددت تعريفاتهم للأسلوب بين كونه اختيارا أو عدولا.[٣٤٢]

وهذا الذي توصل إليه الأسلوبيون قد كان للزمخشرى النصيب الأعظم من الالتفات إليه فى القرآن الكريم، وتبعه على هذا النهج كافة من جاء بعده من المفسرين حتى إن بعضهم لا يزيد فى كثير من المواضع على أن يحكى عبارة الزمخشرى فى بيان ما اشتملت عليه الآية من اختيار أو عدول فى جانب الصيغ، والحق أنه ما أبلى أحد فى هذا الأمر ما أبلاه ضياء الدين بن الأثير ت ٦٣٧ هـ فى كتابه "المثل السائر" من كلامه فيما سماه تارة بالعدول، وتارة بالنقل أو الانتقال وذلك فى الفصل الذى عقده بعنوان" قوة اللفظ لقوة المعنى"[٣٤٣] ومما يقتضيه المقام هنا أن نقف عند توظيفه لمصطلح العدول كأساس من أسس التوظيف البلاغى لصيغة الكلمة.

فمن ذلك ما ذكره عند قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ (القمر:٤٢) حيث يقول:" فمقتدر هنا أبلغ من قادر، وإنما عدل إليه للدلالة على التفخيم للأمر.."[٣٤٤] فهو يلمح ما فى الآية من عدول عن الأصل اللغوى (قادر) على صيغة

---

(٣٤٢) انظر ماسبق ذكره في تعريف الأسلوب في الفصل الأول.

(٣٤٣) المثل السائر ٢٤١/٢- ٢٤٧ انظر الفصل الخاص بالعلاقة بين الصيغة والمعنى فى الباب الأول من الرسالة.

(٣٤٤) المثل السائر ٢٤١/٢-٢٤٧.

اسم الفاعل إلى الصيغة الأخرى المنتقل إليها وهى (مقتدر) على صيغة (مفتعل) والذى نراه أن الأشبه بالصواب فى هذا الموضع هو مصطلح الاختيار لا العدول عند كل من أبى هلال والباقلانى فيما سبق نقله عنهما فابن الأثير يقول: "فمقتدر ها هنا أبلغ من قادر" فقوله: ها هنا يدل أن المقارنة بين الصيغتين ليست مقارنة مطلقة أى فى حالة الإفراد، وإنما هى مقارنة مقيدة بمدى الفنية فى هذا التركيب بعينه، ومن ثم فإن افتراض أن أصل التعبير فى هذا السياق هو اسم الفاعل (قادر)، افتراض لا مبرر له ولذا فالأقرب أن يكون المراد بالعدول هنا نوعا من الاختيار، لأن الاختيار فى حقيقته إنما هو عدول عن لفظ لآخر.

وقد يقال إن العدول فى هذه الأمثلة التى اعترضنا على إطلاق لفظ العدول عليها إنما هو باعتبار الخروج فيها عن الأصل اللغوى لا عن الأصل السياقى؛ فكأنها إنما عدل فيها عن الأصل المستخدم فى حالة الإفراد لا فى حالة التركيب.

فنقول: الأصل اللغوى: إما أن ينظر إليه فى السياق أو خارج السياق، فالنظر إليه خارج السياق إنما هو شأن الصرفى لا البلاغى.

أما شأن البلاغى فهو أن ينظر إلى الأصل اللغوى داخل السياق لا خارجه أى فى حالة التركيب لا فى حالة الإفراد وذلك كما سبق تأسيسه فى المباحث التمهيدية من البحث وحينئذ يتحد لديه الأصل اللغوى مع الأصل السياقى ومثال ذلك أن ننظر إلى أن الأصل اللغوى فى قولهم: (زيد نهاره صائم وليله قائم) هو نهاره مصوم فيه وليله مقوم فيه وهذا يعنى أنه قد عدل فى هذا السياق عن الأصل اللغوى.

والذى جعلنا نفترض أن التعبير باسم المفعول هو الأصل أن هذا هو ما يقتضيه سياق الكلام وصحة تركيبه لغة وعقلا فإذا عدل عن ذلك مع وجود ما يسوغه لغة، فإن هذا المسوغ إنما هو تلك النكتة البلاغية التى عدل عن الأصل اللغوى لأجلها.

فهذا النوع قد دل على العدول فيه سياق الكلام كما يدل عليه كذلك نظام اللغة أما الأمثلة التى ذكرها ابن الأثير من نحو العدول عن قادر إلى مقتدر، وذكرها أبوهلال وغيره من نحو العدول عن راحم إلى رحيم ورحمن فالأشبه عندى بالصواب أنها من قبيل الاختيار لا من قبيل العدول، وذلك لأن العدول لا يكون إلا عن أصل أو قاعدة ، ولايصح هنا افتراض لغوى ولا أصل سياقى إلا أن يكون المقصود بالعدول هنا هو العدول عن المعنى النمطى إلى المعنى الفنى وهذا النوع من العدول لا يكاد يفترق عن الاختيار فى شىء بل هو حقيقة الاختيار ومن ثم لا نرى ما يدعو إلى تخصيصه باسم مستقل عن الاختيار. أما ما يصح تخصيصه بمصطلح العدول فهو ما يكون العدول فيه عن الأصل السياقى للكلام خاصة إذا ما اتسع مصطلح السياق لدينا ليشمل

البيئة الزمانية والمكانية التى قيل فيها النص كذلك؛ بحيث يفترض أن يتجرد المتلقى للنص عن ذاته ويعد نفسه أحد المخاطبين بهذا النص فى البيئة التى قيل فيها.

ومن أمثلة هذا العدول السياقى عند ابن الأثير تلك الأمثلة التى عرض لها ابن الأثير فى حديثه عن القسم الثانى من الالتفات حيث قسم الالتفات إلى ثلاثة أقسام:

الأول: وهو ما يختص بالضمائر(٣٤٥) وهو ما يقع خارج دائرة البحث.

الثانى والثالث: يختصان بالالتفات أو الانتقال الواقع فى صيغ الأفعال، وهو ما يعنينا فى هذا البحث.

فمما جاء منه قوله تعالى﴿ **قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللّهَ وَاشْهَدُواْ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ** ﴾ (هود:٥٤)؛ فإنه إنما قال" أشهد الله واشهدوا" ولم يقل وأشهدكم ليكون موازنا له لأن إشهاده الله على البراءة من الشرك صحيح ثابت، وأما إشهادهم فما هو إلا تهاون بهم، ودلالة على قلة المبالاة بأمرهم، ولذلك عدل به عن لفظ الأول لاختلاف ما بينهما، وجيء به على لفظ الأمر كما يقول الرجل لمن يبس الثرى بينه وبينه:" اشهد على أنى أحبك" تهكما به واستهانة بحاله(٣٤٦)

فالعدول هنا فى كلام ابن الأثير قد وظف توظيفا صحيحا لأنه عدول عن الأصل السياقى؛ وذلك لأن السياق يقتضى (وأشهدكم) بصيغة المضارع إلا أنه قد عدل عن هذا الأصل السياقى للنكتة التى بينهما ابن الأثير.

ويمضى ابن الأثير فى عرض أمثلة هذا النوع من الالتفات فيقول:" وكذلك يرجع عن الفعل الماضى إلى فعل الأمر إلا أنه ليس كالأول، بل إنما يفعل ذلك توكيدا لما أجرى عليه فعل الأمر لمكان العناية بتحقيقه كقوله تعالى﴿ **قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ**﴾ (الأعراف: ٢٩) وكان تقدير الكلام: أمر ربى بالقسط وبإقامة وجوهكم عند كل مسجد فعدل عن ذلك إلى فعل الأمر للعناية بتوكيده فى نفوسهم، فإن الصلاة من أوكد فرائض الله على عباده ثم أتبعها بالإخلاص الذى هو عمل القلب، إذ عمل الجوارح لا

---

(٣٤٥) المثل السائر ١٦٨/٢.

(٣٤٦) المثل السائر ص ١٧٩-١٨٠.

يصح إلا بإخلاص النية ولهذا قالﷺ "الأعمال بالنيات"[٣٤٧] وواضح هنا كذلك أن العدول هنا عن أصل يقتضيه السياق وهو ما قدره ابن الأثير فى كلامه السابق.

ونستطيع أن نتبين هذا السياق الذى تم العدول عنه كذلك فى أمثلة القسم الثالث الذى ذكره ابن الأثير من أقسام الالتفات وهو فى الإخبار عن الفعل الماضى بالمستقبل، وعن المستقبل بالماضى، وذلك فى قوله تعالى: ﴿**وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ**﴾ (فاطر:٩) فالأصل الذى يقتضيه السياق هنا هو (فأثارت) وعدل عنه لغرض بلاغى وعلى هذا ورد قول تأبط شرا:

بأنى قد لقيت الغول تهوى ... بسهب كالصحيفة صحصحان

فأضربها بلا دهش فخرت ... صريعا لليدين وللجران[٣٤٨]

فأصله: (فضربتها) وعليه ورد قوله تعالى أيضا ﴿ **ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأَنْعَامُ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ * حُنَفَاءَ للهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ** ﴾ (الحج: ٣١-٣٢) فقال أولا:" خرّ من السماء" بلفظ الماضى، ثم عطف عليه المستقبل لاستحضار صورة خطف الطير إياه وهوى الريح به[٣٤٩]. وتقرير الأصل السياقى فيه (فخطفته الطير أو هوت به الريح) وهكذا فى سائر الأمثلة التى عرض لها ابن الأثير.

والمقصد من ذلك هو الخروج بنقطة هامة وهى أن العدول فى هذه الأمثلة كلها إنما هو عدول عن الأصل السياقى المقدر فالسياق هو الذى دل على العدول فى تلك الأمثلة كلها، ومن ثم يصح أن نعتبر السياق هو الأصل أو القاعدة التى تنحرف عنها الصيغة أو تعدل عنها إلى صيغة جديدة خالفت السياق لنكتة أو غرض بلاغى تطابق به مقتضى الحال وتتحقق به المعانى الفنية المطابقة التى هى غاية البلاغة.

وهذا هو الظاهر فى القاعدة التى يحدد ابن الأثير العدول على أساسها فى تلك الأمثلة السابقة.

---

(٣٤٧) المثل السائر ص ١٨٠.

(٣٤٨) المثل السائر ص ١٨٣.

(٣٤٩) المثل السائر ص ١٨٣-١٨٤.

هذا وقد وقف ابن الأثير أمام ظاهرة العدول في الصيغ في مبحث أفرده لذلك سماه اختلاف صيغ الألفاظ واتفاقها[٣٥٠] وسوف نقف هنا على أهم ما جاء فيه مما يتعلق بظاهرة العدول فى الصيغ.

قال ابن الأثير: "أما اختلاف صيغ الألفاظ فإنها إذا نقلت من هيئة إلى هيئة كنقلها مثلا من وزن من الأوزان إلى وزن آخر وإن كانت اللفظة واحدة أو كنقلها من صيغة الاسم إلى صيغة الفعل أو من صيغة الفعل إلى صيغة الاسم أو كنقلها من الماضى إلى المستقبل أو من المستقبل إلى الماضى، أو من الواحد إلى التثنية أو إلى الجمع أو إلى النسب أو إلى غير ذلك انتقل قبحها صار حسنا، وحسنها صار قبحا.. فذكر أمثلة ثم قال:" ومن هذا النوع ألفاظ يعدل عن استعمالها من غير دليل يقوم على العدول عنها ولا يستفتى من ذلك إلا الذوق السليم وهذا موضع عجيب لا يعلم كنه سره" (٣٣) هذا النوع إذاً - على ما يرى ابن الأثير لا ضابط له ولا حاكم فيه إلا الذوق السليم، والذى أراه أن الإحالة على الذوق إحالة على غيب، وعلى أمر يتفاوت فيه الناس، بلا ضابط يضبطهم ولا حاكم يحكمهم، وإن كان هذا لا يعنى أننا ننكر أمر الذوق؛ فهذا مما لا ينكر؛ بل لولاه ما اهتدى مهتد إلى حسن ولا قبح، ولا فصاحة ولا عى؛ إلا أن ما ننكره أن يكون الذوق مشجبا لكل من عجز عن بيان علة حسن الشىء أو قبحه؛ فيعلق حسن ذلك الشىء أو قبحه على الذوق دونما تعليل ولا بيان.

---

(٣٥٠) المثل السائر ٢٩٣/١ وتبعه فيه الطيبى ٥٠٠/٢-٥٠٣.

النماذج التفصيلية للعدول

١- العدول إلى صيغة الاسم

العدول فى المصادر

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّاباً﴾ (النبأ: ٢٨) حيث عدل فيه عن المصدر تكذيبا لأجل الإيقاع، ولما يدل عليه من المبالغة فى التكذيب أكثر من المصدر الأصلى خاصة وأن أغلب ما يكون العدول يكون للمبالغة[٣٥١]. ويدل على رعاية الإيقاع كذلك تكرر ذلك المصدر بعينه فى نفس السورة فى قوله تعالى ﴿لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلاَ كِذَّاباً﴾ (النبأ:٣٥) وكأن ذلك من حسن الجزاء للمتقين الداعين إلى الله حيث قوبلوا فى الدنيا بذلك الكذّاب، فعصمهم الله فى الآخرة أن يسمعوا فيها لغوا أو كذابا.

من ذلك قوله تعالى﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾ (المزمل: ٨) حيث عدل عن المصدر (تبتلا) إلى (تبتيلا) وقد جرى معظم المفسرين الذين تعرضوا لبيان سر العدول فى هذا الموضع على تعليله برعاية الفواصل[٣٥٢].

قال الزمخشرى (فإن قلت: كيف قيل(تبتيلا) مكان (تبتلا) ، قلت لأن معنى تبتل: بتل نفسك فجيء به على معناه مراعاة لحق الفواصل[٣٥٣].

فالزمخشرى - وتبعه فى ذلك الألوسى - جعل (تبتل) هنا بمعنى بتل، ولكن هذا يثير سؤالا آخر وهو لماذا عدلت الآية إذا عن بتل إلى (تبتل) ؟ والأقرب من هذا وهو الأصوب أن نقول: لماذا عدلت الآية عن عن (التبتل) إلى (التبتيل)؟ وهل السر فى هذا العدول هو مجرد رعاية الفاصلة؟

قال الألوسى:" (تبتيلا) ونصبه(تبتل) لتضمنه بتل على ما قيل"[٣٥٤].

---

(٣٥١) انظر الكشاف ١٧٨/٤، والدر المصون ٤٦٥/٦، ٤٦٦، ٤٦٧، المحرر ٤٢٨/٤٢٧/٥ والألوسى ١٦/٣٠، ١٧، ١٨، ومعانى القرآن ٥٢٥/٢.

(٣٥٢) انظر الكشاف ١٥٣/٤ / الألوسى ١٠٦/٢٩، والدر المصون ٤٠٥/٦، والجلالين ص٧٧٣ والقرطبى ٦٨٣٦/١٠.

(٣٥٣) انظر الكشاف ١٥٣/٤.

(٣٥٤) انظر الألوسى ١٠٦/٢٩.

والسر فى هذا العدول عندى والله تعالى أعلم هو تضمين المصدر تبتيلا معنى(التبتل) أيضا، وذلك كما يضمن الفعل معنى فعل آخر عن طريق تعديته بغير الحرف الذى يعدى به، وذلك على نحو قوله تعالى ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ﴾ (الأنبياء:٧٧) أى نجيناه من القوم، حيث أراد أن يبين سبحانه أن هذا النصر لم يكن بالغلبة وإنما كان بالتنجية من أذى قومه، فعداه بـ (من) وكان حقه أن يعدى بـ(على) وذلك ليضمنه معنى نجيناه أى ونجيناه وخلصناه منتصرا من القوم"[٣٥٥].

والتضمين فى الأفعال معروف ومشهور، وبنحوه التضمين فى المصادر كما فى هذا الموضع وكما فى قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتاً﴾[٣٥٦] (نوح:١٧)،

والمقصد أن نبين أن الله تعالى فى هذا الموضع قد ضمن الفعل (تبتل) معنى (بتل)، وضمن المصدر (تبتيلا) معنى (تبتلا)، وكأن المقصود من المخالفة بين الفعل ومصدره هى الإفادة بكلا المعنيين اللذين اشتمل عليهما كل من الفعل والمصدر.

فالفعل (تبتل) على صيغة (تفعل) ، و(تفعل) تأتى لمعان منها التكلف، كتصبر وتحلم: تكلف الصبر والحلم[٣٥٧]

ومن ثم نرى أنه قد أتى بالتبتل وهو على وزن التفعل الدال على التكلف والمحاولة كما فى قول النبى ﷺإنما العلم بالتعلم وإنما الحلم بالتحلم.. الخ فأتى بالتبتل فى الأمر ليتضمن معنى التكلف والتحمل، والتصبر على المشاق مخالف لمألوف النفوس، وذلك لأن النفس لم تتعود العزلة والانقطاع ففى هذا الأمر مشقة عليها تحتاج إلى تكلف ومجاهدة ومحاولة حتى تعتاده النفس ويسهل عليها.

وأتى فى المصدر" بتبتيلا" وهو على وزن" تفعيل" الدال على التكثير[٣٥٨] ليدل على أن المراد هو الإكثار من هذا التبتل والانقطاع، وذلك لحاجة الداعى إليه فى أول الطريق حتى ينال نصيبه من زكاة النفس، ومجاهدتها، وجمعها على محبوبها وفاطرها استغناء به عمن سواه، وتوكلا عليه دون غيره. وبهذا يتضمن الأمر معنى المحاولة والمجاهدة مع الإكثار من التبتل المطلوب للداعى ليكون زادا له فى دعوته للناس.

---

(٣٥٥) انظر ابن كثير ١٨٦/٣.

(٣٥٦) انظر الألوسى ١٠٦/٢٩،٧٥.

(٣٥٧) انظر شذا العرف ص ٤٥.

(٣٥٨) انظر شذا العرف ص ٤٣.

فإذا أضفنا إلى ذلك أن من معانى(تفعل)" مطاوعة" فعل"مضعف العين، كنبهته فتنبه، وكسرته فتكسر"[٣٥٩] فإنه يزداد إدراكنا لذلك الإعجاز القرآنى فى ذلك العدول فى الصيغة فى هذا الموضع، حيث نقف على سر آخر للعدول، وهو أن السبب فى إيثار (تبتّل) على (بتّل) أن (تبتل) مطاوع (بتّل) حيث يقال (بتله فتبتل) فحينما عدلت الآية عن مصدر تبتل إلى مصدر بتل فإنها ضمنت الفعل تبتل معنى(بتل) وهذا يشعر أن هذا التبتل قد حدث بعد كثرة تبتيل للنفس، حيث قال الرازى:" الواجب أن يقال: وتبتل إليه تبتلا أو يقال بتل نفسك إليه تبتيلا لكنه تعالى بم يذكرهما واختار هذه العبارة الدقيقة وهى أن المقصود بالذات إنما هو التبتل فأما التبتيل فهو تصرف والمشتغل بالتصرف لا يكون متبتلا إلى الله لأن لابُدَّ المشتغل بغير الله لا يكون منقطعا إلى الله، إلا أنه أولا من التبتيل حتى يحصل التبتل كما فى قوله تعالى﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا**﴾ (العنكبوت: ٦٩) فذكر التبتل أولا إشعارا بأنه المقصود بالذات وذكر التبتيل ثانيا إشعارا بأنه لا بد منه ولكنه مقصود الغرض[٣٦٠].

فحاصل كلام الرازى وحقيقته الانقطاع إلى الله تعالى عما سواه. ومن ثم فحاصل الوجه الأول الذى ذكرناه آنفا أن التبتل يأتى أولا لاشتماله على التكلف والمحاولة، وحاصل الوجه الذى وجهنا به كلام الرازى أن التبتيل يأتى أولا لتوقف حصول التبتل عليه والذى أراه والله تعالى أعلم أن يكون التفعل بذلك من الأضداد حيث يدل على ابتداء، الشيء ومنتهاه، فحيث ينظر فيه إلى معنى التكلف والمحاولة فهو الابتداء، وحيث ينظر فيه إلى مطاوعة (فعل) فهو الانتهاء فهو حينئذ نتيجة لحدث سابق (بتُل نفسه فتبتلت) ومن ثم فلا تعارض فالسالك إلى الله تعالى مأمور فى بادىء أمره بالتبتل بمعنى التكلف والمحاولة ولكى يصل إلى التبتل بمعنى النتيجة ومطاوعة النفس له على التبتل والانقطاع إلى الله.

ومن ثم يكون فائدة العدول هنا تضمين كل من الفعل والمصدر أحدهما معنى الآخر، ومن ثم يكون كلا الأمرين مطلوبين للسالك إلى الله فلا غنى له عن تكلف التبتل ومحاولته ليحمل نفسه عليه لثقله عليها أول أمره، ولا بد من إكثار التبتل ومحاولته حتى تعتاده النفس وتطاوع له. ومن ذلك أيضا قوله تعالى: ﴿**وَاللَّهُ أَنْبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتاً**﴾ (نوح: ١٧) حيث عدلت الآية عن المصدر (إنباتا) إلى (نباتا)، وقد علل أغلب المفسرين للاختيار فى (أنبتكم) أنه ضمنه معنى الإنشاء[٣٦١] وكان الأولى

---

(٣٥٩) انظر شذا العرف ص ٤٥.

(٣٦٠) انظر الرازى ١٥/٨٠٥، ٨٠٦.

(٣٦١) الألوسى ٢٩/ ٧٥- الدر المصون ٦/٣٨٤- الكشاف ١٢٤/٤.

أن يبينوا سر العدول فى اسم المصدر (نباتا) إلا أنهم اكتفوا بتوجيهه بقولهم (والمعنى: أنبتكم فنبتم نباتا)[٣٦٢].

أما الرازى فقد كان أطول عنقا فى رمق سر هذا العدول حيث قال: كان ينبغى أن يقال أنبتكم إنباتا إلا أنه لم يقل ذلك بل قال أنبتكم نباتا، والتقدير أنبتكم فنبتم نباتا. وفيه دقيقة لطيفة وهى أنه لو قال أنبتكم إنباتا كان المعنى أنبتكم إنباتاً غريبا، ولما قال أنبتكم نباتا كان المعنى أنبتكم فنبتم نباتا عجيبا. وهذا الثانى أولى لأن الإنبات صفة لله تعالى وصفة غيرالله محسوسة لنا، فلا نعرف أن ذلك الإنبات إنبات عجيب كامل إلا بواسطة إخبار الله تعالى.. وأما لما قال "أنبتكم من الأرض نباتا" على معنى أنبتكم فنبتم نباتا عجيبا كاملا كان ذلك وصفا للنبات بكونه عجيبا كاملا، وكون النبات كذلك أمر مشاهد محسوس فيمكن الاستدلال به على كمال قدرة الله تعالى، فكان هذا موافقا لهذا المقام. فظهر أن العدول من تلك الحقيقة إلى هذا المجاز كان لهذا السر اللطيف[٣٦٣]

فالإنبات إنما ينظر فيه إلى صنع الله عز وجل وهو خفى، فعدلت الآية عنه إلى ما هو ظاهر وهو النبات حيث تتجلى فيه مظاهر الإبداع والقدرة، فكان ذلك أقوى مناسبة لمقام بيان قدرة الله تعالى ولطف صنعه، والامتنان على عباده بنعمه، وسياق الآيات يساعد ذلك المعنى أتم المساعدة.

العدول إلى اسم المرة

وذلك كما فى قوله تعالى إخبارا عن قوم نوح وتكذيبهم لنبيهم عليه السلام: ﴿**قَالَ المَلأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ * قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ العَالَمِينَ**﴾ (الأعراف :٦٠-٦١) ويمكننا أن نلمح بوضوح ذلك العدول فى الآية عن صيغة المصدر (ضلال) إلى صيغة اسم المرة (ضلالة)

وسر هذا العدول يرجع إلى أن الملأ من قوم نوح قد اتهموا نوحا عليه السلام بالضلال اتهاما مؤكدا بإن واللام مبالغا فيه بادعاء رؤيتهم له فى ضلال مبين بما يفيده لفظ الرؤية من اليقين والتثبت ولفظ (فى) من معنى الإحاطة والانغماس فى الضلال، ولفظ (مبين) بصيغة (اسم الفاعل) على ضلال بين واضح ثابت، فناسب ذلك أن يسلك نوح فى نفى هذا الاتهام مسلكا آكد وأبلغ من إثباته فلذا عدل عن صيغة المصدر إلى صيغة اسم المرة وأوقعتها نكرة فى سياق النفى لإفادة العموم، واختار حرف الجر الباء لنفى أدنى ملابسة له بالضلالة. فكأنه قال (ليس بى شىء من

---

(٣٦٢) الكشاف/ السابق، المحرر ٣٧٥/٥، الألوسى السابق، الدر المصون السابق.

(٣٦٣) الرازى ٧٤٣/١٥-٧٤٤.

الضلال)[٣٦٤] أو (ليس بى نوع من الضلال ألبتة، فكان هذا أبلغ فى عموم السلب)[٣٦٥]) وذلك لأن اسم المرة لا يدل إلا على الفعلة الواحدة ونفى الأدنى من نفى الأكثر[٣٦٦] (فيرجع حاصل المعنى ليس بى أقل قليل من الضلال فضلا عن الضلال المبين)[٣٦٧]، ولذا قال الطيبى: (أى ضلالة نزرة)[٣٦٨] ومن ثم أفاد اسم المرة نفى أى نوع من أنواع الضلال، أو نفى أقل القليل منه وهو الأرجح؛ لأن اسم المرة وقع نكرة فى سياق النفى فيعم أدنى وحدة من وحداته الدنيا.

العدول إلى اسم الفاعل

من مواضع العدول إلى اسم الفاعل فى القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ (البقرة:١٤٥) حيث عدلت الآية عن التعبير بصيغة الفعل التى عبرت بها فى حق أهل الكتاب إلى صيغة الاسم فى حق النبىﷺ فجاء التعبير باسم الفاعل منفيا لينفى عن النبىﷺ أهليته لهذا الأمر من الأصل، ويؤيد ذلك أن اسم الفاعل يأتى للنسبة ومن ثم كان التعبير باسم الفاعل منفيا لأدنى احتمال فى انتساب النبى ﷺ لمتابعة الكتاب ، وذلك على نحو ما جاء فى قوله تعالى: ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾[٣٦٩] ولذا قال الألوسى:﴿ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ أى لا يكون ذلك منك ومحال أن يكون" وقال الزمخشرى" وما أنت بتابع قبلتهم" حسم لأطماعهم[٣٧٠] هذا فضلا عن أن الإخبار باسم الفاعل فى هذه الجملة أدى إلى تكرار الاسم فيها مما زادها تأكيدا ومبالغة فى النفى المؤكد بالباء[٣٧١] وقد استشف صاحب الظلال تلك المعانى السابقة جميعا فعبر عنها فى عبارة واحدة فقال" وما أنت بتابع قبلتهم" ليس من شأنك أن تتبع قبلتهم أصلا. واستخدام الجملة الاسمية المنفية هنا أبلغ فى بيان الشأن الثابت الدائم للرسول ص تجاه هذا الأمر[٣٧٢].

---

(٣٦٤) الكشاف ٦٧/٢.

(٣٦٥) الرازى ١٦٤/٧- انظر البحر المحيط ٣٢١/٤، -- أبو السعود ٢٣٥/٣.

(٣٦٦) انظر الجلالين ص ٢٠٢.

(٣٦٧) الألوسى ١٥١/٨.

(٣٦٨) التبيان للطيبى ١٧١/١.

(٣٦٩) انظر العدول إلى اسم الفاعل.

(٣٧٠) انظر الألوسى ١١/٢، والكشاف ١٠١/١، وانظر الرازى ٥٠٩/٢.

(٣٧١) انظر الدر المصون ٤٠١/١.

(٣٧٢) انظر الظلال ١٣٥/١.

ومن ثم نرى كيف جاءت هذه الصيغة دالة على معنى النفى الحاسم لتيئيس أهل الكتاب من أطماعهم فى اتباع النبى ﷺ لقبلتهم رجاء أن يتبعهم فى دينهم، فجاء التعبير بهذه الصيغة منفية للدلالة على انتفاء أهلية النبى ﷺ لهذا الأمر من أصله، ومن ثم انتفاء نسبته إليه.

ومن ذلك أيضا قوله تعالى: **﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ * وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾** سورة الكافرون حيث جاء نفى العبادة عن نفسه لآلهتهم الباطلة أولا بصيغة المضارع أعبد، ثم عدل عنه فى خطابهم إلى صيغة الاسم وكان مقتضى السياق أن يقول**﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾**، ثم عدل عن المضارع أيضا فى إخباره عن نفسه ثانية فى قوله **﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴾** والسر فى هذا العدول فى أغلب الأقوال المذكورة هو شمول الزمان واستيعابه واختلف هل الأول للدلالة على الحال والثانى للاستقبال أو العكس أو كلاهما للحال والاستقبال)[٣٧٣] وقيل (الجملتان الأوليان لنفى العبادة فى المستقبل، والجملتان الأخريان لنفى العبادة فى الماضى)[٣٧٤] وقيل غير ذلك[٣٧٥].

وقال ابن تيمية (رحمه الله) الفعل المضارع هو فى اللغة يتناول الزمن الدائم سوى الماضى، فيعم الحاضر والمستقبل.. فقوله: "لا أعبد" يتناول نفى عبادته لمعبودهم فى الزمان الحاضر والزمان المستقبل، وقوله" ما تعبدون" يتناول ما يعبدونه فى الحاضر والمستقبل وكلاهما مضارع. وقال فى الجملة الثانية عن نفسه**﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾** فلم يقل" لا أعبد" بل قال ولا أنا عابد" ولم يقل " ما تعبدون" بل قال " ماعبدتم" فاللفظ فى فعله وفعلهم مغاير للفظ فى الجملة الأولى.. والنفى بهذه الجملة الثانية أعم من النفى بالأولى، فإنه قال **﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾** بصيغة الماضى، فهو يتناول ما عبدوه فى الزمن الماضى، لأن المشركين يعبدون آلهة شتى وليس معبودهم فى كل وقت هو المعبود فى الوقت الآخر، كما أن كل طائفة لها معبود سوى معبود الطائفة الأخرى. فقوله:**﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾** براءة من كل ما عبدوه فى الأزمنة الماضية، كما تبرأ أولا مما عبدوه فى الحال والاستقبال، فتضمنت الجملتان البراءة من كل ما يعبده المشركون والكافرون فى كل زمان ماض، وحاضر، ومستقبل. وقوله أولا**﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾**لا يتناول هذا كله[٣٧٦]. وبهذا

---

(٣٧٣) انظر الرازى ٧١٧/١٦-٧١٨.

(٣٧٤) مسائل الرازى محمد بن أبى بكر ص ٣٨٦ وانظر الكشاف ٢٣٨/٤.

(٣٧٥) انظر البحر المحيط ٥٢٢/٨ الألوسى ٢١٥، المحرر الوجيز ٥/الدر المصون ٥٨٠/٦، الطبرى ٢١٣/٣٠، القرطبى ٧٣١٨/١٠.

(٣٧٦) دقائق التفاسير ٣٢٥/٦، ٣٢٦.

يكون فائدة العدول إلى اسم الفاعل فى هذا الموضع هو شمول جميع الأزمان، والتبرؤ من جميع معبوداتهم الباطلة التى عبدوها أو يعبدونها فى يوم من الأيام. فقد رجح ابن تيمية شمول دلالة اسم الفاعل فى هذا الموضع للأزمنة الثلاثة - والمشتهر هو دلالة اسم الفاعل المنون على الاستقبال ولكن يجوز صرفه إلى غيره بدلالة القرائن، وقد دل لفظ (عبدتم) على صرفه إلى معنى المضي، فضلا عن أن الكسائى وإبن هشام جوزا إعماله ماضيا، كما أنه يجوز إعمال الفاعل مفسرا له بالماضى بأنه على حكاية الحال كقوله تعالى: ﴿وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ﴾ (الكهف:١٨) وقوله: ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾[٣٧٧] (البقرة:٧٢)

وقد فسر القرطبى كذلك ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾ على نفى العبادة منه لما عبدوا فى الماضى[٣٧٨]

وثمة فائدة أخرى لهذا العدول لم أجد من نبه عليها غير الإمام ابن تيمية وهى قوله: وقوله: ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ﴾ اسم فاعل قد عمل عمل الفعل، ليس مضافا، فهو يتناول الحال والاستقبال أيضا، لكنه جملة اسمية والنفى بما بعد الفعل فيه زيادة معنى، كما تقول: ما أفعل هذا، وما أنا بفاعله. وقولك" ما هو بفاعل" هذا أبدا، أبلغ من قولك" ما يفعله أبدا" فإنه نفى عن الذات صدور هذا الفعل عنها، بخلاف قولك" ما يفعل هذا" فإنه لا ينفى إمكانه وجوازه منه، ولا يدل على أنه لا يصلح له ولا ينبغى له بخلاف" ما هو فاعل، وما هو بفاعل" كما فى قوله تعالى﴿ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ (النحل: ٧١) وقوله: ﴿وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ﴾ (إبراهيم: ٢٢) وقوله"﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (البقرة:٧٤)﴿ وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ﴾ (النمل: ٨١) ﴿وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ (فاطر:٢٢) ﴿وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾"(البقرة: ١٠٢) ... فقوله﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾ (الكافرون:٤) أى نفسى لا تقبل ولا تصلح لها أن تعبد ما عبدتموه ولو كنتم عبدتموه قط فى الماضى فقط، فأى معبود عبدتموه فى وقت فأنا لا أقبل أن أعبده فى وقت من الأوقات. ففى هذا من عموم عبادتهم فى الماضى والمستقبل، ومن قوة براءته وامتناعه وعدم قبوله لهذه العبادة فى جميع الأزمان ما ليس فى الجملة الأولى. تلك تضمنت نفى الفعل فى الزمان غير الماضى، وهذه تضمنت نفى إمكانه وقبوله لما كان معبودا لهم ولو فى بعض الزمان الماضى فقط، والتقدير: ما عبدتموه ولو فى بعض الأزمان الماضية فأنا لا يمكننى ولا يسوغ لى أن أعبده أبدا وهذا الذى ذكره

---

(٣٧٧) انظر الدر المصون٦/٥٨٢.

(٣٧٨) القرطبى ١٠/٧٣١٨.

الإمام فى هذا الموضع، قد نقله الإمام الألوسى وذكر ما أورد عليه ورده موجها لقول الإمام ابن تيمية فقال نقل أيضا عن شيخ الإسلام أن المراد بقوله سبحانه﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ نفى الفعل لأنها جملة فعلية، بقوله تعالى ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾ نفى قبوله ص لذلك بالكلية لأن النفى بالجملة الاسمية آكد فكأنه نفى الفعل وكونه عليه الصلاة والسلام قابلا لذلك ومعناه نفى الوقوع ونفى إمكانه الشرعى ونوقش فى إفادة الجملة الاسمية نفى القبول ولا يبعد أن يقال إن معنى الجملة الفعلية نفى الفعل فى زمان معين والجملة الاسمية معناها نفى الدخول تحت هذا المفهوم مطلقا من غير تعرض للزمان كأنه قيل أنا ممن لا يصدق عليه ذلك المفهوم فتدبر[٣٧٩].

وقد رجح ابن كثير فى تفسيره كلام ابن تيمية السابق، واعتمده تلميذه ابن القيم فى تفسيره لسورة الكافرون واكتفى بحكايته عن غيره[٣٨٠] وأرى أنه يمكن توجيه كلام ابن تيمية باعتبار دلالة اسم الفاعل على النسب قال ابن مالك: ومع فاعل وفعال فعل فى نسب أغنى من الياء قبل ومن ثم يكون المعنى بناء على ذلك (ولا أنا بمنتسب إلى عبادتكم أبدا ولا أصلح لها ولا يمكن أن تكون من مثلى أو أنسب إليها).

ومثل هذا المعنى يصح أن يحمل عليه العدول على اسم الفاعل فى قوله تعالى: ﴿ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ أيضا.

قال الإمام ابن تيمية:" كل كافر بمحمد لا يعبد ما يعبده محمد ما دام كافرا، والفعل المضارع يتناول ما هو دائم لا ينقطع، فهو ما دام كافرا لا يعبد معبود محمد ﷺ لا فى الحاضر ولا فى المستقبل. ولم يقل عنهم" ولا تعبدون ما أعبد" بل ذكر الجملة الاسمية ليبين أنه نفس نفوسكم الخبيثة الكافرة بريئة من عبادة إله محمد، ولا يمكن أن تعبده ما دامت كافرة. إذ لا تكون عابدته إلا بأن تعبده وحده بما أمر به على لسان محمد، ومن كان كافرا بمحمد لا يكون عمله عبادة لله قط. وتبرئتهم من عبادة الله جاءت بلفظ واحد بجملة اسمية تقتضى براءة ذاوتهم من عبادة الله، لم تقتصر على نفى الفعل"[٣٨١].

ومن ثم فإن دلالة التعبير باسم الفاعل فى هذا الموضع شبيهة بدلالته فى الموضع السابق؛ إذ إن المعنى والله أعلم هو نفى صحة انتسابهم إلى عبادة الله تعالى ما داموا ملابسين لما هم عليه من الشرك والكفر.

---

(٣٧٩) الألوسى ٣٠/٢٥١-٢٥٢.

(٣٨٠) تفسير سورة الكافرون والمعوذتين للإمام ابن القيم ص ٧-٨ السنة المحمدية.

(٣٨١) دقائق التفاسير ٦/٣٢٧- ٣٢٨.

ومما جاء من استعمال اسم الفاعل أيضا بتلك الدلالة التى نبه عليها الإمام ابن تيمية سابقا غير ما ذكر من الآيات التى استشهد بها، قوله تعالى عن أخوة يوسف حينما وجهت إليهم تهمة سرقة صواع الملك ﴿**قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ**﴾ (يوسف:٧٣) حيث آثر صيغة اسم الفاعل على صيغة الفعل نحو (وما كنا لنسرق) للدلالة على عدم انتسابهم إلى هذه الصفة، وعدم صلاحيتهم للاتصاف بها. فكأن مثل هذا الفعل لا يمكن أن يتأتى منهم ألبتة، ولا يليق اتصافهم به وهم من بيت النبوة. ولذا قال الزمخشرى فى معناها (وما كنا قط نوصف بالسرقة وهى منافية لحالنا) وقال الألوسى فى تفسيره (أى ما كنا نوصف بالسرقة قط)[٣٨٢].

وقد يعدل إلى اسم الفاعل رعاية للقافية فمن ذلك ما أورده ابن جنى فى خصائصه:

لقد عيّل الأيتام طعنة ناشرة أناشر لا زالت يمينك آشرة

قال ابن جنى" أى ذات أشر، والأشر الحز والقطع، وذو الشيء قد يكون مفعولا كما يكون فاعلا"[٣٨٣].

فتقدير المعنى لا زالت يمينك مأشورة، ولكنه عدل إلى اسم الفاعل مراعاة للقافية.

العدول إلى الصفة المشبهة

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿**أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً نَّخِرَةً**﴾ (النازعات:١١) عدلت الآية عن اسم الفاعل الذى جاءت عليه فواصل الآيات السابقة والتالية فى قوله تعالى: ﴿**يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ * قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ * أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ * يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ * أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً نَّخِرَةً * قَالُوا تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ**﴾ فعدلت السورة فى هذه القراءة عن اسم الفاعل ناخرة الذى جاءت به القراءة الأخرى، قال الألوسى:" قرأ عمر وأبيّ وعبد الله وابن الزبير وابن عباس ومسروق ومجاهد والأخوان وأبو بكر ناخرة بالألف وهو كنخرة من نخر العظم أى بلى وصار أجوف تمر به الريح فيسمع له نخير أى صوت وقراءة الأكثرين أبلغ فقد صرحوا بأن فعلا أبلغ من فاعل وإن كانت حروفه أكثر وقولهم زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى أغلبى أو إذا اتحد النوع لا إذا اختلف كأن كان فاعل وفعل صفة مشبهة"[٣٨٤].

---

(٣٨٢) الكشاف ٢٦٨/٢، الألوسى ٢٧/١٣.

(٣٨٣) الخصائص ١٥٢/١-١٥٣.

(٣٨٤) انظر الألوسى ٣٠ ص ٢٨.

وإذا كان الأكثرون على أن (فعل) أبلغ من (فاعل)[٣٨٥] أو أن النخرة التى قد بليت، والناخرة التى لم تنخر بعد؛ فمن ثم كان التعبير بنخرة وهى صفة مشبهة تدل على ثبات تلك الصفة فى العظام لطول العهد مع ما فيها من معنى المبالغة خاصة وأن فعل من صيغ المبالغة كذلك. فلا جرم كان هذا أكثر مناسبة لاستبعاد هؤلاء الكافرين المنكرين للبعث بقولهم ﴿ **أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ * أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً**﴾ وخولف الإيقاع لأجل هذه المناسبة، وقدمت رعاية المعنى على رعاية اللفظ فى هذه القراءة، وهى قراءة الأكثرين ولذا قال الطبرى:" وأفصح اللغتين عندنا وأشهرهما عندنا نخرة بغير ألف بمعنى بالية غير أن رءووس الآى قبلها وبعدها جاءت بالألف فأعجب إلىّ لذلك أن تلحق ناخرة بها ليتفق هو وسائر رءووس الآيات لولا ذلك كان أعجب القراءتين إلى حذف الألف منها[٣٨٦].

العدول إلى اسم المفعول

فمن ذلك قوله تعالى: عن نبيه داود عليه السلام﴿ **إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ**﴾ (سورة ص ١٨-١٩) حيث عدل عن مقابلة يسبحن فلم يقل (والطير يحشرن) فعدل إلى اسم المفعول. قال الزمخشرى:" وقوله (محشورة) فى مقابلة يسبحن إلا أنه لما لم يكن فى الحشر ما كان فى التسبيح من إرادة الدلالة على الحدوث شيئا بعد شيء جيء به اسما لا فعلا؛ وذلك أنه لو قيل وسخرنا الطير يحشرن على أن الحشر يوجد من حاشرها شيئا بعد شيء - والحاشر هو الله عز وجل - لكان خلفا لأن حشرها جملة واحدة أدل على القدرة. وعن ابن عباس كان إذا سبح جاوبته الجبال بالتسبيح واجتمعت إليه الطير فسبحت فذلك حشرها[٣٨٧].

فغايرت الآية بين فعل العبد وفعل الرب سبحانه، فالتسبيح يقع من المخلوقات شيئا فشيئا أما الحشر فيقع من الله تعالى جملة واحدة بأمر واحد، إذ يقول للشيء كن فيكون، كما أن ذلك يدل على اجتماع الطير لداود عليه السلام فى وقت واحد ساعة تسبيحه لا أنها تحضر فى أوان تسبيحه شيئا فشيئا بل تحضر معه جملة واحدة من بداية التسبيح إلى منتهاه.

كما أرى كذلك أن صيغة الاسم تبرز خصوصية النعمة التى أنعم الله بها على نبيه داود عليه السلام؛ إذ من شأن الطير الحركة والتنقل، ومن ثم فإن التعبير بصيغة

---

(٣٨٥) انظر السابق وانظر الكشاف ١٨١/٤، والدر المصون ٤٧٢/٦، المحرر الوجيز ٤٣٢/٥.

(٣٨٦) انظر الطبرى ٢٣/٣٠.

(٣٨٧) انظر الكشاف ٣٢/٣.

الاسم تفيد أن الطير حين تسبح مع داود تفارق طباعها وتثبت فى مكانها خاشعة لا تكاد تريم(٣٨٨).

العدول إلى المفرد

من الدلالات الفنية للعدول إلى المفرد ما جاء فى قوله تعالى فى سورة الجن﴿**وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَّصَداً**﴾ (الجن:٨-٩) فالحرس والرصد: اسما جمع، ومع ذلك وصف الحرس بالمفرد، وجاء الرصد وصفا لمفرد، قال الزمخشرى:" والحرس اسم مفرد فى معنى الحراس كالخدم فى معنى الخدام ولذلك وصف بشديد ولو ذهب إلى معناه لقيل شِداداً، والرصد مثل الحرس اسم جمع للراصد على معنى ذوى شهاب راصدين بالرجم وهم الملائكة الذين يرجمونهم بالشهب ويمنعونهم من الاستماع ويجوز أن يكون صفة للشهاب بمعنى الراصد أو كقوله ومعى جياعا يعنى يجد شهابا راصداً له ولأجله(٣٨٩).

وقال الطيبى" وقوله تعالى(شهابا رصدا) نزل الواحد وهو الموصوف منزلة الجمع لوصفه به إظهارا لكمال حفظه وقول الشاعر... "ومعى جياعا" جعل كل مكان من أمكنة المعا بمنزلة (معا) واحد مبالغة فى الجوع(٣٩٠).

وقد ذهب الزمخشرى وجماعة من المفسرين إلى أن السر فى العدول عن الجمع إلى المفرد فى وصف الحرس أن ذلك جاء رعاية للفظ دون رعاية المعنى إذ لو روعى المعنى لقال شدادا(٣٩١). والسر فى هذا العدول - فى رأيي - يرجع إلى الرمز والإشارة إلى وحدة هذا الحرس، واجتماع أمرهم، حتى كأنهم حارس واحد، فليس ثمة اختلاف بينهم ولا تفرق، ومن ثم فأى شيطان يحاول استراق السمع توجهوا إليه جميعا فيضربونه ضربة ملك واحد.

وثمة دلالة أخرى فى العدول إلى (شهاب) وهى التخصيص، حيث إن إفراد الشهاب يدل على أن كل جنى قد أعد له شهاب مختص به لا يعدوه. ويرشح لهذا المعنى لفظة (له)، ومن ثم أعرب بعضهم رصدا مفعولا لأجله.

---

(٣٨٨) أفدناه من تعليق أستاذنا د/ حسن طبل على هذا الموضع.

(٣٨٩) انظر الكشاف ١٤٦/٤.

(٣٩٠) انظر التبيان للطيبى ١٥٣/١.

(٣٩١) انظر الكشاف السابق - الرازى ٧٦٩/١٥ الألوسى ٨٦/٢٩- الدر المصون ٣٩٢/٦، القرطبى ٦٨٠٤/١٠.

من أمثلة العدول إلى المفرد كذلك فى القرآن الكريم توحيد النور وإفراده فى مقابل جمع الظلمات مما يمثل نوعا من العدول فى جميع مواضعه فى القرآن، حيث ورد النور مفرداً فى مقابل جمع الظلمات فى أحد عشر موضعا فى كتاب الله تعالى ولم يرد خلاف ذلك فى موضع واحد فمن ذلك ﴿**اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ**﴾ (البقرة: ٢٥٧) وقوله تعالى﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ**﴾ (الأنعام:١) وقوله تعالى﴿**الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ**﴾ (إبراهيم:١).

ففى هذه الأمثلة كلها جاءت الظلمات مجموعة ثم عدل عن هذا الجمع بإفراد النور، ويتجلى هذا العدول فى أوضح صوره فى قوله تعالى"﴿**وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ * وَلاَ الظُّلُمَاتُ وَلاَ النُّورُ * وَلاَ الظِّلُّ وَلاَ الْحَرُورُ * وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلاَ الأَمْوَاتُ**﴾ (فاطر: ١٩-٢٢) ففى هذا الموضع يتضح للقارىء والسامع مخالفة قاعدة السياق المطردة فى الجمع بين الصيغ المتناسقة إفرادا وجمعا، ومن ثم تبدو نعمة هذا العدول متميزة تنادى بالالتفات إلى سر تلك المخالفة، وذلك العدول. ويسهل على المتدبر لهذا العدول معرفة سره والوقوف عليه، وهو وحدة سبيل النور والإيمان، وتشعب كل السبل دونه وتفرقها ومن ثم أفرد صراط الله المستقيم فى مقابل سبل الضلال، فى قوله تعالى ﴿**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ** ﴾ (الأنعام:١٥٣) قال أبو حيان" جمعت الظلمات لاختلاف الضلالات، ووحد النور لأن الإيمان واحد[٣٩٢]

" وقال الألوسى" أفرد النور لوحدة الحق، كما أن جمع الظلمات لتعدد فنون الضلال"[٣٩٣]

وقال ابن القيم" والمقصود أن طريق الحق واحد، إذ مرده إلى الله الملك الحق، وطرق الباطل متشعبة متعددة فإنها لا ترجع إلى شىء موجود، ولا غاية لها توصل إليها، بل هى بمنزلة ثنيات الطريق، وطريق الحق بمنزلة الطريق الموصل إلى المقصود. فهى وإن تنوعت فأصلها طريق واحد، لما كانت الظلمة بمنزلة طريق الباطل، والنور بمنزلة طريق الحق، بل هى أفرد النور وجمعت الظلمات[٣٩٤].

---

(٣٩٢) انظر البحر المحيط ٢٨٣/٢.

(٣٩٣) روح المعانى ١٤/٣.

(٣٩٤) انظر بدائع الفوائد ١١٩/١. ط / دار الفكر.

ويلمح الألوسى وجها فى إفراد النور وجمع الظلمات، وهو الإيماء إلى قلة أتباع الحق، وكثرة أتباع الباطل، حيث ردد كلامه بين القول السابق" أو أن الأول(أى النور) إيماء إلى القلة والثانى (أى الظلمات) إلى الكثرة[٣٩٥].

وهذا الذى ذكره غير معارض للقول الأول فأتباع الحق قليلون كما يقرره كتاب الله تعالى فى مواضع عديدة.

ومن مواضع العدول إلى المفرد لتحقيق غرض بلاغى، ما جاء فى القرآن الكريم من إفراد لفظ النعمة فى سياقات عديدة، أريد التعبير فيها عن كثرة النعم؛ ومع ذلك فقد جاءت الصيغة مفردة فى تلك المواضع؛ حتى بلغ عددها سبعة وأربعين موضعا، ولم ترد مجموعة إلا فى مواضع ثلاثة يأتى التعرض لها عند الحديث عن الجمع.

فمن ذلك قول الله تعالى فى حكاية تذكير موسى قومه بنعم الله عليهم﴿ **وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكاً وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِّنَ الْعَالَمِينَ** ﴾ (المائدة: ٢٠) فقد عدد موسى ثلاث نعم على سبيل الإجمال، وإلا فتفصيل تلك النعم وخاصة إيتاؤهم ما لم يؤت أحدا من العالمين لا يستطاع، ولا يقدر على عده، ومع ذلك فقد أفرد الله تعالى النعمة.

وهكذا فى سياقات كثيرة يدل السياق على العدول فى لفظ النعمة عن الجمع إلى الإفراد، ويعلل العلماء لذلك بأن النعمة (اسم جنس فهى مفردة بمعنى الجمع)[٣٩٦].

ويعلق الشهاب على قول البيضاوى" ولا تطيقوا عد أنواعها فضلا عن أفرادها فإنها غير متناهية فيقول الشهاب (وقال بعض الفضلاء: المعنى إن تشرعوا فى عد أفراد نعمة من نعمه تعالى لا تطيقوا عدها، وإنما أتى بإن، وعدم العد مقطوع به، ونظراً إلى توهم أنه يطاق، وفيه مخالفة لكلام المصنف رحمه الله تعالى، وهو أدق منه، إذ فيه إشارة إلى أن النعمة الواحدة لا يمكن عد تفاصيلها[٣٩٧].

وهذا الذى نقله الشهاب عن هؤلاء الفضلاء فى غاية الجودة ويؤيده ما ذكره الراغب من أن" النعمة الحالة الحسنة وبناء النعمة بناء الحالة التى يكون عليها الإنسان كالجلسة والركبة[٣٩٨].

---

(٣٩٥) انظر روح المعانى – السابق.

(٣٩٦) انظر القرطبى ٣٨٢/١، والمفردات للراغب ص ٤٩٩.

(٣٩٧) انظر حاشية الشهاب ٢٧٠/٥.

(٣٩٨) انظر المفردات ص ٤٩٩.

فالنعمة إذا على بناء اسم الهيئة كالمشية والجلسة والركبة وهذا البناء إنما وضع للدلالة على الهيئة لا على العدد ومعلوم أن هيئة الشيء يدخل فيها إفراده التى تركب منها، والنظر إلى دقة صنعها، وما فيها من جمال ولطف وإبداع. فكأن تراكب الدلالة للفظة النعمة فى تلك السياقات من الإفراد والهيئة يدل على أن المراد هو فى تفاصيل كل نعمة بمفردها، وفى هيئتها الحاصلة وما اشتملت عليها من نعم لا تعد ولا تحصى، وإذا جاز لنا أن نستطرد لتأمل نعمة كنعمة الطعام كيف حصلت فى ألوان وطعوم وأشكال مختلفة تناسب كل الأذواق والأمزجة، ثم لو تأملنا نوعا منها وهو الفاكهة لنتأمل تعددها وتنوعها، ثم إذا تأملنا واحدا من تلك الفاكهة كثمرة الرمان أو البرتقال أو غير ذلك ونحاول عد النعم التى اشتملت عليها هيئة تلك الثمرة من حفظها على الشجر ثم فى غلاف خارجى سميك، ثم فى قشر داخلى رقيق ثم فى تناسقها، ثم فى صفاء لونها ثم فى لذة مذاقها، ثم فى كذا وكذا نعم لا تعد ولا تحصى بداخل نعمة متفرعة على نعمة وهكذا . ومن ثم تتراكب دلالة الكلمة فى تلك السياقات من الهيئة والإفراد لإعطاء معنى المبالغة والتعجيز فى حصر تلك النعم الربانية.

العدول عن صيغة جمع الكثرة إلى جمع القلة

من أمثلة العدول عن صيغة جمع الكثرة إلى جمع القلة قوله تعالى﴿**وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ**﴾ (النحل:١١٢) فعلى الرغم من كثرة نعم الله التى كفرت بها تلك القرية فقد عدلت الآية عن التعبير بجمع الكثرة(نعم) إلى جمع القلة(أنعم) لغرض بلاغى يكشف عنه العلامة أبو السعود حيث يقول" وإيثار جمع القلة للإيذان بأن كفران نعمة قليلة حيث أوجب هذا العذاب، فما ظنك بكفران نعم كثيرة"[٣٩٩] هذا الذى نبه عليه العلامة أبو السعود هو ما يناسب مقام التخويف لهؤلاء الكافرين الجاحدين لنعم الله تعالى عليهم، ولهذه الطريقة نظائر فى كتاب الله تعالى فمنها فى غير جانب الصيغ قول إبراهيم عليه السلام لأبيه وهو فى مقام تخويفه عذاب الله تعالى له﴿**يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَن فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِياً**﴾ (مريم:٤٥) حيث عبر بـ (يمسك) بدلا من يصيبك، وبـ(الرحمن) بدلا من (الجبار) كأنه يخوفه العذاب الأدنى لو عامله الله برحمته، فكيف لو عامله بشدته وجبروته. وعلى هذا النحو جاء التخويف فى الآية السابقة من جحد قليل النعم فضلا عن كثيرها، وهذا أشد مبالغة فى التخويف.

---

(٣٩٩) انظر تفسير أبى السعود ١٤٥/٥.

العدول عن صيغة جمع القلة إلى جمع الكثرة

من أمثلة ذلك فى القرآن قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة:٢٦١) حيث كان الأصل أن توصف السبع بجمع القلة سنبلات كما قال الله تعالى فى سورة يوسف ﴿وَسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ﴾ (يوسف:٤٣) إلا أن الآية هنا قد عدلت عن القلة المناسبة للسبع إلى الكثرة لغرض بلاغى لا للاتساع فى اللغة أو لتعاور الأبنية كما ذهب إليه الزمخشرى فيما نرى.

وهذا الغرض البلاغى فيما نرى إنما هو مناسبة سياق الآيات الدال على التكثير والمباركة من الله تعالى لهذه الصدقة، وإلا فقد استغرب التمثيل بسنبلة تنبت مائة حبة واستشكلوا إمكان وقوع ذلك.

والمقصود أنه مقام تكثير وبركة من الله تعالى، وجزاء واسع غير محدود ولذا ذيلت الآية بقوله تعالى﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ فهى" زيادة لا تقدر ولا تحصر، فذلك العدد لا مفهوم له".

٢- العدول إلى صيغة الفعل

العدول من (فعّل) إلى (أفعل)

من ذلك قول الله تعالى ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً * وَأَكِيدُ كَيْداً * فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً ﴾ (الطارق: ١٧) حيث عدل عن صيغة (فعّل) المشددة فى (مهل) إلى (أفعل) فى (أمهل) وقد حمل ذلك بعض المفسرين على تحسين نمط الكلام[٤٠٠].

وبنحوه قال السمين الحلبى" لما كرر الأمر توكيدا خالف بين اللفظين"[٤٠١] والذى نراه والله تعالى أعلم أن سر العدول يتجاوز المخالفة بين اللفظين لمجرد المخالفة، بل إن العدول عن الصيغة الأولى إلى الصيغة الثانية إنما هو عدول فنى مقصود، وذلك أن الفارق بين صيغتى فعّل وأفعل أن الأولى تدل على التكثير غالبا[٤٠٢]. أما الثانية (أفعل) فللتعدية غالبا[٤٠٣].

---

(٤٠٠) انظر الكشاف ٢٠٣/٤، والمحرر الوجيز ٣٩٣/١ والرازى ٣٤٢/١٦.

(٤٠١) انظر الدر المصون ٥٠٨/٦.

(٤٠٢) انظر شرح الشافية ٩٢/١.

(٤٠٣) انظر شرح الشافية ٩٢/١.

ومن ثم جاء الأمر بالتمهيل مطلقا دون تقييد بالتقليل جاء معه الفعل (مهل) الدال على التكثير، ولما كان هذا الفعل يشعر بطول مدة التمهيل مما قد يلقى الوهن واليأس فى قلوب الدعاة، أعقبها القرآن بصيغة أفعل مقيدة بما يفيد التقليل، ليدل بذلك على أن تمهيلهم وإمهال الله تعالى إياهم وإن طال فهو آت لا محالة، وهو قليل لا شك فى مقابل ما ينتظرهم من عذاب يوم القيامة فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة. وذلك كما قال تعالى﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ .إلى قوله ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً *وَنَرَاهُ قَرِيباً ﴾ (المعارج:١-٧) قال الرازى" منهم من قال" أمهلهم رويدا" إلى يوم القيامة، وإنما صغر ذلك من حيث علم أن كل ما هو آت قريب. ومنهم من قال أمهلهم رويدا إلى يوم بدر، والأولى أولى؛ لأن الذى جرى يوم بدر، وفى سائر الغزوات لا يعم الكل، وإذا حمل على أمر الآخرة عم الكل، ولا يمتنع من ذلك أن يدخل فى جملته أمر الدنيا، مما نالهم يوم بدر وغيره. وكل ذلك زجر وتحذير للقوم[٤٠٤].

ومن ثم فالصيغة الأولى (مهل) المشعرة بطول مدة التمهيل، فيها تسكين وتصبير له ص ولذا قال الزمخشرى" فمهل الكافرين يعنى لا تدع بهلاكهم ولا تستعجل به(أمهلهم رويدا) أى إمهالا يسيرا وكرر وخالف بين اللفظين لزيادة التسكين منه والتصبير عن الرسولﷺ[٤٠٥].

العدول إلى صيغة تفعل

من أمثلته فى الشعر قول المتنبى:

ألا ليت شعرى هل أقول قصيدة   فلا أشتكى فيها ولا أتعتب[٤٠٦]

أرى أن الشاعر قد عدل إلى هذه الصيغة (أتفعل) هنا لأجل القافية، وليس مراعاة للمعنى، إذ يصعب حمل هذه الصيغة فى هذا السياق على معانيها الشائعة فيها دون تكلف، وذلك أن هذه الصيغة تأتى لخمسة معان:

أولها: مطاوعة فعّل مضعف العين

وثانيها: الاتحاد

---

(٤٠٤) انظر مفاتيح الغيب ٣٤٣/١٦.

(٤٠٥) انظر الكشاف ٢٠٣/٤ تعرض أستاذنا د/ حسن طبل فى كتابه أسلوب الالتفات لعدد كبير من أمثلة ذلك النوع من العدول. لذا فقد رأيت الاجتزاء بما ذكرت عن تكرار جهود سابقة. انظر أسلوب الالتفات فى البلاغة القرآنية ص ٦٤ إلى ٨٥.

(٤٠٦) انظر شرح التبيان للعكبرى ١٢٩/١.

وثالثها: التكلف

ورابعها: التجنب

وخامسها: التدرج

وقد يغني عن الثلاثى إذا كان غير وارد والفعل المستخدم هنا قد ورد منه الثلاثى عتب، ومن ثم فهو ليس بمعنى الثلاثى(٤٠٧).

وهذه المعانى كلها ليست مناسبة لمعنى البيت إلا بنوع من التكلف، فمعنى البيت" ليتنى أعلم هل تخلو قصيدة لى من شكوى أشكو الدهر فيها بأن يبلغنى المراد، وأنال منه ما أطلب وأدع الشكوى"(٤٠٨) ومن ثم فالعدول هنا لأجل الإيقاع، ولذا لم يحسن.

ويمكن أن نتكلف للشاعر هنا إرادة معنى التكلف فى العتاب والتدرج فيه، خاصة وأن أغلب معاتبة الشاعر فى قصائده إنما كانت للملوك والرؤساء الذين كان يؤمل لديهم بعض حاجته؛ ولذا كان يعاتبهم بشيء من التلطف فى كثير من الأحيان، وكذا كثيرا ما يضمن ذلك مدائحه إياهم، وقد يفيض به الأسى أحيانا فيخرج مدحه إلى حد الهجاء، وذلك من نحو قوله فى مدحه كافور:

وما طربى لما رأيتك بدعة لقد كنت أرجو أن أراك فأطرب
وتعذلنى فيك القوافى وهمتى كأنى بمدح قبل مدحك مذنب(٤٠٩)

٣- العدول إلى صيغة ذات معنى متعدد

من ذلك قوله تعالى﴿ **وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلاَ صَرِيخَ لَهُمْ وَلاَ هُمْ يُنقَذُونَ * إِلاَّ رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ** ﴾ (يس:٤٣).

حيث حمل المفسرون صيغة (فعيل) فى لفظة (صريخ) على ثلاثة أوجه:

١- أن تكون بمعنى فاعل (صارخ) أى مستغيث.

٢- أن تكون بمعنى مفعل (مصرخ) أو منقذ أو مغيث.

٣- أن تكون بمعنى المصدر أى الصراخ نفسه، أو فلا إغاثة كما ذكر الزمخشرى فيكون مصدرا بمعنى الإصراخ(٤١٠).

---

(٤٠٧) انظر شرح الشافية ١٠٤/١، شذا العرف ص ٤٥.

(٤٠٨) انظر العبكرى ١٢٩/١.

(٤٠٩) انظر شرح التبيان للعبكرى ١٣٣/١.

ويبدو لى أن سياق الآية يحتمل أغلب الوجوه المذكورة فيه فقد يكون الصريخ. بمعنى المنقذ أو المغيث وهو ما رجحه السمين الحلبى والألوسى وغيرهما ممن ذكرت؛ وذلك لأن الآية فى معرض تصوير تخويف البشر من قدرة الله تعالى عليهم فهو إن يشأ يغرقهم فلا مغيث لهم إن صرخوا واستغاثوا.

وحمل الآية على معنى فلا صارخ ولا صراخ يمكن توجيهه على حال الاستئصال، فضلا عن أن إثبات الصارخ والصراخ لهؤلاء الغرقى يدعم ما الآية بصدده من تخويف العبد، وذلك بتصوير هيئة الصارخ وكثرة الصراخ عند معاينة الأهوال مع افتقاد المغيث والمنقذ أو المعين.

وأما حمل الزمخشرى الصريخ على معنى الإصراخ والإغاثة، فقد اعترضه الشيخ صاحب البحر بأنه يحتاج إلى نقل أن صريخا يكون مصدرا بمعنى إصراخ.

ومن ثم نرى كيف تتضافر معانى تلك الصيغة فى خلق معنى ذى ظلال متعددة تتفق مع السياق وتتناغم معه.

- ومن ذلك ما جاء فى قوله تعالى**﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ ..... بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾**[411]. (آل عمران ١٨١-١٨٢) حيث جاءت صيغة المبالغة (ظلام) فى هذه الآية وشبيهاتها على وزن (فعال) محتملة الدلالة على المبالغة، والدلالة على النسبة، وقد استشكل العلماء دلالتها على المبالغة لأنها تمثل عدولا عن السياق والمقتضى وما ربك بظالم، وذلك أن السياق هنا بصدد بيان كمال عدله سبحانه وتنزيهه عن نسبة الظلم إليه.

ومن ثم اختلفت أقوال المفسرين فى تحرير دلالة تلك الصيغة وتوجيهها على خمسة أقوال حكاها السمين الحلبى فى الدر حيث قال مستشكلا: وهنا سؤال: وهو أن (ظلام) صيغة مبالغة تقتضى التكثير، فهى أخص من (ظالم) ولا يلزم من نفى الأخص نفى الأعم فإذا قلت: (ليس بظالم) انتفى الظلم من أصله، فكيف قال تعالى: (ليس بظلام للعبيد) وفى ذلك خمسة أوجه، ذكر أبو البقاء منها أربعة:

---

(٤١٠) انظر الدر المصون ٥/ ٤٨٦، المحرر الوجيز ٤٥٥/٤، روح المعانى ٢٨/٢٣، الكشاف ٢٨٨/٣، مجاز القرآن ١٢٦/٢، مفاتيح الغيب ١٤٠/١٣، القرطبى ٨/ ٥٤٧٩، صيغة فعيل (صريخ) ص ١٩٢،٣٥٧.

(٤١١) ﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ * ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ (آل عمران: ١٨١-١٨٢).

الأول: أن(فعالا) قد لا يراد به التكثير كقول طرفة:

ولست بحلال التلاع لبيته ولكن متى يسترفد القوم أرفد[٤١٢]

لا يريد هنا أنه قد يحل التلاع قليلا، لأن ذلك يدفعه آخرُ البيت الذى يدل على نفى البخل على كل حال، وأيضا تمام المدح لا يحصل بإرادة الكثرة.

الثانى: أنه للكثرة ولكنه لما كان مقابلا بالعباد وهم كثيرون ناسب أنِ يقابل الكثير بالكثير.

والثالث: أنه إذا نفى الظلم الكثير انتفى القليل ضرورة، لأن الذى يظلم إنما يظلم لانتفاعه بالظلم، فإذا ترك الظلم الكثير مع زيادة نفعه فى حق من يجوز عليه النفع والضر كان للظلم القليل المنفعة أترك.

الرابع: أن يكون على النسب أى: لا ينسب إليه ظلم، فيكون من باب: بزاز وعطاء كأنه قيل: ليس بذى ظلم البتة.

الخامس: قال القاضى أبو بكر: (العذاب الذى توعّد أن يفعله بهم لو كان ظلما لكان عظيما فنفاه على حد عظمته لو كان ثابتا).

وذكر الزمخشرى فيها الوجهين الثانى والخامس ولم يزد عليها[٤١٣].

وأجاب الرازى عن الإشكال بالوجه الخامس ولم يزد عليه[٤١٤]

ووجه الرازى محمد بن أبى بكر بن عبد القادر ت ٦٦٦ هـ كلا من الوجوه الثانى والرابع والخامس توجيها حسنا فقال: صيغة المبالغة جيء بها لكثرة العبيد لا لكثرة الظلم، كما قال الله تعالى **﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾** وقال: **﴿عَالِمِ الْغَيْبِ﴾** (الجن:٢٦) و**﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾** (سبأ: ٤٨) لما أفرد العموم لم يأت بصيغة المبالغة، ونظيره قولهم: زيد ظالم لعبده، وعمرو ظلام لعبيده، فهما فى الظلم سيان. وكذلك قال تعالى **﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾** فشدد لكثرة الفاعلين لا لتكرار الفعل، أو الصيغة هنا للنسب أى ينسب بذى ظلم. الثانى أن العذاب من العظيم القدر، الكثير العدل لولا سبق الجناية يكون أفحش وأقبح من الظلم ممن ليس عظيم القدر كثير العدل، فيطلق عليه

---

(٤١٢) الدر المصون ٢/٢٧٤، وأنظر الألوسى حيث ذكر هذه الأقوال ما عدا الخامس.

(٤١٣) الكشاف ٤/٢٣.

(٤١٤) الرازى ٤/٥٩٩.

اسم الظلام باعتبار زيادة قبح الفعل منه لا باعتبار تكرره، فحاصله أن صيغة المبالغة تارة تكون باعتبار زيادة الفعل، وتارة باعتبار صفته، ففعل الظلم لو وجد من الله تعالى وتقدس لكان أعظم من ألف ظلم يوجد من عبيده، باعتبار زيادة وصف القبح، ونظيره قوله تعالى ﴿وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾ [٤١٥].

والذى أراه فى مثل هذا الموضع والله تعالى أعلم - أن هذا العدول إلى تلك الصيغة ذات المعنى المتعدد فى مثل هذا الموضع بين المبالغة والنسبة بحيث تحتمل الصيغة تلك الوجوه المذكورة جميعا، بما يصعب معه ترجيح أحد تلك الوجوه على غيرها كما صنع أغلب من تعرضوا لهذه الآية من المفسرين - أقول إن هذا العدول لا جرم أنه عدول قصد به ثراء الدلالة، وإثارة الفكر، وتعجيز العقول، دون القدح فى هذا الكتاب المعجز، فعلى أى هذه الوجوه المذكورة تأملت موقع تلك الصيغة وجدتها من البلاغة بمكان فالمبالغة فى الظلم جديرة بالملك إذا ظلم عبيده مع استغنائه عن ظلمهم، وتضررهم به أبلغ الضرر، وفيه مطابقة حال المتكلم ما فيه فقد جاء معبرا عن عدله سبحانه على أتم وجه، فكان رب العزة سبحانه يعظم تلك الصفة فى حق نفسه أيما تعظيم لو كان منه أدنى ظلم وحاشاه سبحانه، فكأنه جرى على طريقتهم فى التعكيس ليثبت الضد على اليقين على نحو ما سبق بيانه نقلا عن الزمخشرى فى قوله تعالى ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾ (التكوير:١٤) [٤١٦] وشبيه به ولله المثل الأعلى قول القائل عن نفسه:" يكون كافرا أو يخرج من الإسلام إن كان كاذبا" ومراده المبالغة فى إثبات صدقه على أكمل وجه لا كونه يرضى بذلك، وإن كان هذا مما قد نهى عنه[٤١٧].

فكأن رب العزة جل وعلا قال: أكون ظلاما لو ظلمت عبيدى ولا يكون ذلك أبدا، فمن ثم تثبت صفة العدل له على جهة اليقين، فهذا من باب الضد وهو طريق لدى العرب مطروق.

كذلك فإن تكثير المعمول يناسبه تكثير العامل، كما فى ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ﴾ (الجن:٢٦)، و﴿عَلاَّمُ الْغُيُوبِ﴾ (سبأ: ٤٨) فحيث كان المعمول مفردا لم يبالغ فى عامله، وحيثما كان جمعا بولغ فيه.

---

(٤١٥) مسائل الرازى ص ٣٨ ط مصطفى الحلبى.

(٤١٦) انظر مبحث اختبار المفرد، وانظر الكشاف ١٨٩/٤.

(٤١٧) وإنما جاء الحديث عن النبى ﷺذم من فعل ذلك وأنه يكون كما قال، لأن العبد ليس فى مقدوره شيء فربما وقع ما حلف عليه، فيكون قد عرض دينه للبطلان ولو بالقول.* انظر كذلك مواضع أخر وردت فيها صيغة المبالغة(ظلام) بنحو هذا السياق فى (الأنفال:٥١، الحج: ١٠، فصلت:٤٦، ق:٢٩.

وأما القول بأنه إذا ترك كثير الظلم فتركه للقليل أولى فهو وإن كان أضعف تلك الأقوال فى رأيى؛ فإننا لا نعدم له وجها كذلك. خاصة وأن الكلام فى حق الملك المالك لكل شىء فإنه إذا تنزه عن الظلم العظيم فتنزهه عن الحقير من باب أولى.

وأما على القول بأن الصيغة للنسبة فلا إشكال.

ومن ثم نرى لتلك الصيغة فى ذلك الموقع من الثراء الدلالى، وإثارة الذهن، وإيقاظه ودعوته إلى التفكير والتدبر ما لا نجده فى استعمال اسم الفاعل (ظالم).

- ومن أمثلته: قوله تعالى: **﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيّاً﴾** (يوسف:٨٠)

النجى قد يكون اسما ومصدرا[٤١٨].

فنجيا: فعيل وهو هنا بمعنى (مفاعل، أو مصدر)[٤١٩].

قال الراغب: (النجى المناجى ويقال للواحد والجمع)[٤٢٠].

وقد جعله ابن عطية مصدرا فقال: (النجى لفظ يوصف به من له نجوى واحدا أو جماعة أو مؤنثا أو مذكرا، فهو مثل عدول وعدل)[٤٢١].

وقال الألوسى (وحده وكان الظاهر جمعه لأنه حال من ضمير الجمع لأنه مصدر بحسب الأصل كالتناجى أطلق على المتناجين مبالغة أو لتأويله بالمشتق والمصدر ولو بحسب الأصل يشمل القليل والكثير، أو لكونه على زنة المصدر لأن فعيلا من أبنية المصادر، وهو فعيل بمعنى مفاعل كجليس بمعنى مجالس وكعشير بمعنى معاشر، أى مناج بعضهم بعضا فيكون متناجين)[٤٢٢].

وذكر الزمخشرى الوجهين، واستحسن المصدر فقال (والنجى على معنيين: يكون بمعنى المناجى.. ومنه قيل قوم نجى كما قيل (وإذا هم نجوى) تنزيلا للمصدر منزلة الأوصاف، ويجوز أن يقال هم نجى كما قيل هم صديق لأنه بزنة المصادر.. (نجيا) ذى نجوى أو فوجا نجيا أى مناجيا لمناجاة بعضهم بعضا، وأحسن منه أنهم تمحضوا تناجيا لاستجماعهم لذلك وإفاضتهم فيه بجد واهتمام كأنهم فى أنفسهم صورة التناجى

---

(٤١٨) لسان العرب ٤٣٦١/٦.

(٤١٩) د/ على طلب/ صيغة فعيل واستعمالاتها ص ٣٥٧.

(٤٢٠) المفردات ص ٤٨٤.

(٤٢١) المحرر الوجيز ٢٦٩/٣.

(٤٢٢) روح المعانى ٣٥/١٣.

وحقيقته..)[٤٢٣] ونخلص من تلك النقول إلى احتمال فعيل فى قوله(نجيا) أن تكون بمعنى الصدر أو بمعنى مفاعل، والتفت الزمخشرى والألوسى إلى العدول فيها عن الجمع، وعللوا ذلك بأن فعيلا قد تأتى للمفرد والجمع لأنها هنا مصدر أو على زنة المصدر، وقد التفت إلى ذلك أيضا أبو عبيدة والأخفش[٤٢٤].

والذى يظهر من القرائن فى هذا الموضع أن نجيا هنا مصدر، وهذا ما ذكره ابن عطية فى تفسيره ولم يلتفت إلى غيره وهو ما استحسنه الزمخشرى، وهو ما يرجحه كلام كل من أبى عبيدة والأخفش والألوسى، وذلك لوجوه:

الأول: أن (فعيلا) تأتى للمصدر بلا تأويل، فهى إحدى صيغ المصادر، ومما جاء عليها مصدرا: زئير، وخرير، وصهيل، وزفير، وشهيق، ونفيق، ونهيق، وأنين، وفديد[٤٢٥].

الثانى: أن (نجيا) تدل على صوت والغالب فى المصدر الآتى على(فعيل) أن يدل على صوت كالأمثلة السابقة.

الثالث: أن جعله بمعنى مفاعل يحتاج إلى تأويل، وحمل اللفظ على معناه بلا تأويل هو الأصل فلا يعدل عنه بغير قرينة، أو حاجة إليه كاستحالة حمل اللفظ على معناه الصريح.

الرابع: أن (نجيا) وإن كان بلفظ المفرد إلا أن جعله مصدرا يجعله صالحا للمفرد والجمع، كما سبق بيانه.

الخامس: أن السياق يقتضى استحسانه وترجيحه كما هو ظاهر كلام الزمخشرى، كأنهم صاروا بذلك حقيقة التناجى نفسها، وفيه من تصوير المعنى وتقريره ما فيه.

السادس: أن جعله بمعنى المشتق يخرجنا من دلالة الإفراد إلى الجمع، لأننا نؤوله بلفظ مناجين أو متناجين، وهذا يفقدنا معنى لا يستهان به فى وصفهم بصيغة المفرد التى تجعلهم كالشخص الواحد فى تناجيهم واجتماع أمرهم لتدبر المخرج مما نابهم بسبب احتجاز أخيهم، وقد أخذ أبوهم عليهم موثقا من الله ليأتنه به، مع تفريطهم فى يوسف من قبل، ولما كان هذا الأمر يهمم جميعا، لأن المسئولية مشتركة بينهم وواقعة

---

(٤٢٣) الكشاف ٢٦٩/٢.

(٤٢٤) مجاز القرآن ٣١٥/١- معانى القرآن ٣٦٧/٢.

(٤٢٥) هامش د/ على طلب/صيغة فعيل واستعمالاتها ص ١٢.

عى عاتقهم جميعا فقد اجتمعوا كأنهم رجل واحد لتدبر الخلاص مما نزل بهم، ولذا فإن تأويل نجيا. بمناجين أو متناجين يفقدها ذلك المعنى، وليس كذلك المصدر، لأن المقصود منه ليس الدلالة على العدد وإنما على الحقيقة والماهية(٤٢٦)

فهذا مثال لما تشترك فيه الصيغة بين معنيين أحدهما ظاهر ترجحه القرائن، وآخر مرجوح ولكنه مما تحتمله دلالة الصيغة؛ ولكن تبقى بعد ذلك للمعانى الأخرى التى تحتملها الصيغة ظلالها الدلالية التى تزيد من ثراء المعنى؛ وذلك حيث تكون تلك المعانى موافقة للسياق، غير متنافرة معه كما فى المثال حيث خلص إخوة يوسف متناجين مبالغين فى تناجيهم حتى صاروا كأنما هم هيئة التناجى وحقيقته.(٤٢٧)

---

(٤٢٦) د/ محمد عبد العزيز، أثر أقسام الكلم فى الجملة العربية ص ١١٢.

(٤٢٧) هناك صور أخرى للإعجاز الأسلوبي على المستوى الصرفي في القرآن الكريم تجدها في دراستنا للتكرار في الصيغ في كتابنا : الإعجاز الصرفي للقرآن الكريم.